# الزمخشري

## لغويًا ومفسّرًا

تأليف

مرتضى آية الله زاده الشيرازي
أستاذ اللغة العربية المساعد
بكلية الإلهيات والمعارف الإسلامية
جامعة طهران

تقديم

الدكتور حسين نصّار

دار الثقافة للطباعة والنشر
بالقاهرة
٢١ شارع كامل صدقي بالفجالة
ت : ٩١٦٠٧٦ ـ القاهرة

# الزمخشري لغويا ومفسراً

# الزمخشري

## لغويًا ومفسِّرًا

تأليف

مرتضى آية الله زاده الشيرازي
أستاذ اللغة العربية المساعد
بكلية الإلهيات والمعارف الإسلامية
جامعة طهران

تقديم

الدكتور حسين نصار

١٩٧٧

دار الثقافة للطباعة والنشر
بالقاهرة

# تقـــديم

## للاستاذ الدكتور حسين نصار

**وكيل كلية الاداب جامعة القاهرة للدراسات العليا**

جارالله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشرى (٤٦٧-٥٣٨هـ) مثل رائع للرجل المسلم فى القرنين الخامس والسادس وغيرهما من القرون .

فهو رجل فارسى من مشرق الدولة الإسلامى ، تغلب على العوائق التى أقامها الجنس واللغة والبعد ، وذللها حتى صار ما صار .

وهو رجل يعنى بالثقافة العربية فى ميدانها الأخص : البلاغة ، ذلك الميدان الذى يحتاج من سالكه أن يتعرف على مسالك اللغة العربية ، وأن يتعمق دقائقها ، وأن يفطن إلى أسرارها .. وعلى الرغم من ذلك لم يتهيب الزمخشرى الطريق ، وسار فيه جريئا واعيا ، حتى كان ما كان .

وهو بلاغى فى دراساته المتنوعة التى منحته البروز فى عالم التفسير واللغة والكلام وإعجاز القرآن .

نعم ، لقد كان الزمخشرى مثالا جميلا للمسلم ، ورمزا مجسدا للإسلام يضم فى بردته البشر على اختلاف أجناسهم وأصقاعهم فتراهم يؤمنون بإله واحد ، ويدينون لنبي واحد ، ويتجهون لقبلة واحدة ، ويهوون لغة واحدة يهفو إليها قلب من استطاع إليها سبيلا ومن لم يستطع .

وكان الزمخشرى — بسبب ذلك كله — جديرا بالدراسة ، أعنى الدراسة المتأنية المتعمقة المتدبرة ، تنظر إلى الرجل فى حياته الشاقة التى تنقل فيها بين أرجاء العالم الإسلامى ، وفى سلوكه الزهدى الذى حمله على

الاعتكاف في بيت الله الحرام ، أى تنظر فى الرجل عامة .

وكان جديرا بالدراسات المتخصصة بالدراسات التى تعنى بالمفسر ، وبالمتكلم ، والبلاغى واللغوى ، والشاعر .. أعنى الدراسات التي تقتصر على مجال محدد لاتتعداه إلى غيره من المجالات التى سلكها الرجل وبرز فيها ، تبين أبعاده وتروده وتختبره وتقيم كل ما تعثر عليه فيه .

وقد لقى الرجل الدراسات العامة والخاصة ، وتوالى التأليف عنه . ولازال الميدان عنده محتاجا إلى دراسات ودراسات .

وبين يدى القارىء واحد من هذه المؤلفات . أحار بعض الحيرة إذا ما أردت أن أحدد مجاله . فالعنوان صريح أن الكاتب قاصد إلى الجهد اللغوى للزمخشرى ، يريد أن يقيم حوله دراسة حقة تبين آراء الرجل اللغوية وتقيمها . ولكن الكتاب نفسه يدل دلالة قاطعة على أن المؤلف لم يحصر نفسه فى هذا المجال الضيق ، وخرج عنه ووسع على نفسه ، وسعى إلى إعطاء صورة متكاملة للزمخشرى .

فتحدث عن الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التى عاش فيها ، وعن حياته ، وشخصيته وآثاره . فكان القسم الأول من كتابه مدخلا هاماً للموضوع الرئيسى .

وسعى مؤلف الكتاب إلى كمال البحث فى القسم الثانى من دراسته فلم يقتصر على الآثار اللغوية عند الزمخشرى ، مثل معجم أساس البلاغة والفائق بل تعداهما إلى الآثار ذات الصبغة اللغوية مثل الكشاف فى تفسير القرآن ، بل تجاوز هذا إلى المؤلفات التي أثرت معارفه اللغوية فيها مثل المقامات .

وتعقبع المؤلف نظرات الزمخشرى اللغوية ، والتقط الهام منها. فأقام عليه دراسة خاصة ، تقوم على المسح والاختبار أكثر ما تقوم، وعلى المقارنة بغيره من اللغويين فى بعض الأحيان .

ولم يكتف المؤلف بذلك . بل أراد أن يكشف عن مكانة فكر الزمخشرى اللغوية بين أفكار المعاصرين لنا .

وعلى الرغم من اختلافى مع المؤلف فى بعض ما قال ، وفى بعض خطأ المنهج الذى سلكه ، فانى أستطيع أن أقول مطمئنا : إن الكتاب الذى بين يدى القارىء يكشف عن رجل مسلم ، يحب العربية ورجالها ، ويسعى أن يكون واحداً منهم .

ويكشف عن رجل قادر على الكتابة بلغة عربية سليمة سلسلة ، يقرؤها القارىء فلا يكاد يصدمه فيها خروج أو شذوذ .

ويكشف عن رجل قادر على البحث فى التراث العربى ، وعلى التقاط ما يستحق الدراسة منه ، وعلى منحه الدراسة المناسبة .

فتهانئى للدكتور مرتضى آية الله زاده الشيرازى ، أستاذ اللغة العربية المساعد ، بكلية الإلهيات والمعارف الإسلامية ، بجامعة طهران، والذى كان أحد أفراد أول بعثة علمية إيرانية تفد إلى الجامعات المصرية ، وكانت رسالته أول رسالة أناقشها علميا فى كلية الآداب بجامعة القاهرة .

وأرجو أن يزداد حبا فى التراث العربى ، وسعيا وراء البحث عن ذخائره ، وقدرة على إعطاء الصور القويمة الحقيقية عنه .

والله هو المستعان والموفق ؟

حسين نصار

# مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

— ١ —

**الاتجاهات اللغوية عند الزمخشري :**

أثر الامام جار الله الزمخشري في الثقافة العربية الاسلامية في عصره وبعد عصره تأثيرا كبيرا ضخما امتد حتى اليوم ، وقد تجلى هذا التأثير واضحا جليا في امتدادات مدرسته في شتى علوم الدين والعربية التي كتب وألف فيها ولاتزال مؤلفاته الدينية واللغوية مصدرا للعلماء والدارسين من بعده حتى اليوم .

وجوانب الزمخشري العلمية العديدة ومنزلته الكبيرة في العلوم الدينية وعلوم البلاغة والأدب ، تجعلنا نجل هذا الرجل الخالد الذى أثر في اللغة العربية بآرائه ومؤلفاته التي انتفعت بها مدارس الثقافة الاسلامية في كل عصر وجيل . على أن لمنزلته اللغوية الكبيرة مقاما لم ينله أحد من معاصريه أو ممن جاءوا بعده ، وهذا الجانب اللغوى الذى لم يكشف عنه أحد من الدارسين هو موضوع هذا البحث .

وفلسفة الزمخشري اللغوية وآراؤه في اللغة ودراساته العديدة فيها وكتبه القيمة الخصبة التي توارثتها وتتلمذت عليها الأجيال حتى اليوم من أمثال « الاساس » والفائق ، المفصل ، وسواها تجعل منه صاحب مدرسة كبيرة ومرجعا هاما في اللغة لها مقامها ومنزلتها الكبيرة بين مدارس النحو واللغة في الثقافة العربية والاسلامية « فضلا عن أن تفكير الزمخشري

اللغوى موصول الصلة بتفكيرنا اللغوى المعاصر من الإيمان بضرورة التوليد والتجديد اللغوى عن طريق الاشتقاق والقياس والتعريب والتوسع وغيرها ، ومن اجازة الاستشهاد باللسان اللغوى المعاصر فى تأييد الأصول اللغوية وفى كتابة المعاجم .

لقد كان ذلك باعثا كبيرا لى على دراسة الاتجاهات اللغوية عند الزمخشرى ، هذه الدراسة الشاقة العسيرة التى تضمنتها هذا البحث والتى استعنت عليها بكل ما يمكن أن يفيد فى البحث من مراجع وأصول مطبوعة أو مخطوطة ، ولم تسبق هذه الدراسة للاتجاهات اللغوية عند الزمخشرى دراسة أخرى تنير السبيل أمامى وذلك أحد الأسباب التى صعبت هذا البحث .

— ٢ —

وقد قسمت هذه الدراسة إلى قسمين : الأول فى عصر الزمخشرى وحياته وثقافاته ، والقسم الثانى فى أصول فلسفته اللغوية ، أما القسم الأول فيشتمل على ثلاث أبواب: الأول فى عصر الزمخشرى والثانى فى حياته والثالث فى شخصيته وثقافته وآثاره واعتزاله . وكل باب من هذه الأبواب الثلاثة مقسم إلى فصول عدة ، فالباب الأول يشتمل على أربعة فصول فى دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية واللغوية . والباب الثانى يحتوى على خمسة فصول فى دراسة بيئة الزمخشرى ونشأته وحياته العلمية الأولى واستاذيته فى طور الرجولة وعزلته ووفاته . والباب الثالث يحتوى على أربعة فصول تناولت بالدراسة المستفيضة المستوعبة آثاره وثقافته وشخصيته واعتزاله .

أما القسم الثانى فهو كذلك مقسم إلى أبواب ثلاثة ، فالأول فى

مواهبه اللغوية والأدبية والثانى إتجاهاته اللغوية والثالث فى أصوله اللغوية وتجديده فى اللغة . و كل باب من هذه الأبواب الثلاثة كذلك مقسم إلى فصول ، حسب طبيعة البحث وحاجاته ، فالباب الأول يحتوى على فصول ثلاثة ، الأول فى نبوغه فى اللغة وعلومها والثانى فى منزلته فى البلاغة العربية ، والثالث تحدثت فيه عن الزمخشرى الأديب .

والباب الثانى مقسم إلى أربعة فصول ، الأول فى مقاماته والاتجاه اللغوى السائد فيها ، والثانى فى أساس البلاغة وإتجاهه اللغوى ، والثالث فى الاتجاه اللغوى فى الكشاف ، والرابع فى الاتجاه اللغوى فى الفائق .

أما الباب الثالث والأخير من أبواب القسم الثانى من الرسالة، وهو عن الأصول اللغوية عند الزمخشرى وتجديده ، فهو مقسم إلى خمسة فصول : الأول فى المبادىء اللغوية عند الزمخشرى ، والثانى فى الصلات الفكرية بين الزمخشرى وابن جنى ، والثالث فى مآخذ العلماء على الزمخشرى ، والرابع فى تجديده اللغوى ، والخامس فى الصلة بين تفكيره اللغوى والتفكير اللغوى المعاصر .

# القسم الأول

## الزمخشري اللغوي

٤٦٧ ـــ ٥٣٨هـ

# الباب الأول

## عصر الزمخشري

# الفصل الأول

# الحياة السياسية

## الحياة السياسية فى عصر الزمخشرى :

(ا) عاش الزمخشرى فى فترة حافلة بالأحداث والتطورات السياسية وشهد تقسيم العالم الإسلامى إلى العديد من الممالك والامارات وعاصر بعض الملوك المشهورين فى تاريخ الاسلام ، وشاهد آثار الحياة السياسية العاصفة فى شتى جوانب الثقافة والاجتماع والاقتصاد والآداب وسواها .

(ب) ومن الدول التى عاصرها الزمخشرى والتى قامت فى أرجاء العالم الاسلامى .

١ ــ الخلافة العباسية وقد كانت فى عهد ضعف سياسى ظاهر، وغلب عليها السلجوقيون الذين خلفوا آل بويه فى الاستيلاء على النفوذ والسلطات والملك فى دولة الخلافة . وقد حكموا رقعة واسعة فى العالم الاسلامى ، وخراسان وما وراء النهر ، ويلقبون « بالسلاجقة العظماء » وقد أسس دولتهم ركن الدين أبو طالب طغرل ( ٤٢٥ — ٥٢٢ هـ ) .

وأشهر ملوكها بعده :

| | |
|---|---|
| ١ — جلال الدين أبو الفتح ملكشاه | ٤٦٥ — ٤٨٥ هـ . |
| ٢ — ناصر الدين محمود | ٤٨٥ ــ ٤٨٧ هـ . |
| ٣ ــ ركن الدولة أبو المظفر بركيارق | ٤٨٧ ــ ٤٩٨ هـ . |
| ٤ ــ ركن الدين ملكشاه الثانى | ٤٩٨ ــ ٤٩٨ هـ . |
| غياث الدين أبو شجاع محمد | ٤٩٨ — ٥١١ هـ . |
| ٦ — معز الدين أبو الحارث سنجر | ٥١١ — ٥٥٢ هـ . |

وعندما جاء دورهم فى الخلافة العباسية عام (٤٤٧ هـ .) ، انتقل

السلطان والملك من آل بويه إلى أمة تركية يمثلها سلطان من آل سلجوق وكان بنو العباس مع هذه الدولة أحسن حالا منهم مع بنى بويه ، فإن هؤلاء كانوا سنيين يحترمون الخلفاء تدينا ، وكانوا يعبرون لهم من مظاهر التعظيم والاجلال بما يناسب مكانتهم ومنزلتهم الدينية . ولكن مع ذلك كله فإن السطوة السياسية والنفوذ الفعلى كانا بيد هؤلاء السلاطين السلاجقة فكان لهم الأمر والنهى ، أما الخلافة فكانت لها قدسيتها ومكانتها الروحية ، ولكنها لاتتدخل فى شئون السياسة والحكم ، وقد ولى فى هذا الدور من آل عباس تسعة خلفاء وهم :

١ — عبدالله القائم بأمر الله بن القادر بن المقتدر ٤٢٢ — ٤٦٧ هـ .
٢ — عبد الله المقتدى بالله بن محمد بن القائم ٤٦٧ — ٤٨٧ هـ .
٣ — أحمد المستظهر بن المقتدى ٤٨٧ — ٥١٢ هـ .
٤ — الفضل المسترشد بن المستظهر ٥١٢ — ٥٢٩ هـ .
٥ — المنصور الراشد بن المسترشد ٥٢٩ — ٥٢٩ هـ .
٦ — محمد المقتفى بن المستظهر ٥٢٩ — ٥٥٥ هـ .
٧ — يوسف المستنجد بن المقتفى ٥٥٥ — ٥٦٦ هـ .
٨ — الحسن المستضىء بن المستنجد ٥٦٦ — ٥٧٥ هـ .
٩ — أحمد الناصر بن المستضىء ٥٧٥ — ٦٢٢ هـ .(١)

وكانت الامبراطورية الاسلامية حينئذ فى حالة تفكك وتقسم من الناحية السياسية ، فقد كانت العصبية تسيطر على أفكار الولاة والحكام وكان النزاع من قبل بين الفرس والعرب فأصبح بين العرب والفرس والترك

(١) تاريخ كزيده — تصحيح قزوينى .

وكان العرب قد ضعف أمرهم فى نزاعهم مع الفرس . فجاءت قوة الترك ضغثا على ابالة وتوجهت قوة الترك — أولا — لاضعاف شأن هؤلاء الفرس المستبدين بالسلطان ، وأخذ التاريخ الاسلامى من الناحية السياسية يصطبغ بالصبغة التركية بعد أن كانت الأحداث تتصل بأعلام الفرس ، وبدأت العصبية ضد الأتراك أثر مهد دخولهم بغداد ، ففى تلك الحقبة من الزمن حكمت البلدان الاسلامية فى شتى بقاعها دويلات كانت تقسم أحيانا بالقوة وتارة بالضعف ومن أشهرها :

١ — الدولة الغزنوية ٣٥١ — ٥٨٢ ﻫ .

٢ — الدولة العقيلية فى ديار بكر والجزيرة ٣٨٦ — ٤٨٩ ﻫ .

٣ — الدولة الزيدية فى الحلسة ٤٠٣ — ٥٤٥ ﻫ .

٤ — الدولة الفاطمية فى مصر والشام ٢٩٧ — ٥٦٧ ﻫ .

٥ — دولة الملثمين فى الاندلس والمغرب الأقصى ٤٨٠ — ٥٣٧ ﻫ .

٦ — دولة آل زيرى بأفريقيا ٥١٥ ﻫ .

٧ — دولة المرابطين فى مراكش ٤٨٣ ﻫ .[1]

٨ — دولة الاشراف الحسنيين فى مكة ومن أشهر امرائها فى عصر الزمخشرى : قاسم بن محمد الحسنى

٤٨٧ — ٥١٨ ﻫ .[2]

وأهم الدول التى عاصرها الزمخشرى هى الخوارزمشاهية التى كانت تحكم خراسان وما وراء النهر (٤٩٠ - ٦٢٨ ﻫ .) وكان

---

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسى ج ٢ ص ١٩٧ .

(٢) تاريخ حبيب السير — لخوندمير .

ظهور هذه الدولة على مسرح التاريخ الاسلامى نتيجة حوادث متعددة ومتداخلة ظهرت مع الدولة العباسية منذ نشأتها وكما ظهرت نتيجة للتيارات السياسية والاجتماعية فى شرق آسيا وغربها .

وعلى يد هذه الدولة انقرضت الدولة السلجوقية ولها أهمية خاصة فى فى عصر الزمخشرى وحياته إذ كانت ـ زمخشر ـ موطن الزمخشرى بلدا من البلاد التى تضمها هذه الدولة الكبيرة وسنتحدث عن تاريخها بشىء من التفصيل ..

— ٢ —

تنسب هذه الدولة الخوارزمية إلى مدينة ـ خوارزم [1] أو ـ خيوة ـ وتطلق على منطقة شاسعة تقع فى الجنوب من نهر جيحون وشمالى شرق خراسان وهى منطقة خصبة لعبت دورا كبيرا فى تطور الحضارة فى أواسط آسيا من أقدم العصور وقد دخلت تحت الحكم الاسلامى بعد أن فتحها « قتيبة بن مسلم » عام ٨٦ هـ . أو ٩٣ هـ . ( ٧١٢م ) كما تقول دائرة المعارف الاسلامية ـ وقد يكون تحديد عام ٩٣ هـ . تاريخا لاستقرار الحكم الاسلامى فيها ..

ومن الأسر التى حكمت خوارزم فى التاريخ الإسلامى أسرة أبى العباس مأمون بن محمد الذى ولى من ( ٣٨٥ هـ ٩٩٥ م . ) الذى غزا

(١) ان كلمة خوارزم . جاءت فى افستاة XVARIZÊM وجاءت فى نقوش الهخامنشية هوارزميش HUARZMISH والكلمة مركبة من جزأين خوا زم والجزء الثانى بمعنى الأرض والجزء الأل بمعنى الشمس والمأكول والمزروع ولها معان أخرى أيضا ولكن هذا المعنى المذكور هنا مع ملاحظة خصوبة أراضى خوارزم يكون انسب وأولى . راجع : برهان قاطع : دكتور محمد معين ج ٢ ص ٧٨٠ ، ١٠٣٢ ط طهران .

الجزء الجنوبى من خوارزم ونصب نفسه شاها ولقب – « بخوارزمشناه »[١]

وتوارث الحكم واللقب من جاء بعده من خلفائه وقد صادف حكم هذه الأسرة امتداد نفوذ السلطان محمود الغزنوى ( ٣٨٨ – ٤٢١ هـ ) الذى ضم بلاد خوارزم إلى مملكته الواسعة عام ( ٤٠٧ هـ . ) على أثر مقتل خوارزم شاه مأمون الذى كان قد تزوج من أخت السلطان محمود واعترف بسلطانه وأراد أن يخطب له على منابر بلاده فقتله بعض قواده وأجلسوا ابنه مكانه [٢] ، وقصد السلطان محمود هذه البلاد واستولى عليها ، وأدب الثوار وولى عليها نائبا من قبله [٣] وبذلك انقرضت الأسرة المأمونية الخوارزمية وخضعت لحكم الدولة الغزنوية .

ومن الأسر التى حكمت خوارزم أسرة – أنوشتكين[٤] ، وكان انوشتكين مملوكا لأحد أمراء السلاجقة ثم تدرج فى وظائف الدولة، وكان يشغل وظيفة الساقى وهى إحدى وظائف البلاط الإسلامى. وهذا وإن لم يكن مؤسس الدولة الخوارزمية ولكنه الذى كان قد وضع نواتها — وتوارث

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية . وراجع كتاب « بلسدان الخلافه الشرقية » – تأليف لسترنج – ترجمة : بشير فرنسيس وكوركيس عواد ص ٤٨٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٣ .وراجع المسالك والممالك – للاصطخرى . ط دار القلم .

(٢) حبيب السير – خوندمير

(٣) انظر ابن الأثير ج ٩ ص ٩٨ .

(٤) وقد سمى بعض المؤرخين هذا الرجل باسم – نوشتكين ومنهم النسوى ولكننا نميل مع أبى الفداء وابن الاثير الى – انوشتكين – من حيث أنه أقرب وأصح لأن الاسم مركب من جزأين – انوشه أو انوشا – بمعنى طوبى ومرحبا والعدالة والرفاه والابدى والجزء الثانى – تكين – أصلها تركيه وتأتى فى الاسماء المركبة ومعناه الجميل ومثله سبكتكين والبكتكين . . . راجع برهان قاطع ط طهران دكتور معين ، تاريخ أبى الفداء ج ٢ ص ٢٠٩ ط الاولى .

أسرته الحكم فى خوارزم حتى عام ٦٢٨ هـ . ومن أشهر امراء وملوك هذه الأسرة :

١ — أنوشتكين . . . . . . . . . . ٤٧٠ ـ ٤٩٠ هـ .

٢ ـ قطب الدين محمد بن انوشتكين . . ٤٩٠ ـ ٥٢١ هـ .

٣ — اتسز بن محمد[1] . . . . . . . . . ٥٢١ ـ ٥٥٠ هـ .

٤ ـ ارسلان بن اتسز . . . . . . . . . . ٥٥١ ـ ٥٦٨ هـ .

٥ ـ سلطان شاه محمود بن ارسلان . . . ٥٦٨ ـ ٥٦٨ هـ .

٦ — تكش بن ارسلان . . . . . . . ٥٦٨ ـ ٥٩٦ هـ[2] .

وعندما جاءت انوشتكين الوفاة نظر إلى من يكون أولى من بعده فوقع الاختيار على أكبر أولاده قطب الدين محمد ، وكان أبوه قد أرسله من قبل إلى مرو ليتعلم ويطلع على فنون الآداب والرياسة ، ولما شب وكبر عينه أحد قواد — بركيارق السلجوقى واليا على إقليم خوارزم ولقبه خوارزمشاه ، ويقول ابن الأثير عن حوادث سنة ٤٩٠ هـ مامعناه: « أن بركيارق ولى خوارزم الأمير محمد بن انوشتكين ، وكان أبوه انوشتكين مملوك أمير من السلجوقيه سماه انوشتكين غرشجه . . . . . فأنجب ولدا سماه محمدا ،فأحسن تأديبه ، فنظر الأمير فيمن يولى خوارزم فوقع اختياره على هذا الأمير ولقبه خوارزمشاه ، ولماتوفى ولى بعده ابنه اتسز » وهكذا أخذ نجم الخوارز مشاهيةفى الارتفاع ففى فترة حكم ملكشاه

(١) ويكتبه أبو الفداء ــ اطسز واعتقد أن هذا تعريب حيث يكون نطق تعريب ــ التاء ــ والطاء ــ فى اللغة الفارسية واحدة .

(٢) تاريخ كزيدة ــ تصحيح القزوينى .

السلجوقى كان عصره عهد تماسك القوى الاسلامية عامة سواء فى إيران أو العراق أو كرمان أو الروم ولكن بعد ما أخذت الدولة السلجوقية فى الانحلال تبعها انهيار الدولة الإسلامية حتى وافت سنة ٥٩٠ هـ وزالت سلطة السلجوقية بمقتل آخر سلطانهم .

أخذت الدولة الخوارزمية فى بناء صرح سلطانها فى الشرق وبلاد خوارزم ودفع الاعداء والمنافسين ، وامتدت امبراطوريتهم فى الناحية اليمنى انهر سيحون حتى البحيرات الجبلية التى تربط إيران بوادى دجلة ، واعترف بحكمهم فى شبه جزيرة العرب — عمان — فاستعادت خوارزم مكانتها السياسية بين الدول الكبرى وكانوا محبين الفضل والأدب مشهورين باكرام العلماء والأدباء وكانت نية الخوارزمية أن يبنوا إمبراطورية عظيمة على أشلاء قوى الامارات والدول الاسلامية المتناثرة التى كانت سببا فى تفكك العالم الاسلامى وضعفه ، ولو أن الحوادث أمهلتهم قليلا لاستطاعوا أن يحققوا مآربهم ، إلا أن الأحداث سبقتهم فصرعهم المغول فى ميدان حرب لم يعرفها المسلمون من قبل (١) .

— ٣ —

ومن أشهر الملوك الذين اتصل بهم الزمخشرى فى عصره :

( أ ) أبو الفتح ملكشاه السلجوقى ( ٤٦٥ — ٤٨٥ هـ ) وقد ولد الزمخشرى فى عصره الذى يقاس عهده فى عظمته وفخامته بأزهر عهود

---

(١) تاريخ كزيده — ٤٨٦ ، ٤٩٣ ، ٤٠٤ ، ٤٩٤ تاريخ جهان كشاى جوينى ج ٢ ، ابن الاثير — الكامل — حوادث سنة ٤٩٠ ومابعدها ، الاثار الباقية للبيرونى ص ٤٩ ، ٣٥ ، ابن مسكويه — عيوان الحدائق ج ٣ ، دائرة المعارف الاسلامية .

الدولة العربية والرومانية[١] .

( ب ) محمد بن أبى الفتح ملكشاه السلجوقى المتوفى عام ٥١١هـ — وقد اتصل الزمخشرى به فى اصفهان ومدحه منوها بأفعاله وسجاياه التى خدم بها الاسلام حيث يقول :

محمد ابن أبى الفتح الذى تركت
أوصافـــه لـكنه فى كل منطيق
ابن السلاطين من أبناء سلجوق
وابن الغطـارف منهم والغرانيق
لله من عادل من حـــق سيرته
ونصرة الحق أن يدعى بفـاروق
مستوجب من جوع الشرك مبغضه
محبب فى بنى الاسلام مرموق[٢]

ج — واتصل كذلك بالأمير الخوارزمشاه ـ محمد بن انوشتكين ـ ( ٤٩٠ — ٥٢١ هـ ) ، حيث لقى مـكانة مرموقة ، ويمدحه فى قصيدة طويلة مطلعها :

أى الملوك تلاقت فى مجالسه غرائب العلم والآداب والحكم[٣]

د — وظلت مكانته محفوظة أيضا عند ابنه اتسز — الذى حرر له

(١) مختصر تاريخ العرب لسيد بن على ص ٢٧٢ ، دولة آل سلجوق للعماد الأصفهانى ص ٥٢ .
(٢) ديوان الزمخشرى ورقه ٨٦
(٣) ديوان الزمخشرى ورقه ١٠٧

الزمخشرى كتابه « مقدمة الأدب » : ويقول فى مقدمتها : « والذى اصطفاه الله فى زمانه لنصرة الأدب وقذف فى قلبه رغبة فى كلام العرب ـ الأمير الأجل الاسفهالار بهاء الدين أو المظفر — «اتسز ـ ابن خوارزمشاه ادام الله علاه » .... . ثم يقول .... « وقد رسم لى أمره العالى ـ زيد علوا ـ بتحرير نسخة من كتاب« مقدمة الأدب » لخزانة كتبه المعمورة ففعلت على رسمه وجعلت الكتاب مرسوما باسمه[1] .

ومن الأمراء والوزراء الذين اتصل بهم الزمخشرى :

( أ ) نظام الملك الطوسى وزير السلطان السلجوقى[2] المقتول عام ( ٤٨٥ هـ ) ويقول فى قصيدة مدحه بها :

ثنائى لصدر الملك ماعشت دائم
وأن دعائى مثله فى دوامه
جعلتهما وردى نهارى وليلتى
كفعل الفتى فى صومه وقيامه
وكان فريد العصر عبدا مقربا
وما أنا الا هضبة فى شمامه[3]

( ب ) مؤيد الملك بن نظام الملك كان قد تولى ديوان الانشاء من قبل أبى الفتح ملكشاه[4] ، ويقول فى مدحه :

---

(١) مقدمة الادب : الزمخشرى

(٢) تاريخ آ ل سلجوق ـ العماد الاصفهانى ص ٥٩ ط ١٩٠٠ م .

(٣) ديوان الزمخشرى ١٠٤ ـــ ١٣ ـــ ٩٥ ـــ تاريخ آ ل سلجوق ـــ العماد الاصفهانى ـــ ص ٥٧ .

(٤) ديوان الزمخشرى ورقه ٩٧ ، تاريخ آ ل سلجوق العماد الاصفهانى ص ٥٢

إليك عبيد الله أنهى شكايتى نكاية دهر ينقحى بصياله
بحقك فأزجره ومره لينتهى فأمرك امضى من مواضى نباله
وقل يازمان السوء مالك قاصدا لمن عرف الناس اهتمامى بحاله
فأنت الذى الديوان طوع لحكمه وذلك طوق فى رقاب رجاله[١]

ج — وذهب الزمخشرى إلى مكة ولقى رعاية من الأمير العلوى بن عيسى بن حمزة بن وهاس[٢] وكان من أمرائها وأشرافها وقد ألف الكشاف باشارة منه[٣] عام ( ٥٢٦ هـ )[٤] ويقول من قصيدة فى مدحه :

مما أجل الصنم فيـــه أناختى بمكة مرضيا مرادا وموردا
لولا ابن وهاس وسابغ فضله رعيت هشيما واستقيت مصروا[٥]

( د ) والتقى الزمخشرى فى دمشق بصاحبها تاج الملك عام(٥٢٦ هـ) ومن بعده بابنه شمس الملك الذى ولى بعد أبيه[٦] وقد مدحهما الزمخشرى وله فيهما قصائد وردت فى ديوانه[٧] .

هـ — وقد اتصل خراسان بجماعة من أصحاب السلطة والدولة — منهم مجير الدولة أبو الفتح على بن الحسين الاردستانى الذى استنابه تاج الدولة عنه فى ديوان الطغراء والانشاء فى عهد السلطان أبى الفتح

---

(١) ديوان الزمخشرى ورقه ٩٧ .

(٢) شفاء الغرام ٢ : ١٦٦ يذكر حمزة بن أبى وهاس فى أخبار نحو عام ٤٨٠هـ، وهوأبو المذكور ، ويدلنا هذا على أن صحة الاسم ، ابن أبى وهاس .

(٣) مقدمة الكشاف .

(٤) العقد الثمين للفاسى ج ٢ مخطوطة دار الكتب .

(٥) ديوان الزمخشرى الورقة الاولى .

(٦) ابن الاثير ج ١٠ ص ٢٣٤ الى ٢٤٣ .

(٧) ديوان الزمخشرى ٣٨ ، ٩٩ .

ملكشاه[١].

ونرى هنا الزمخشرى يعرض على ممدوحه كتبه اللغوية متوسلا حيث يقول من قصيدة فى مدحه :

وأصبحت كالمقصوص ريش جناحه
أنوء بركن كلما قمت جـــائح
فعند مجير الدولة المستجار لى
مداواة أدواء وأسوا جرائح
نظامى آمـــال مراضى وجابر
لكسر مهيضات الخطوب الفوادح
فليست رحالى ألقيت بفنـــائه
فارتع من نعمائه غير نازح
ويقدح زندا وأرياً من مناقبى
إذا صلدت كل الزناد بقـادح
وفى شرح أبيات الكتاب لبعضها ما
يرى فى صفاتى مجلا أى شارح
وأنموذجا انفذت فيه يضمـــه
رجائى أرى فيه وجوه المناجح
أراقب من عين الوزير إطلاعه
عليه وحسبى منه لمحة لامح[٢]

---

(١) تاريخ آل سلجوق للعماد الاصفهانى ٥٨ .

(٢) ديوان الزمخشرى ٣٣ .

— ٤ —

هذه هى ملامح عصر الزمخشرى السياسى وأشهر دوله وحكامه ، ووجوه الملوك والأمراء والوزراء الذين اتصل بهم الزمخشرى ومدحهم.

ومن دراسة هذا العصر — سياسيا — نستطيع أن نعرف أهم خصائص هذا العصر — اجتماعيا وثقافيا وأدبيا لتتضح لنا معالم بيئته ، وخصائص عصره ، وسمات زمنه ... ولتتضح لنا بذلك غوامض حياته ، ومجمل أفكاره وآرائه ...

# الفصـــل الثـــانى

# الحياة الاجتماعية
# فى عصر الزمخشرى

# الحياة الاجتماعية فى عصر الزمخشرى

— ١ —

يراد بالحياة الاجتماعية ذكر طبقات المجتمع من حيث الجنس والدين وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض، ونظام الأسرة والصلات بين أفرادها ووصف البلاط ومجالس الخلفاء والأعياد والمواسم والحفلات ووصف القصور ومافيها من آثاث ولباس وشراب وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع ولاشك أن من أسس الحياة الاجتماعية كذلك الحالة الاقتصادية التى تسيطر على الناس وتؤثر فى الصلات الاجتماعية بينهم....

— ٢ —

كان المجتمع الإسلامى فى عصر الزمخشرى يتألف من عدة عناصر: أهمها العنصر العربى، والعنصر الفارسى، والعنصر التركى. إلى عناصر أخرى مثل الروم والزنج والبربر ... إلخ. وكان النزاع بين العنصر التركى والفارسى على أشده، فقد كان النفوذ للفرس فى عهد آل بويه ثم خلفت دولتهم دولة السلجوقية التركية، فانتقل النفوذ والسلطان والرتب الأخرى إلى الأتراك، الذين كان لهم أثر فى التاريخ الاسلامى، ولهم كذلك النفوذ السياسى فى شتى أنحاء العالم الاسلامى، وقد قضوا على نفوذ الفرس والعرب فى دولة الخلافة العباسية، وتولوا مختلف المناصب الرفيعة فيها. وكانت أخلاقهم الاجتماعية ضعيفة، وكان فيهم العبث بالأخلاق والشراهة فى جمع الأموال، كما كانوا مشهورين بالجمال والنظافة، وطابعهم على

العموم حب الجندية ، والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة والبعد عن الفلسفة والجدل فى الدين وحب المال مع عدم الرغبة فى الاصلاح .

وقد دخلت العناصر التركية فى الإسلام على التدريج وتعلموا اللغة العربية والدين ، ونبغ فريق منهم فى مختلف الجوانب . ومن العنصر التركى قبل عصر الزمخشرى : أبو نصر الفارابى المتوفى عام ( ٣٣٩ هـ ) ، وإسماعيل بن حماد الجوهرى صاحب كتاب « الصحاح » وهو من أهم مصادر اللغة وأصولها ، وكان من أئمة القرن الرابع .

— أما العنصر الفارسى : فقد كان له النفوذ فى العالم الإسلامى قبل عهد السلاجقة ، ولكنهم كانوا عماد النظام الإدارى والسياسى للدولة فى عصر السلاجقة أيضا ، ومن مثل ذلك أن الوزير نظام الملك الطوسى ( ٤٨٥ هـ ) تولى الوزارة لآل سلجوق وهو الذى أنشأ المدارس النظامية وكان له فضل كبير على دولتهم ..

وكان العالم الإسلامى قد تأثر بالعصر الفارسى فى الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد العامة وفى الحياة العقلية الخصبة كذلك . واستعاد النيروز فى بلاط الخلفاء العباسيين رونقه الذى كان له فى العصور السابقة ، وأخذ الكتاب والوزراء الفرس يحتفلون به ، وقد ظهر أثر ذلك فى الأدب العربى حتى لنجد ٦٨ قصيدة قالها مهيار الديلمى ( م ٤٢٨ هـ ) فى التهنئة بالنيروز والمهرجان ، ونجد آداب الكتاب والشعراء فى هذا العيد مبعثرة فى شتى مصادر الأدب والتاريخ .

ومن ذلك يحدثنا القلقشندى بأن أول من رسم هدايا النيروز والمهرجان فى الإسلام الحجاج بن يوسف الثقفى . ثم رفع ذلك عمر بن عبد العزيز

واستمر المنع إلى أن رفع الكاتب أحمد بن يوسف سفطاً من ذهب فيه قطعة عود هندى إلى المأمون وكتب معه :

«هذا يوم جرت فيه العادة بإتحاف العبيد السادة» .

ويقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى يوم المهرجان :

إذا ماتحقق بالمهرجان من ليس يعرف معناه غالطا

ومعناه أن غلب الفرس فيه — فسموه للروح فيه حفاظا .

ويقول أيضا :

أخا الفرس إن الفرس تعلم أنه لأطيب من نوروزها مهرجانها

لادبار أيام يغم هواؤها واقبال أيام يسر زمانها

ومن قصيدة لعبد العزيز بن نباته يمدح عضد الدولة فى المهرجان :

هى الليلة الغراء فى كل شتوة تغادر جيد الدهر ابلج حاليا

ومن الشعر الذى جاء فى الأدب العربى وتأثر بآداب الفرس قول الشاعر :

كيف ابتهاجك بالنيروز ياسكن وكل مافيه يحكينى وأحكيه

فتارة كلهيب النار فى كبدى وتارة كتوالى عبرتى فيه

ومن ذلك نرى أن امورا دخلت فى الأدب العربى لم تكن مألوفة فيها أمثال التهنئة بولاية الديوان ، والتهنئة بالنيروز ، والتهنئة بالمهرجان وغير ذلك ...[1] .

---

(١) راجع صبح الأعشى — للقلقشندى — ح ٢ ص ٤٠٧ ، ٤٢٦ ، ج ٩ — ص ٢١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ط دار الكتب المصرية .

راجع ديوان مهيار الديلمى — ح ٢ ، ص ١١٧ ، ١٤٠ ، ١٦١ ، ١٧٧ — ج ٤ ، ص ١٣٧ .

=

ومن ذلك أيضا إستعمال التقويم الفارسي في الدواوين (١) ، وهكذا نجد أسماء المأكولات والمشروبات والرياحين والملابس الايرانية دخلت وراجت في المجتمع الاسلامي ونجد كثيرا من ذلك في الأدب العربي حتى قبل عصر الزمخشري ، ومنه ما نراه عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين وفي كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير ، وفي كتاب « المعرب » للجواليقي و « يتيمة الدهر » للثعالبي ، ومنه كذلك ما نقرؤه في « ديوان بشار » من قوله :

احين ليست بعد العرى خزا     ونادمت الكرام على العقار
ونلت من الشبارق والقلايـــا     واعطيت البنفسج في الخمار
تفاخر يابن راعيـة وراع     بني الأحرار حسبك من خسار (٢)

وكذلك قول الأعشى ميمون بن قيس من قصيدة له :

لنا جلستان عندها وبنفسج     سوسنبر والمرزجوش منمنما
وشاهسفرم والياسمين ونرجس     يصبحنا في كل دجن تغيما

فكلمات جلستان بمعنى الروضة — وبنفسج ، البنفشة ، وسوسن ومرزجوش وشاه اسفرم ونركس . كلها فارسية وقد ذكرت كل هذا للدلالة على تأثر المجتمع الاسلامي بالحياة الفارسية وعاداتها وتقاليدها وما إلى ذلك ...

---

= ط دار الكتب المصرية

أنظر : كتاب التاج — للجاحظ — تجد فيه شواهد كثيرة لهذه العادات والتقاليد الفارسية .

(١) السنة الايرانية سنة إسلامية كالسنة الهجرية إلا أنها تختلف عن السنة العربية بأنها شمسية وسنتها ٣٦٥ يوما وساعة — أحسن التقاسيم — ص ٤٤١ ، الاثار الباقية ٦٨

(١) ديوان بشار ج ٥ ص ٣٣٠ .

ومن عناصر المجتمع فى هذا العصر : الخوارزمية الذين ينتمون إلى اقليم « خوارزم » الذى سبق أن تحدثنا عنه، وقد دخلوا الاسلام تدريجيا وذاعت بينهم اللغة العربية . ويحدثنا البيرونى عن العادات والتقاليد الفارسية هناك(١) ،ويحدثنا أيضا الرحالة المقدسى(٢) ،وياقوت(٣) ، وابن بطوطة(٤) عن بساتينها وشوارعها الفسيحة وأسواقها العامرة وما إلى ذلك من مظاهر العمران والازدهار ويحدثنا هؤلاء الرحالة أيضا عن تمسك أهل خوارزم بالتقاليد الدينية وأداء الفرائض واطعامهم للفقراء والمساكين وعن طبيعتها الجميلة ووفرة أسباب المعيشة والترف فيها ...

ومن اقليم خوارزم الذى كان بحكم موقعه عاملا مؤثرا فى العاطفة الدينية لأهله : جماعة من المحدثين ذكرهم الخطيب البغدادى وياقوت والسيوطى ... وسنتحدث عنهم عند ذكرنا البيئة العقلية . . . وكانت خوارزم أيضا مرتعا — خصبا للاعتزال ، ويعد الزمخشرى : رأس فضائلها فيقول :

« رأس فضائل خوارزم هو مارزقته من المذهب السديد ، مذهب أهل العدل والتوحيد »(٥) . وكانت لغة تخاطبهم فى خوارزم هى اللهجة الخوارزمية ، التى كافحها مسلم بن قتيبة كفاحا مريرا ، ويقول البيرونى : أنه — أى ابن قتيبة — أباد من يحسن كتابة الخط الخوارزمى وقتل من

---

(١) الاثار الباقية للبيرونى ص ٣٦ ، ٤٨ ط أوروبا .

(٢) أحسن التقاسيم ص ٢٨٤ طاروب .

(٣) معجم البلدان لياقوت ج ٥ ص ٤٨٢ .

(٤) مهذب رحلة ابن بطوطة ص ٢٩٨ .

(٥) الباب التاسع من مخطوط ربيع الابرار للزمخشرى دار الكتب

يعلم أخبارهم ويدرس ذلك ومزق ما كان عندهم كل ممزق — فخفيت لذلك خفاء لايتوصل معه إلى معرفة حقائق ما بعد الاسلام . . . ولكن مهما كان من صنيع ابن قتيبة فعلى الرغم من ذلك بقيت كل هذه حتى القرن الثامن الهجرى .

واللغة الخوارزمية تعد من اللهجات الايرانية الوسطى التى كانت جسرا بين اللغات الايرانية الحديثة واللغات الايرانية القديمة وقد دخلها فى العهد الإسلامى كثير من الكلمات العربية والفارسية . . . ولكن معلوماتنا عن اللغة الخوارزمية عدا الكلمات التى ذكرها البيرونى ( فى الآثار الباقية ) حديثة جدا لاتعود إلى أكثر من سنة ١٩٢٧ ميلادية حين عثر على آثار جديدة منها ، وهذه الآثار هى نسختان فى الفقه باللغة العربية نقلت فيها عبارات باللغة الخوارزمية ثم فيهما فهرست موضوع لشرح تلك العبارات فى إحدى هاتين النسختين . على أن أهم أثر من اللغة الخوارزمية هو « مقدمة الأدب » للزمخشرى الذى اكتشف عام ١٩٤٨ وهو يحوى كلمات عربية مع ترجمتها الخوارزمية والآثار الخوارزمية مكتوبة كلها بالخط العربى . ولكن قراءتها وشرحها لم يكتملا حتى الآن والصعوبة فى ذلك أنها غير معربة كما أن التنقيط فيها ناقص . ويستدل من النسختين الفقهيتين المذكورتين على أن كثيرا من الكلمات الفارسية والعربية قد تخللت اللغة الخوارزمية مما يدل على تأثير هاتين اللغتين فيها[1] .

---

(١) تطور الشعر الفارسى قبل الاسلام وبعده — دكتور صفا ، راجع مقال A.A.FRE iMAN موسكو ولينينغراد ١٩٥١ وقد ترجمت فى مجلة الدراسات الادبية — منشورات جامعة لبنان العدد ٢ السنة ٢ ، وعدد ١ السنة الثالثة .

وقد نبغ من هذا العنصر الامام الزمخشرى — وأبو الفتح المطرزى الخوارزمى وعلى بن عراق الصفارى أبو الحسن الخوارزمى ومحمد بن اسحق الخوارزمى . وجابر بن محمد بن يوسف الخوارزمى . وغيرهم ... ، ومن قبل نبغ أبو بكر الخوارزمى ( ٣٨٣ هـ ) قرين البديع الهمزانى ( ٣٩٨ هـ ) .

ولكن مع ازدهار خوارزم ومكانتها من المدنية ورقى المجتمع فقد كانت الطبقة السفلى من الشعب والعامة فى فقر وبؤس ، ومن أمثلة ذلك الامام الزمخشرى نفسه حيث يقول فى شكواه :

ومما شجانى أن غر مناقبى | يغنى بها الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى | وسارت مسير النيران رسائلى
وكم من آمال لى وكم من مصنف | أصاب بها ذهنى محز المفاصل
غنى من الآداب لكننى إذا | نظرت فمافى الكف غير الانامل
فياليتنى أصبحت مستغنيا ولم | أكن فى خوارزم رئيس الأفاضل
وياليتنى مرض صديقى ومسخط | عدوى وأنى فى فهاهة باقل
وماحق مثلى أن يكون مضيقا | وقد عظمت عند الوزير وسائلى
فلاتجعلونى مثل همزة واصل | فيسقطنى حذف ولا راء واصل
فكل امرىء أمثاله عدد الحصا | وهات نظيرى فى جميع المحافل (1)

— ومن قبل نجد ظاهرة الشكوى ذائعة وعامة ، وكتاب « الامتاع والموانسة » لأبى حيان البغدادى ملىء بالشكوى وصور ضنك العيش...

---

(١) ديوان الزمخشرى مخطوطة دار الكتب — وبريد الوزير نظام الملك الطوسى

— ٣ —

وكان النزاع فى هذا العصر بين السنة والشيعة ظاهرة مؤسفة ، وكان بنو بويه من قبل شيعيين وكان الذين خلفوهم من الغزنوية والسلاجقة والخوارزمية سنيين، وكثرت الخلافات حول الاعتزال والمسائل الكلامية والعلوم الحديثة وطوائف الأديان ..

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وترف وفقر ونسك ولهو ، كانت البلاد معرضا للنحل ومجالا لدعايات الجماعات السرية وأصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادىء الدينية وقد قامت جماعات تكافح الشك فى الدين والمجون فى المجتمع وتدعو إلى الحياة الإسلامية بأخلاقها ومبادئها وسلوكها ، وقد استمر الحنابلة وخاصة فى بغداد يحرصون على القيام بذلك حرصا شديدا ...

وكان هناك أيضا نظام الطبقات كما كانت الفوارق بين الطبقات الخاصة والعامة كبيرة وكان الاقطاع والنفوذ والثروة فى أيدى قلة قليلة من الناس مما تبعته المغالاة فى الترف واللهو وتشييد القصور .

وكان النظام المالى للدولة نظاما سيئا للغاية فنفقات البلاط قد بلغت حدا لا يطاق من الاسراف والبذخ ، وكان العسف بالناس لأخذ الضرائب منتشرا ، ومن أثر ذلك انتشرت الرشوة والفساد فى جهاز القضاء وانقسم الجيش إلى شعب مختلفة وأصبحت السلطة مضطرة لانفاق الأموال الطائلة لاسترضاء هؤلاء وهؤلاء ، ولم تكن المناصب الحكومية فى استقرار ، واستقتبم ، من هذا كله فقر الشعب واضطرابه وكثرة شكواه .

— ٤ —

أما الفنون فأنها لاتنمو إلا بتشجيع الخلفاء والأمراء وفى قصورهم وقلما كان يجد الفنانون ثمرة موهبتهم .

وكانوا كثيرا مايفدون على الخلفاء فى بغداد والحكام فى الامارات المستقلة يمدحونهم ويتقربون إليهم ومع ذلك كان جزاؤهم القليل : فالعصر كان عصر الارستقراطيين ، من شاءوا أطعموه على موائدهم ومن شاءوا حرموه من إحسانهم . ولو أحصينا الأدب الذى قيل فى المديح لوجدناه أكثر من الأدب الذى قيل بباعث نفسى .

ولكن العلماء كذلك ، منقسمون إلى قسمين : قسم يتصلون بالخلفاء والأمراء أو يعملون فى مناصب الدولة ، وكان هؤلاء ميسورين نسبيا ولذلك نرى تآليف العلماء فى هذا العصر بأمر وزير أو أمير أو سلطان أو مصدرة باسمائهم كثيرة ، وأما من بعدوا عن القصور فكانوا فقراء غالبا لا يكادون يجدون مايسد رمقهم .

* * *

— ٥ —

وبسبب هذا كله نشأت مظاهر الحياة الاجتماعية المتعددة الترف إلى حد الأفراط والفقر المدقع ومايستتبعه من مظاهره المؤلمة ، فكان من نتائجه إنتشار نزعة التصوف والتوا كل والتسليم إلى إقناع النفس بزوال نعم الدنيا ، وانتشار الشعوذة والسحر والطلسمات ، والالتجاء إلى دعوات الأولياء .

ونجم عن ذلك عدم الطمأنينة واضطراب النفس وبجانب هذا كان

هناك اعتزاز بالعلم والدين ولكنه اعتزاز فى أوساط محدودة خاصة ، وهم يستعيضون عن فقرهم بهذا الاعتزاز الأدبى . . . .

وكثر فى هذه الحقبة من الزمن الرقيق كثرة بالغة وامتلأت القصور بالأماء وكان لذلك أثر كبير فى الحياة الاجتماعية ، فكثر نسل الجوارى ، واختلطت الدماء واتخذ أصحابهن لهن بيوتا معدة للغناء والطرب والمجون ، وكثر أيضا الغلمان فى الأوساط المستهترة .

وأما الحالة الاجتماعية ومظاهرها بالنسبة إلى إيران وخراسان وخوارزم فانها لم تكن بعيدة عن مظاهرها فى سائر البلاد الإسلامية فكان نظام المجتمع يتألف من ثلاث طبقات :

١ — طبقة الأمراء والأشراف والأعيان والنجباء وكانت المناصب تسند إليهم فى الدولة والبلاط ، ويتمتعون بجميع الامتيازات والضياع والعقار .

٢ — الطبقة المتوسطة هم أصحاب الصنائع والمهن والتجارة والملاك ، وكانت حياتهم مستقرة نسبيا ويدفعون الضرائب الباهظة ، بينما كان الأمراء والاشراف معفون من الضرائب .

٣ — طبقة عامة الناس والفلاحين على العموم وهذه الطبقة كانت محرومة من وسائل العيش ولم يمكن لها أن تختلط مع الطبقة الأولى ، وكانوا يساقون إلى الحروب ، وكان نصيبهم من ذلك الغنائم ، وكان لا يدفع إليهم راتب أو مكافأة .

وأما الناحية التجارية فكانت لها اطوار مختلفة فهى تارة نشيطة وأخرى مجمدة وكان الاهتمام بالزراعة أكثر فاتسعت رقعتها ، وأما البناء

فكان الأسلوب المعمارى الإسلامى والإيرانى قد امتزجا، وأحدث امتزاجهما روعة فى البناء والفنون المعمارية .

وكانت للملوك جميع الامتيازات وكان الوزير ينتخب بأمره وكانت هناك دواوين يرأسها الرئيس الأول ، بأمر الملك ، وكان ديوان العرض يهتم بالشئون العسكرية ويختار المجندين ، وكان هناك ديوان المظالم ، وكان الجيش يتألف من الخيالة والمشاة وبعض الأحيان الفيلة ، وكانت القيادة العليا الملك ، ومن الدواوين ديوان الرسائل وديوان الاشراف وهو يشرف على سير الأمور فى الدوائر الحكومية وفى الحقيقة كان من فيه عيون الملك ..

هذه هى أهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى حياة الزمخشرى ، صورناها فى إيجاز شديد ، وستتضح معالمها بدراسة الحياة العقلية والأدبية بجلاء ووضوح . مما سنقف عليه بعد قليل ...

راجع :


( أ ) ظهر الاسلام — أحمد أمين

( ب ) التمدن الاسلامى — جورجى زيدان

( ج ) التاريخ الإسلامى السياسى ـ الدكتور حسن إبراهيم حسن

( د ) تاريخ آداب اللغة العربية — جورجى زيدان

( هـ ) الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى ـ الدكتور خفاجه

( و ) الحضارة الإسلامية ـ ترجمة حمزة طاهر

( ز ) تاريخ الشعوب الإسلامية ـ بروكلمن

( ح ) تاريخ الحضارة الإسلامية ـ تأليف آدم متز ـ ترجمه ـ أبو ريدة

# الفصل الثالث

# الحياة العقلية والأدبية في عصر الزمخشري

عاش الزمخشرى ( ٤٦٧ - ٥٣٨ هـ ) فى العصر العباسى الرابع ، هذا العصر الحافل بالتطورات والأحداث والذى يبدأ بدخول السلاجقة بغداد عام ٤٤٧ هـ — وينتهى باستيلاء المغول عليها عام ٦٥٦ هـ على يد هولاكو التترى .

ويمتاز هذا العصر بأحداث سياسية كبيرة ، وبالحروب الصليبية التى نشبت فيه ، وبكثرة ما بني فيه من المدارس والجامعات ، فى أنحاء العالم الإسلامى ، وقد ظهرت فيه المعاجم التاريخية والموسوعات الأدبية ونمت فيه الحركة العقلية ، وازدهرت الآداب والفنون ازدهارا كبيرا وتلاقت فى الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التى تمثل حضارات الأمم العريقة وآثارها فى العلم والثقافة ، وفى هذا العصر تدرس أهم مظاهر الحياة العقلية ، والنشاط الفكرى فى مختلف أنواع العلوم والفنون والآداب ، الذى تمثل فى عواصم العالم الاسلامى ومدنه . لتستبين لنا معالم الحياة العقلية فى عصر الزمخشرى فى وضوح وجلاء .

وقد ظهر فى هذا العصر فى العلوم والآداب التأثير الأجنبي الثقافى ، وتعددت مراكز الحياة الثقافية والأدبية ، وشملت كل ركن من أركان العالم الإسلامى ، وحفلت هذه المراكز بالعلماء والمفكرين ، والفلاسفة والأدباء ، والشعراء ، وكانت اللغة العربية والثقافة الاسلامية هى المعين الذى يستقى منه الشباب الإسلامى العلم والمعرفة فى كل مكان ولاشك أن لغة العلم والثقافة الرفيعة كانت هى اللغة العربية ، حتى فى إيران حيث

كانت الـكتابة بغير اللغة العربية تعد نقصا كبيرا وكان لابد لأى فارسى يريد أن يكون مثقفا من أن يتعلم اللغة العربية[١].

ولن أقصر البحث على الحركة العقلية فى إقليم خوارزم وحده ، أو اقليم إيران خاصة فان خوارزم وإيران لم تـكونا منفصلتين من الناحية الثقافية عن سائر البلدان الإسلامية ، وخوارزم على بعدها عن قلب العالم الإسلامى كانت حينذاك ماتزال خاضعة للتأثير العقلى الإسلامى ،وماتزال تحتل اللغة العربية بها مكانا مرموقا[٢] ، وكانت هذه البيئة « خوارزم » تتسم بنشاط كبير فى مختلف ميادين العلم والأدب ، وهذه الميزات العلمية والأدبية يصورها لنا عبارة المقدسى ( م ٥٩٧ هـ ) إذ يصف أهل خوارزم بأنهم « أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب ، وقل إمام فى الفقه والأدب والقرآن لقيته إلا وله تلميذ خوارزمى »[٣] .

لقد كان عصر الزمخشرى ثمرة العصور السابقة فى ميدان العلم والأدب إذ نبغ فيه كثير من العلماء ، والأدباء ، والـكتاب ، والشعراء وخصوصا فى منطقة خوارزم التى كانت الثقافة الإسلامية تلقى فيها تشجيعا كبيرا من الخوارزمشاهية ، وقد أفرد الثعالبى ( م ٤٢٩ هـ ) فى كتابه « يتيمة الدهر » الباب الرابع للحديث عن غرر فضلاء خوارزم وترجم ياقوت الحموى ( م ٦٢٦ هـ ) لبعض آخر حتى عصره ، وذكر آخرين السيوطى (م ٩١١ هـ) فى كتابه « بغية الوعاة » .

---

(١) راجع من حديث الشعر والنثر - للدكتور طه حسين ص ١٣

(٢) الادب الفارسى ــ لأدوارد برون ــ ترجمة الدكتور شواربى ص ١٠٨

(٣) أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ــ المقدسى ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

وكان لتنافس الدول والملوك فى دفع الحركة العقلية إلى الأمام أثر فيما وصلت إليه الثقافة فى هذا العصر من إزدهار ورقى . وكان الناس يتسابقون إلى إقتناء كتب الثقافة فى جميع فروعها ومن ثم إزدادت حركة التأليف والتصنيف ، وتغيرت طرائق التدريس ، فكان الطلاب يقرأون فى الكتب والاستاذ يشرح ذلك[١].

وكان تغيير طريقة التعليم سببا فى إيجاد نوع من الحلقات العلمية وهى المدارس ، وقد انتقلت حلقات التدريس من المكاتب والمساجد إليها ،[٢] وفى ايران كانت نيسابور وسواها من المدن الإسلامية مشهورة بكثرة المدارس[٣] فضلا عن العراق والشام ومصر والشمال الافريقى والأندلس .

وقد عرفت المدارس بنظامها الشبيه بنظام مدارسنا اليوم فى القرن الرابع الهجرى ، وكان أول من بنى المدارس هم النيسابوريين الذين بنوا بمدينتهم مدارس عديدة[٤] ومنها المدرسة البيهقية وتنسب للبيهقى ( م ٤٥٤هـ )[٥].

وبنى أيضا الأمير سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوى مدرستين وبنى فى مدينته أيضا مدرسة أخرى باسم ( السعيدية ) ، كما بنى مدرسة

---

(١) تاريخ الحضارة الاسلامية — لادم ميتز ترجمة أبى ريدة ١ ج ٢٩٨ ، ط بيت العرب .

(٢) تاريخ الحضارة الاسلامية ١ /٢٩٨

(٣) تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١ /٢٩٩ خطط المقريزى ١ /٣٦٣

(٤) خطط المقريزى ٣ /٣٦٣.

(٥) المرجع السابق — تاريخ الحضارة الاسلامية ١ /٢٢٩ .

بنيسابور لأبى اسحق الاسفرايينى ( ٤١٨ ﻫ )[١] وانشأ أبو سعيد بن إسماعيل بن على المثنى الاستراباذى مدرسة أخرى [٢] ، وقد بنيت فى هذا العصر المدارس النظامية التى بناها الوزير السلجوقى — نظام الملك الطوسى ( م ٤٨٥ ﻫ ) ومنها :

نظامية بغداد ـ نظامية نيسابور — نظامية أصفهان

نظامية مرو ـ نظامية عسكر مكرم — ( نظامية خوزستان )

نظامية البصرة ـ نظامية الموصل ـ نظامية هراة

نظامية بلخ — نظامية آمد - نظامية طوس[٣]

ولم يقتصر بناء المدارس على الملوك والوزراء بل كان العلماء والشعب يسهمون فى هذا المضمار كأبى بكر البستى ( م ٤٢٩ ﻫ ) فقد أنشأ مدرسة بنيسابور ووقف عليها الكثير من أمواله وعقاره [٤] بجانب هذه المدارس

---

(١) طبقات ابن السبكى ٣/١١١، ٣/٩٠

(٢) طبقات ابن السبكى ٣/١٣٧

(٣) طبقات ابن السبكى ج ٣/ ٤٥٠ ، ٤/٩٦ ، ٤ / ١٠٠، ٣/٧٩ ، ٣ / ٢٠٤ ، ٣/٢٣٥ ، ٤/٢٦٥ ، ٤/٣٢١، محاسن اصفهان ـ ١٠٥ ، ١٠١ ، ١٠٣ ـ مرآة الجنان ٣/١٣٤ ـ مراصد الاطلاع ج ١/٤٩٠ الخريدة لعماد الاصفانى ، ١/٣٢ ـ تجارب السلف لابن مسكويه ، روضة الصفاء ـ رحلة ابن بطوطة ٢١٣ ، ٢١٤ معجم البلدان لياقوت مادة (جزيرة ابن عمر ) ابن خلكان ٣ / ٢٧٩ ـ سير الاعلام للذهبى ١١ / ٥٣٤ ـ مراصد الاطلاع مادة بلخ ـ مادة طبرستان صور الاقاليم .

(٤) تاريخ الحضارة الاسلامية لادم ميتز / ٠٠ .

كانت حلقات التدريس فى المساجد والمنتديات كثيرة حافلة بالعلماء والمتعلمين، وكان عدد الطلاب فى الحلقة يبلغ أحيانا ثلاثمائة وأربعمائة وخمسمائة طالب وهذا مظهر لاقبال الناس على طلب العلم وازدهار الحركة العلمية لا سيما فى مجال الدراسات الاسلامية الأصيلة وكان يجتمع مثلا على الأديب الفقيه أبى الطيب الصعلوكى النيسابورى خمسمائة طالب، كذلك كان يحضر فى اليوم الواحد على الامام الفرد ( م ٤٧٤ ﻫ ) وهو أحد أصحاب الامام الجوينى ثلاثمائة من الأئمة والطلبة .

ولا شك أن اقبال الملوك والأمراء والشعب وتشجيع العلماء واقتناء الكتب وتأسيس المدارس كانت خطوات كبيرة فى سبيل ازدهار هذه النهضة العلمية .

وكان الخوارزميون على الرغم من اشتغالهم بمشكلاتهم الداخلية ، والخارجية ، والأعباء الثقيلة التي كانت ملقاة على كاهلهم ، يعنون عناية كبيرة بتشجيع الحركة العلمية والاقبال على العلماء والأدباء وخاصة الأئمة منهم وكانوا يهتمون بتثقيف الطبقات المختلفة من الشعب [١] - فيؤسسون المدارس فى مدنهم المختلفة ،وكان يقوم فيها بالتدريس كبار الأدباء والفقهاء فى الدولة ، ومنهم مثلا شهاب الدين أبو سعد بن عمران الذى كان من المتضلعين فى اللغة والأدب والطب ، وعهد اليه بالتدريس فى خمس مدارس بمدينة خوارزم ، وقد أسست هذه المدينة دور متعددة للكتب [٢] وبذلك صارت خوارزم أحد مراكز الحضارة فى ايران [٣] .

---

(١) تاريخ الدولة الخوارزمية — حافظ أحمد حمدى ص ٩٠ .

(٢) سيرة جلال الدين منكبرتى — للنسوى ص ٦٨ وما بعده ،تاريخ الدولة الخوارزمية ص ٩٠ لحافظ أحمد حمدى .

(٣) تاريخ الأدب الفارسى لادوارد براون ترجمة شواربى ص ١١٨ .

— ٣ —

وكان عصر الزمخشرى يعد من أحفل العصور العربية الاسلامية بالنشاط الأدبى والعلمى والفلسفى وقد ظهر فيه كثير من أعلام الفكر الاسلامى والثقافة العربية ...

ومن أعلام اللغويين فى عصر الزمخشرى من شتى أنحاء العالم الاسلامى:

١ — أبو زكريا التبريزى م ٥٠٢ هـ

٢ — الجواليقى البغدادى م ٥٣٩ هـ

٣ — ابن الشجرى م ٥٤٢ هـ

٤ — كمال الدين الانبارى م ٥٧٧ هـ

٥ — الراغب الأصفهانى م ٥٠٢ هـ

٦ — الميدانى النيسابورى م ٥١٨ هـ

٧ — ابن القطاع الصقلى م ٥١٥ هـ

٨ — ابن السيد البطليوسى م ٥٢١ هـ

وممن نبغ فى هذا العصر فى العلوم الاسلامية :

— الشهرستانى م ٥٤٨ هـ

وفى علوم التاريخ نبغ :

١ — عماد الدين الأصفهانى م ٥٧٩ هـ

٢ — السمعانى م ٥٦٢ هـ

٣ — ابن عساكر م ٥٧١ هـ

ومن العلماء فى الجغرافيا والرحلات :

١ — الشريف الادريسى م ٥٤٨ هـ

٢ — أبو بكر الزهرى الغرناطى م ٥٣٢ هـ

ومن مؤلفي الموسوعات العامة :

| | |
|---|---|
| — ابن الجوزى | م ٥٧٩ هـ |

ومن الفلاسفة المشهورين فى هذا العصر :

| | |
|---|---|
| ١ — الغزالى | م ٥٠٥ هـ |
| ٢ — ابن باجه | م ٥٣٣ هـ |
| ٣ — ابن طفيل | م ٥٨١ هـ |
| ٤ — الرازى | م ٦٠٦ هـ |
| ٥ — ابن رشد | م ٥٩٥ هـ |
| ٦ — عمر الخيام | م ٥١٨ هـ |

ولا يفوتنا أن نشير أيضا إلى أن اقليم خوارزم كان زاخراً بالعلماء والأدباء واللغويين والمحدثين ويذكر بعضهم الثعالبى فى اليتيمة ويذكر نبـذا من ملاحهم وأشعارهم [1] . وهنا نذكر منهم :

— أحمد بن على الصفار الخوارزمى — أحمد بن محمود أبو الحسين السهيلى الخوارزمى — أحمد بن ابراهيم الاديبى الخوارزمى — القاسم بن الحسينى بن محمد أبو محمد الخوارزمى [2] .

— ومنهم : محمد بن على بن ابراهيم المراشى الـكاتبى أبو عبد الله الخوارزمى وعلى بن أحمد الحـكيمى البديهى [3] .

---

(١) يتيمه الدهر — للثعالبى — ج ٤ ص ١١٤ الى ١١٦ .

(٢) معجم الأدباء ج ٢ ص١٣١ج ٤ ص ٦٧ ، ج ٥ ص٢١ ، ٣٢، ج ١٦ ص٢٣٨

(٣) بغية الوعاة للسيوطى ص ٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٦ .

راجع : ظهر الاسلام — احمد أمين — ج١ ص ٢٥٨ فهو يذكر عددا غير قليل منهم .

وتاريخ بغداد ج ٥ ص ٤٧١ و ج ١٣ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ و ج ١٤ ص ٢١٣ ، ج٩ ص٣١٥ ، ٣١٦ ، ج١٠/٤٥٤ — ٤٥٥ ج ٧١/٥ ، ج٤/٣٧٣ ، ج ٣ص٢٤٧، ج ٢٦٩/١ .

ـ ومنهم : محمد بن عبد الله بن اسحق بن حازم أبو عبد الله الخوارزمى مجاهد بن موسى بن فروخ أبو على الخوارزمى ، يوسف بن جعفر بن على أبو يعقوب الخوارزمى ، صالح ابن مالك أبو عبد الله الخوارزمى ـ طالب بن أحمد بن الخوارزمى ـ عبد العزيز بن الخوارزمى ـ أحمد بن محمد بن نصر المعروف بابن الخوارزمى ، أحمد بن محمد بن على بن غير ، أبو سعيد الخوارزمى الضرير ، أبى بكر الخوارزمى المعروف بالبرقانى ، محمد بن موسى بن محمد بن أبى بكر الخوارزمى محمد بن احمد بن ابراهيم أبو سعيد الخوارزمى .

— ٤ —

واقد لقى الأدب فى هذا العصر ترحيباً وتشجيعاً ورواجا لم يعرفه أى عصر سابق وكان كل حاكم فى امارته يختار فى بطانته جماعة من الأدباء الممتازين ، لينافس بهم حكام الامارات والدول الأخرى ، وبذلك ظهر فى كل مركز من مراكز هذه الامارات حركة علمية (١) وكان الملوك يقلدون من يبرز من العلماء والأدباء مقاليد الحكم ومناصب كبيرة فى الدولة ويكفينا أن نذكر تعظيم الخوارزمية لأسرة علمية كبيرة كالجوينى (٢) .

يقول السمرقندى العروضى :

كان لأبى العباس مأمون خوارزمشاه وزير اسمه أبو الحسين أحمد بن محمد السهيلى ، وكان حليم الطبع فاضلا ، وكذلك كان خوارزمشاه حليم الطبع صديقا لأهل الفضل ، وبفضلهما اجتمع كثير من الحكماء وأهل الفضل فى هذه الحضرة مثل أبى على بن سينا وأبى سهل السهيل وأبى

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ـ دكتور شوقى ص ١٣٥ .

(٢) مقدمة تاريخ جهانكشاى ـ للجوينى ـ كتبه العلامة القزوينى .

الخير الخمار وأبى الريحان البيرونى وأبى نصر العراق ، وكان يلى بطليموس فى علم الرياضة وأنواعه ، وكان أبو الريحان فى مكان أبى معشر وأحمد بن عبد الجليل فى النجوم ، وكان أبو على وأبو سهل نِدَّين لارسطاطاليس فى علم الحكمة الذى يشمل كل العلوم ، وكانت هذه الطائفة من العلماء فى القصر غنية عن كل أمور الدنيا ، وظلوا كذلك حتى أتى كتاب من السلطان محمود يقول فيه :

« إنى سمعت أن فى مجلس خوارزمشاه جماعة من أهل الفضل ليس لهم نظير مثل فلان وفلان فعليك أن ترسلهم إلى مجلسنا ليشرف بهم ولكى نفيد من علومهم وكفايتهم ولتكون هذه منة للخوارزمشاهية علينا » (١) :

وإلى جانب هذا التعظيم نرى أن محمدا الخوارزمشاه ( م ٤٩٠ — ٥٢١ هـ ) يدعو الحكيم اسماعيل بن حسن الجورجانى إلى بلاطه ليؤلف له « ذخيرة خوارزمشاه » فى الطب ، فمكث عنده ووافته منيته هناك فى عام ( ٥٣١ هـ ) وكذلك شاعر البلاط الخوارزمى ذو اللسانين رشيد الدين الوطواط صاحب اتسز الخوارزمشاه — وألف له كتابه « حدائق السحر فى دقائق الشعر » — وهو من أقدم الكتب الفارسية فى صناعة الشعر ، ويؤلف البيرونى أيضا « الآثار الباقية » ، « تاريخ خوارزم » ويؤلف الحكيم القاينى كتابا فى الفلسفة الالهية للملك خوارزمشاه ·

وسوى هؤلاء كثيرون من العلماء والفلاسفة والأدباء الذين أبدعوا

---

(١) جهار مقاله عروضى — السمرقندى ص ٨١ .

فى مؤلفاتهم فى ظلال ملوك وهبوا للعلم والعلماء كل نفيس [1] .

* * *

— ٥ —

وقد ازدهر الأدب والشعر ازدهارا كبيرا فى هـذا العصر نتيجـة لازدهار الحركة العقلية ، ولظهور آثار الثقافات المترجمة ، وكما قلنا: ظلت اللغة العربية فى كثير من أنحاء العالم الاسلامى هى لغـة العلم والأدب ، وقد ذاع أدب المقامات فى هذا العصر ، ونبغ كذلك فن الشعر الفلسفى والصوفى، وذاعت طريقة ابن العميد التى انقلبت على أيدى كتاب المقامات وخاصة البديع والحريري ومن اليهما إلى صناعة لفظية شديدة التأنق وإن كان الذوق الأدبى يتحكم فيها .

وفى هذا العصر ذاع كذلك شعر الموشحات واستحكم النقد وقوى واستقل عن علوم الأدب والبلاغة ، وفى هـذا العصر كذلك وضع عبد القاهر الجرجانى أصول البلاغة العربية التى سار عليها العلماء بعده فى كل العصور .

وقد ظهر فى هذا العصر كثير من الأدباء والـكتاب والشعراء الذين ما زلنا نقرأ لهم ونتتلمذ على آثارهم ، ومن أشهرهم :

١ — الطغرائى م ٥١٤ هـ

٢ — ابن الهبارية البغدادى م ٥٠٩ هـ

٣ — أبو اسحق الغزى م ٥٢٤ هـ

٤ — ابن الخياط الدمشقى م ٥١٧ هـ

---

(١) تاريخ الأدب الفارسى — ادوارد براون — ٤١٧ ، مقدمة القزوينى لتاريخ جهانكشاى ج ٢ ص ٦ .

٥ ــ ناصح الدين الارجانى م ٥٤٤ هـ

٦ — الابيوردى م ٥٧٧ هـ

٧ ــ ابن خفاجة م ٥٣٣ هـ

٨ — ابن عديس م٥٢٧ هـ

ومن الأدباء والـكتاب :

١ — القاضى الفاضل م ٥٩٦ هـ

٢ — الحريرى م٥١٦ هـ

وقد جاء فى الجزء الرابع فى كتاب يتيمة الدهر للثعالبى ( م ٤٢٩ هـ ) ذكر نبذ من أدب الشعراء والأدباء ولغويى خوارزم وأشهر الذين كانوا قد نبغوا فيها فى القرن الرابع الهجرى (١) .

— ٦ —

وكان القرآن هو محور الحركة الفـكرية والعقلية خلال القرون الستة الأولى من تاريخ الحضارة الاسلامية ، كان قلب هذه الحركة البصرة والـكوفة وكانت بغداد عاصمة الخلافة ، هى عقل هذه الحركة الموجهة . ومن هذه العواصم تألقت أشعة النهضة العلمية وامتد سناها إلى كل أفق فى أرجاء الدول الاسلامية شرقها وغربها ، جنوبيها وشماليها ولقد كانت لغة الأمة الفاتحة ولغة ثقافات الدين الاسلامى هى اللغة العربية واضطرت اللغات التابعة أن تنطوى على نفسها وأن ينضوى بعضها الآخر تحت لواء اللغة العربية الظافرة ، فظلت العربية لمجموعة علومها وفنونها هى محور الطابع الفكرى والعقلى لهذا العصر ونالت الـكثير من عناية المتعلمين فرقت عباراتها وأساليبها وتعددت مفرداتها ومشتقاتها وألف العلماء المطولات فى كل من

(١) راجع ظهر الاسلام ــ أحمد أمين ج ١ ص ٢٥٨ .

فنونها المختلفة المتشعبة الأطراف ، من البلاغة والصرف والنحو ، والتفسير والحديث والفلسفة ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والموسوعات وما إلى ذلك .

هذه صورة عامة للحياة العقلية والأدبية فى عصر الزمخشرى وهى صورة تضىء لنا الطريق فى دراسة الزمخشرى وتراثه وتلقى ضوءا كبيرا على اللغة العربية وحالتها فى هذا العصر وخاصة فى الأقاليم النائية .

ولا شك أن الغموض الذى أحاط بذلك العصر القديم الذى عاش فيه الامام الزمخشرى قد أنجب الكثيرين من العلماء بما بسطناه فى هذا الفصل من مظاهر النشاط العقلى والأدبى المختلف الألوان والسمات ... (١) .

---

(١) الدولة الخوارزمية والمغول — حافظ أحمد حمدى ص ٨٦ ط ١٩٤٩ .

# الفصل الرابع

## اللغة العربية
## في عصر الزمخشري

امتدت رقعة العالم الإسلامى منذ القرن الأول الهجرى وشملت أجزاء كثيرة كانت لها لغات قومية قديمة : كايران ، وخوارزم ، ومصر والشام ، والأندلس ، مثلا .

وبسيادة الإسلام فى هذه الأرجاء ذاعت اللغة العربية فيها ، وأصبحت هى لغة الحكم والسياسة ، وكذلك لغة العلم والثقافة واحتلت المنزلة الأولى فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وأخذت اللغات القومية فى الأقاليم تتضاءل وتختفى ، وسارت اللغة العربية صاحبة النفوذ والسلطان .

ولما انقسمت الخلافة العباسية إلى دويلات واستقلال ملوك هذه الدويلات ببلادهم عن خلافة بغداد ، وضعف نفوذ العباسيين ، وقامت دويلات فى إيران ، وخوارزم ، وافغانستان ، وحدود الهند ، تنتمى بعضها إلى أصول فارسية ، كالصفارية ، والبويهية ، والسامانية ، ومن قبلهم الطاهرية « نسبة إلى طاهر بن الحسين قائد المأمون » . وظهرت أسر فارسية كثيرة احتل بعضها مناصب خطيرة فى الخلافة العباسية : وأخذت اللغة الفارسية بتأثير ذلك كله فى الظهور ،وشجع الصفاريون والسامانيون العلماء والأدباء على الكتابة باللغة الفارسية وإحياء تراثها . وسادت اللغة الفارسية فى شرق بلاد ما بين النهرين ، وأخذت اللغة العربية تفقد مكان الصدارة فى هذه البلاد قليلا قليلا ، وكان ذلك فى القرنين الثالث والرابع.

وإذا كان المتنبى وهو فى القرن الرابع الهجرى قال حين مروره ببلاد فارس قاصدا عضد الدولة :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى بمنزلة الربيـــع من الزمان

إلى أن يقول :

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

فما بالنا بمصير اللغة العربية فى خراسان وخوارزم مثلا .

يحدثنا مؤلف تاريخ سيستان عن إحياء اللغة الفارسية فى عهد السلطان يعقوب بن ليث الصفارى فيقول : إنه عندما تولى العرش جاءته شعراء العرب ونظموا له أشعارا باللغة العربية ولكنه رد عليهم قائلا إنى لاأفهم هذا اللسان ، ولا أريد أن أسمع مالا أفهمه .... فمن هذا الكلام نستنتج بأن إحياء اللغة الفارسية أخذ يظهر فى عهد الدولة الصفارية ( ٢٥٤ — ٢٦٥ هـ ) وبعدهم جاء السامانيون ( ٢٦١ — ٣٨٩ ) ، فأخذت اللغة الفارسية مكانتها فى البلاط وأكب العلماء والأدباء على ترجمة الكتب العربية إلى الفارسية، وترجم تفسير الطبرى وترجم أيضا تاريخ الطبرى بأمر من الملك أبى صالح منصور بن نوح السامانى (٣٤٣ — ٣٦٦ هـ ) وكانت اللغة الفارسية السائدة فى تلك العصور هى اللغة الفارسية الدرية لأن المؤرخين حينما يؤرخون اللغات واللهجات الفارسية يقسمونها إلى ثلاثة أطوار وعهود :

١ — عهد اللهجات الإيرانية القديمة .

٢ — عهد اللهجات الإيرانية الوسطى .

٣ — عهد اللهجات الإيرانية الحديثة .

( أ ) عرفت اللهجات القديمة بواسطة الكتابات الحجرية والمتون الافستائية والأسماء المادية والسكانية ، وفى كثير من الوجود تتقارب اللهجات الفارسية القديمة الشرقية والغربية تقاربا تاما ، والظاهر أن

الفارسية القديمة كانت اللهجة الشعبية وحفظت بالخط المسمارى فى كتابات الأباطرة الهخامنشيين .

( ب ) ويطلق اسم اللهجات الإيرانية الوسطى على عدد من اللهجات التى كانت جسرا بين اللغات الإيرانية الحديثة والقديمة ومن أهمها اللهجات التى يوجد منها أدب مكتوب ، وهى : البهلوية ، الفارسية الوسطى ( البهلوية الساسانية ) السغدية ، الخوارزمية السكائية.

فاللهجة الخوارزمية التي كانت شائعة حتى حوالى القرن الثامن الهجرى كانت آثارها القديمة بالخط الأرامى والآثار الحديثة منها بالخط العربى . وكانت اللغة الخوارزمية هى لغة التخاطب لأقاليم خوارزم حتى القرن الثامن الهجرى ، ثم تخلت عن مكانها للغة الفارسية والتركية ، وأن معلوماتنا عن اللغة الخوارزمية حديثة لاتعود إلى أكثر من سنة ١٩٢٧م ، والآثار التى عثر عليها لم تكتمل بعد ، ولاتعطينا شيئا من المعلومات التفصيلية .

ج ـ أما اللهجات الإيرانية الحديثة فهى اللهجات المتداولة فى القرن الأخير ، ويمكن أن نؤرخ بدايتها منذ شيوع الخط العربى ( فى بلاد فارس ) ولأن هذا الخط لا يستطيع تصوير كثير من الحركات والأصوات فى اللهجات المذكورة ، فقد حدثت تغييرات فى تحريرها بل وفى تلفظها ، وبالاضافة إلى ذلك دخل هذه اللهجات بالتدريج كثير من الكلمات العربية وأخيرا قواعد صرفية ونحوية.

وأما اللهجة الأدبية التى راجت فى إيران فى العهد الإسلامى فى أواسط القرن الثالث الهجرى عما بعده التى تعرف « بالدرية » فقد كانت لهجة أدبية عامة وذائعة فى أواخر العهد السامانى والقرون التى تلته . وهذه

اللغة الكتابية ولدت دائما شعراء خلال القرنين الثالث والرابع فى مناطق مختلفة مثل سيستان ومدن خراسان وماوراء النهر وجرجان والرى ، وهذه اللغة استعملت أول مرة فى العهد الإسلامى فى قصور الملوك ومدن شرق إيران .

كان عهد السلاطين السامانيين الذين زالت دولتهم سنة ٣٨٣ هـ ( ٩٩٨م ) على يد الغزنويين وآل افراسياب أكثر العهود عملا على نشر اللغة الفارسية الدرية — فقد سعى هؤلاء لاحلال اللغة الفارسية مكان اللغة العربية ووفقوا فى هذا السبيل توفيقا كاملا حتى ظهر فى عهدهم فى بلاد ماوراء النهر وخراسان كثير من الشعراء والكتاب : كما ظهر فى عهود من خلفوهم من الغزنويين رجال ربوا ونشئوا فى الدولة السامانية أمثال الفردوسى ، والفوخى ،والعنصرى ، وامتدت اللغةالفارسية وآدابها إلى خارج حدود إيران كالهند ولاهور وافغانستانوآسيا الصغرى[1].

على أنه حدث للغة العربية رواج وذيوع فى هذه المناطق فى القرنين الخامس والسادس عقب ظهور السلاجقة فى إيران ، فقد اهتموا باللغة العربية وآزروها فى معركتها ، لأنها لغة الدين والقرآن ، وحتى ينشروا نفوذهم السياسى ويضمنوا لدولتهم البقاء ، ولم يمض قرن من ظهور — السلاجقة حتى اختفى الكتاب الفارسيون من الدواوين وحل محلهم كتاب عرب أو مستعربون .

---

(١) راجع ـ تاريخ سبكر شناسى ج١ ص ١٩ ، ١٥٢ ملك الشعراء بهار ، تطور الشعر الفارسى وتاريخ الادبفى ايران ـ دكتر صفا ، تطور اللغات واللهجات الايرانيةـ الدكتور احسان يارشاطر ، مجلة الدراسات الادبية العدد الثانى السنة الثانية ـــ والعدد الأول السنة الثالثة .

وقد أخذ العلماء فى ترجمة بعض الكتب الفارسية إلى العربية ومن أمثال هؤلاء: السيد اسماعيل الجرجانى (م ٥٣١ هـ) فقد ألف كتابه « ذخيرة خوارزمشاه » بأمر قطب الدين محمد خوارزمشاه . المؤسس الأول للدولة الخوارزمشاهية باللغة الفارسية، ثم ترجمة إلى اللغة العربية وقال فى مقدمة هذه الترجمة: « بما أن كتابى الذخيرة كان باللغةالفارسية، وان تكن الاستفادة منه عامة، فبناء على طلب أهل العلم ترجمته فىعشرة مجلدات إلى اللغة العربية[1] .

على أن ذلك لم يمنع كثيرا من العلماء من تأليف كتبهم باللغة الفارسية والعربية معا أو الفارسية وحدها فى هذين القرنين. وهذهالفارسية لاشك كانت متأثرة باللغة العربية .

ومن أمثال هؤلاء الذين ألفوا باللغتين الفارسية والعربية :

١ — أبو الحسن على بن البيهقى المعروف بابن فندق(٤٩٣-٥٦٥هـ) فقد ألف كتابا باللغتين الفارسية والعربية أمثال « التاريخ » البيهقى وجوامع الأحكام وغيرها بالفارسية، وألف « معارج نهج البلاغة» و « لباب الألباب » و « وتتمة صوان الحكمة » باللغة العربية[2].

٢ — شرف الدين أبو الفضل حبيش بن إبراهيم( ٥٦٩ - ٥٨٨هـ) وقد ألف : « كامل التعبير » ، « بيان الطب» وملحمة دانيال بالفارسية، وبيان الصناعات وصحة الابدان، كفاية الطب، تلخيص علل القرآن، بيان التعريف، وباللغة العربية، وترجم « قانون الأدب »من العربية إلى الفارسية .

---

(١) سبكر شناسى — ملك الشعراء بهاء ص ٣٦٤ الجزء الثانى ط طهران .

(٢) سبكر شناسى ص ٣٦٥ الجزء الثانى .

٣ — الامام الفخر الرازى ( ٥٤٤ — ٦٠٦ هـ ) ألف باللغة العربية تفسيره القيم ، وألف باللغة الفارسية « حقائق الأنوار فى حقائق الأسرار » ذكر فيه مبادىء العلوم وذلك بأمر السلطان خوارزمشاه ( ٤٦٨ — ٥٩٦ هـ ) .

٤ — رشيد الدين محمد بن محمد بن عبد الجليل عمر ابن كاتب المعروف بالوطواط كاتب الخوارزمشاه اتسز ، وكان يلقب بذى اللسانين وقد ألف له بالفارسية كتاب « حدائق السحر فى دقائق الشعر » ونثر اللآلى من كلام أمير المؤمنين علي . وله رسائل كثيرة باللغة العربية . وقد استمر فى خدمة الخوارزميين حتى مام ٥٦٨ هـ .

عام ٥٦٨ هـ(١) .

ومن الذين كتبوا وألفوا باللغة الفارسية وحدها :

١ — أبو الحسن نظام الدين عمر بن على السمرقندى المعروف بالنظامى العروضى ، فقد ألف كتابه « مجمع الفوادر » فى سنة ٥٥١ — ٥٥٢ .

٢ — القاضى حميد الدين عمر بن محمود المحمودى البلخى (م٥٥٩هـ) كان قاضى القضاة فى بلخ ألف « المقامات الحيدية » قلد فيها البديع والحريرى ، ويعتبر من أوائل الذين أوجدوا النثر الفنى الفارسى .

٣ — بهاء الدين محمد ( م ٥٨٨ هـ ) وكان كاتبا لعلاء الدين تكش الخوارزمشاه ( ٦٦٧ — ٥٩٦ هـ ) وقد ألف « التوسل إلى الترسل » بالفارسية .

---

(١) راجع مقال المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام عن الصلات بين العرب والفرس وآدابهما فى الجاهلية والاسلام فى عدد أكتوبر عام ١٩٣٨ من مجلة المقتطف ص ١٥٩ .

٤ — أبو الشرف ناصح بن ظفر بن سعد المنشى الجرفادقانى المتوفى فى حدود ( ٥٩٠ ﻫ ) وقد ترجم تاريخ العتبى من اللغة العربية إلى اللغة الفارسية .

٥ — الامام جمال الدين أبو الفتوح الحسين بن على بن محمد بن أحمد الرازى من أعظم علماء التفسير والحديث وعلم الكلام وكتاب اللغة الفارسية ، ألف باللغة الفارسية ( روض الجنان وروح الجنان ) فى التفسير[1] ، وكان تأليفه قبل سنة ٥١٠ ﻫ .

ومع ذلك فقد كانت اللغة العربية ذائعة فى القرن الخامس والسادس عند العلماء والفضلاء ، أما عامة الناس فى خراسان مثلا وما حولها فقد كانوا يعزفون عن اللغة العربية ، ويقول أبو المعالى نصر الله ( م ٥٣٩ ﻫ ) فى ترجمته لكتاب « كليلة ودمنه » من العربية إلى الفارسية : أن الذين ترجموا هذا الكتاب بعد ابن المقفع كانوا يحاولون إظهار الناحية القصصية فى هذا الكتاب مغفلين ما اشتمل عليه من حكم ، ونصائح ، وبما أن الناس انصرفوا عن مطالعة اللغة العربية ، فقد أصبحت تلك الحكم والنصائح مهجورة ، فلذلك قمت بترجمته إلى الفارسية وتطعيمه بالآيات والأحاديث والأخبار والأمثال .

— ٢ —

لقد بقيت اللغة العربية فى عصر الزمخشرى لغة الدين والثقافة فى هذه المناطق النائية عن قلب العروبة ويظهر أنه فى القرن السادس كان الغلبة للغة العربية بحيث أنها زاحمت الفارسيه ، وغلبتها ذيوعا وشهرة ، حتى يئس

(١) راجع سبكر شناسى — ملك الشعراء بهار — ج ٢ : ص : ٢٩٨ ، ومابعده
تاريخ أداب ايران — ادوارد براون ج ١ : ص ٥٠٢ ومابعده

الكتاب الفارسيون من أحياء لغتهم ، فأخذوا فى نشر اللغة العربية ، وإذا كانوا أحيانا يكتبون باللغة الفارسية ، فقد كان الأسلوب والكلمات والاستدلال بالآيات والأحاديث والأشعار كلها عربية ، حتى أن الكاتب الذى لم يكن يطعم كتابته الفارسية باللغة العربية كان يعد تافها .

ويقول النظامى العروضى « م ٥٥١هـ » فى كتابه « جهار مقاله » فى شرائط الكاتب: « أنه يجب أن يكون له نصيب أوفر من الأدب والمنطق ولطائف الحكم وأن يكون معتادا على قراءة كلام الله والأحاديث النبوية وآثار الصحابة وأمثال العرب ، وكلمات العجم ، ومطالعة كتب السلف ، كأمثال الصاحب والصابى ، وقابوس ، وكلمات قدامة بن جعفر ومقامات البديع والحريرى والحميدى فهو يجعل الثقافة العربية ثقافة أصيلة فى تكوين الكاتب وفى شخصيته[1] ، ويقول صاحب كتاب تطور النثر الفارسى[2] معلقا على ذلك ، أنه لاشك أن هذه الطريقة قد انقصت من تتبع اللغة الفارسية ودرس قواعدها وفهم دقائقها ، وأن الأدباء الفرس أخذوا يهتمون بحفظ اللغة العربية وقواعدها ، وكان همهم أن يتعلموا النحو والصرف ، ونسوا اللغة الأم ( الفارسية ) .

وإذا كانت اللغات القومية التى أحياها الحكام الفارسيون والأتراك استخدمت فى الآداب والسياسية والفنون ، فان اللغة العربية ظلت لغة الدين ولغة العلم معا ، ذلك لأن اصول الثقافة الاسلامية كانت مدونة باللغة العربية ، ولم يدون شىء منها باللغة الفارسية أو التركية أو الخوارزمية ،

---

(١) جهار مقاله ص ١٣ ط ليدن .

(٢) تاريخ سبكر شناسى ص٣٦٢ الجزء الثانى .

مثلا ، وبعد إحياء هذه اللغات القومية ، لم يكن الزمن يسمح بأن تنقلب هذه اللغات القديمة إلى لغة ثقافة وعلم إذ لا بد من انقضاء زمن طويل عليها فى هذا المجال وذلك مالم يكن بالنسبة إلى هذه اللغات .

لذلك بقيت اللغة العربية تستخدم فى حلقات التعليم ومنتديات الثقافة كما ظلت هى لغة التأليف كذلك ، وأقبل عليها العلماء ، يؤيدونها فى معركة البقاء أو الموت فى هذه الأقاليم النائية ومع ذلك فقد ظهر فى القرن الخامس والسادس الهجرى معاجم عربية فارسية فى خراسان مثل كتاب البلغة وكتاب المصادر للزوزنى ... وخراسان وخوارزم بعيدان عن المناطق العربية وقلما كان يحتك أهلها بالعرب ، ومن ثم كان أهلها فى حاجة إلى مثل هذه المعاجم وقد نبغ علماء لغويون فى خراسان ومن أشهرهم — الميدانى ( م ٥٠٨ هـ ) — وأبو جعفر البيهقى ( ٥٤٤ هـ ) والوطواط ( م ٥٧٣ هـ ) ومن أشهر العلماء الخوارزمية فى القرن السادس ناصر المطرزى الخوارزمى ( م ٦١٠هـ ) والزوزنى كتاب « السامى للأسامى » وللوطواط « حدوثنا » وللميدانى « الهادى للشادى » — وللمطرزى « شرح مقامات الحريرى » وللزمخشرى أيضا « مقدمة الأدب » .

وظهور المعاجم باللغتين يدل على ظهور اللغة الفارسية ، وفى الوقت نفسه يدل على حاجه الناس إلى فهم اللغة العربية . وإذا كانت اللغة العربية قد فقدت سلطانها المطلق التى كانت تتمتع به اذ شاركتها اللغات القومية فأنها على الرغم من ذلك كله كانت تمضى فى الغلبة قدما على الفارسية لأنها كانت ماتزال هى لغة الدين والعلم ، وأغلب الذين يذكرون فى عداد العلماء والأدباء والشعراء فى خوارزم وإيران كانوا يلقبون بذى اللسانين وكتاب اليتيمة للثعالبى مشحون بذكر هؤلاء ... فخوارزم مثلا

كانت مهد العلم ومهبط الحضارة ولعبت دورا مهما فى انهاض الثقافة الإسلامية ، واللغة السائدة فيها كانت اللغة العربية : ويقول الزمخشرى فى مقدمة كتابه ( المفصل ) : « ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون أن يخفضوا مارفع الله من منارها ، حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه فى عجم خلقه ولكن فى عربه ، لايبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الابلج ، وزيغا عن سواء المنهج ، والذى يقضى منه العجب حال هؤلاء فى قلة انصافهم وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك أنهم لايجدون علما من العلوم الاسلامية فقهها وكلامها وعلمى تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى اللغة العربية بين لايدفع ومكشوف لايتقنع » ثم يقول : وبهذا اللسان مناقلتهم فى العلم ومحاورتهم وتدريسهم ومناظرتهم وبه تقطر فى القراطيس أقلامهم وبه تسطر الصكوك والسجلات حكامهم ، ثم أنهم فى تضاعيف ذلك يجحدون فضلها ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها وينهون عن تعلمها وتعليمها[1] » ، ثم يقول : ويدعون الاستغناء عنها وأنهم ليسوا فى شق منها ، فان صح ذلك فما بالهم لايطلقون اللغة رأسا والاعراب ولا يقطعون بينها وبينهم الأسباب فيطمسوا من تفسير القرآن آثارها وينفضوا من أصول الفقه غبارها ، ومالهم لم يتراطنوا فى مجالس التدريس وحلق المناظرة ثم نظروا هل تركوا العلم جمالا وهل أصبحت الخاصة بالعامة مشبهة وهل انقلبوا هزأة للساخرين وضحكة للناظرين ...... الخ[2].

---

(١) المفصل للزمخشرى — المقدمة

(٢) المفصل للزمخشرى — المقدمة

ونلاحظ أن العصر السلجوقى كان عصر سيادة العلم للمدن الفارسية مثل مرو ، وبلـــخ ، ونيسابور . . . وبضعف السلجوقيين قويت الدولة الخوارزمية ، وانتقلت عواصم الثقافة العربية الإسلامية من مدن إيران إلى « جرجانية » خوارزم وراج فيها سوق العلم ونبغ فيها الكثير من العلماء والأدباء والشعراء ....

وفى جرجانية خوارزم ولد ونشأ ومات الامام الزمخشرى وقد استمد من علمائها أصول اللغة العربية .

— ٣ —

وقد ظل للغة العربية فى الشام ومصر والحجاز ، والعراق ، والبيئات القريبة من جزيرة العرب السيادة فى هذه الأقاليم ، واحتفى بها العلمـــاء والأدباء والشعراء،والمفكرون، وألفوا فيها نفائس الكتب وأثمن مصادر الدراسات الإسلامية والعربية .

وقد ظهر فى عصر الزمخشرى كثير من كتب اللغة والأدب والمعاجم ومن أشهر العلماء آنذاك التبريزى (م ٤٢١ — ٥٠٢ هـ) والجواليقى ، والحريرى وأبى الشجرى . وكال الدين الانبارى (م ٤٤٩—٥٧٧ هـ) ، ومن معاصريه كذلك تاج الدين محمود بن أبى المعالى بن الحسن الخرازى[1] اللغوى المتوفى نحو ٥٨١ هـ وكان بارعا فى اللغة والأدب ، وله : « النثر الفائق » و « الشعر الرائق » وكان واحد بنيسابرر علما وفضلا وأدبا وله

---

(١) نسبة إلى خرار بضم الخاء مدينة بين الرى وسمنان ، ٢ ج : ٤٠٤ أسماء المؤلفين

مؤلفات منها « المحيط بلغات القرآن » و « ضالة الأديب بين الصحاح والتهذيب » و « ينابيع اللغة .. وسواها[1] » .

وبعد ، فهذه صورة مفصلة للغة العربية فى عصر الزمخشرى ، تمهيدا إلى البيئة اللغوية والأدبية التى عاش فى خلالها هذا الامام الكبير الخالد .

(١) ١:١٥:٤،٢ : ١٠٨،٢٧١ ، ٧ : ١٠١ ، ١٥٢ معجم الادباء لياقوت طبعة مرجليوت ، ٣٩ بغية الوعاة للسيوطى .

# الباب الثاني

# الفصل الأول

## حياة الزمخشرى

## البيئة التى نشأ فيها وعاش الزمخشرى

— ١ —

ولقد نشأ وعاش الامام الزمخشرى فى خوارزم ، وخوارزم هى — كما يرى كثير من الباحثين [١] — كانت منذ قديم ذات أهمية فى تقدم الحضارة فى آسيا الوسطى ، وقد جعل « البيرونى » تاريخ قيام أقدم مدنية فى خوارزم عام ١٢٩٢ ق. م. ويشير البيرونى إلى أن قتيبة بن مسلم فى فتحه لهذه الأقاليم قد قضى على مظاهر الحضارة القديمة الثقافية لخوارزم ، فأباد كتابها وقتل هرابزتها « الكهان » وأحرق الكتب والمؤلفات الخوارزمية، ويذكر كذلك البيرونى أن خوارزم حتى القرن الثامن الميلادى ، قد ازدهرت فيها الثقافة الايرانيـة ، ويقول أن : « أهل خوارزم . . كانوا غصنا من دوحة الفرس » [٢] .

ويشير الجغرافيون والرحالة العرب ، إلى خصب اقليم خوارزم، فيقول المقدسى : « هى كورة جليلة واسعة كثيرة المدن ممتدة العمارة ، لا تنقطع منها البساتين والمنازل ، كثيرة المعاصر والمزارع والشجر والخيرات، مفيدة لأهل التجارات » [٣] .

ويقول فى معجم البلدان [٤] « كنت قد زرت خوارزم عام ٦١٦ هـ فما رأيت ولاية قط أعمر منها ، فانها ، على ما هى عليه من رداءة أرضها وكونها سبخة كثيرة النزور ـ متصلة العمارة متقاربة القرى كثيرة القصور

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية . مادة خوارزم .

(٢) الآثار الباقية ، للبيرونى ص ٣٦ الى ٤٨ ط أوربا .

(٣) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم — للمقدسى ص ٢٨٤ ط أوربا .

(٤) معجم البلدان ـ لياقوت ـ ج ٤٧/٣ ط السعادة القاهرة .

فى صحاريها ، قلما يقع نظرك فى رساتيقها على موضع لا عمارة فيه ، هذا مع كثرة الشجر بها والغالب عليه شجر التوت والخلاف [١] لاحتياجهم اليه لعمائرهم وطعم دود الابريسم ولا فرق بين المار فى رساتيقها كلها والمار فى أسواقها ، وما ظننت أن فى الدنيا بقعة سعتها سعة خوارزم ، مع أنهم قد مرنوا على ضيق العيش والقناعة ، بالشىء اليسير ، وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين وفى النادر أن تكون قرية لا سوق فيها ، مع أمن شامل وطمأنينة تامة ، الشتاء عندهم شديد جداً بحيث أنى رأيت جيحون نهرهم وعرضه ميل وهو جامد والقوافل والعجل الموقرة ذاهبة وآيبة عليه ، ومن أهل خوارزم أغنياء مترفون . . ويصفهم ياقوت أيضا بالاقتصاد وبعدهم عن النظافة ، ويصف أجسامهم بالطول والضخامة ، وعرض الرأس وسعة الجبهة .

ويذكر أن بلاد خوارزم واسعة وأهلها علماء وفقهاء ، أذكياء والذين ينسبون اليها من الأعلام لا يحصون ، وأهلها سنيون [٢] .

وينقل الزمخشرى فى كتابه « ربيع الابرار » [٣] عن أبى سممة الكاتب عن خوارزم أنها ثغر من ثغور الاسلام الذى ينشأ عليه أبناؤها وأنه يكتنفها أهل الشرك والوثنية من جميع حدودها وتطيف بها قبائل الترك . ومن ثم تكثر الحروب والخصومات بين الترك وبين شعب خوارزم وكثيراً ما يكون للخوارزميين النصر فى عامة الأوقات .

ويصف ابن بطوطة أهل خوارزم ، بأنهم أهل دين وتقوى ويذكر

---

(١) هو شجر الصفصاف .

(٢) معجم البلدان لياقوت — ج ٣ : ٤٧٥ ط السعادة القاهرة .

(٣) ربيع الابرار — للزمخشرى — الباب التاسع — مخطوط دار الكتب .

أن لهم عادة جميلة فى الصلاة ، ليست لغيرهم وهى أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم ، على دور جيران مسجده [١] .

ويذكر المقدسى أنهم أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب [٢] ويشير الزمخشرى فى كتابه « ربيع الابرار » إلى أن مذهب المعتزلة كان ذائعا فى خوارزم ، ويعده رأس فضائلها [٣] ، ويشير المقدسى فى أحسن التقاسيم [٤] إلى أن أهل خوارزم فى الفقه يلازمون مذهب الامام أبى حنيفة ...

— ٢ —

وسكان اقليم خوارزم ، كانوا فى الأغلب مزيجا من العرب والفرس والترك ، ولكثرة حروبهم شيدوا القلاع والثكنات العسكرية ، داخل المدن وكان كثير من سلاطين خوارزم يعرفون مع الخوارزمية التركية ، وبعضهم كان يعرف العربية والفارسية [٥] .

وكانت صلة السلاطين بخلافة بغداد ، صلة مودة وطاعة احتراما لعنصر الدين ورغبة فى تحقيق أطماعهم السياسية ، وقد ساءت هذه العلاقات فى عهد السلطان علاء الدين خوارزمشاه ( م ٥٨٦ ـ ٥٩٦ هـ ) الذى اعتنق المذهب الشيعى وعمل على ازالة الخلافة العباسية من بغداد ، وإحلال الخلافة العلوية مكانها ، ومن ثم جمع رجال الدين فى بلده فى جمع عام وانتزع منهم إقراراً بشرعية عزل الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، لأنه ليس أهلا

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٣ : ص ٤٥ .
(٢) أحسن التقاسيم ـ المقدسى ـ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ ط أوربا .
(٣) ربيع الابرار للزمخشرى ... الباب التاسع ... مخطوط دار الكتب .
(٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم المقدسى ... ٣٢٢ ط أوربا .
(٥) سير جلال الدين المنكبرتى ـ للنسوى ـ ص ٥٠ ط القاهرة .

للخلافة ، وقد أوعز علاء الدين إلى الفدائيين الاسماعيليين الخوارزميين بقتله وقطع اسمه من الخطبة وانتخب شخصية علوية من « ترمذ » اسمه « علاء الملك » وخطب باسمه على المنابر ، وصك الصكوك باسمه [1] ولعل غزو علاء الدين لبغداد عام ٥٩٦ هـ كان لنفس الغرض [2] .

وقد اقتبس الخوارزميون النظام الادارى ونظام الحكم فى بلادهم من السلاجقة وتسموا باسم السلاطين وكان لهم دواوين : المالية، والجيش، وكان من الوظائف الكبيرة عندهم : « مشرف المماليك » ويتولى النظر فى أمور الرقيق ، و « الطست دار » وهو الأمين على الملابس والنظافة و « بيت الركاب» وهو موضع خيول السلطان، ووظيفة « مقدم الجاويشية » وهو أقرب إلى رئيس الحرس الخاص ، ومن الوظائف فى قصور السلاطين أيضا « السلحدار » أى محافظ الأسلحة ، وكان نظام الحسبة معروفا عندهم وفق الشريعة الاسلامية وكانت قصورهم مثالا للترف [3] .

— ٤ —

ونفهم التقسيم الادارى لخوارزم ، مما ذكره المؤرخون من أن علاء الدين خوارزمشاه قسم دولته بين أولاده الأربعة وفق التقسيم الآتى :

١ — الركن الشرقى من الدولة الخوارزمية ـ حيث مدينة ـ غزنة ـ باميان ـ الواقعة فى أعالى جيحون . وبلاد حوض نهر السند ، وكان من نصيب جلال الدين المنكبرتى .

(١) تاريخ الدولة الخوارزمية والمغول ـ حافظ أحمد حمدى ص ٣٨ ط القاهرة .

(٢) الكامل لابن الاثير ١٢ ج : ص ٧٣ .

(٣) سيرة جلال الدين المنكبرتى ـ للنسوى ص ١٣٣، ١٣ ، ٢٣ ، ١٩٢ ٢٤٧

٢ — الأقاليم الشمالية الخوارزمية : وتشمل : خوارزم ، وخراسان ، ومازندران ، وكان من نصيب قطب الدين ازلاغشاه .

٣ — الأقاليم الجنوبية للدولة الخوارزمية وتشمل : كرمان ، ومكران وكانت من نصيب غياث الدين شيرشاه .

٤ — الأقاليم الغربية للدولة الخوارزميـــة وتشمل : العراق العجمى وكانت من نصيب ركن الدين غورشاه (١) .

— ٥ —

أما زمخشر التي ولد ونشأ فيها الزمخشرى فهى قرية صغيرة فى نواحى خوارزم ، ذكرها الزمخشرى فقال : أما المولد فقرية من قرى خوارزم مجهولة يقال لها زمخشر (٢) .

ولا نعرف لزمخشر شأنا فى التاريخ . وهى كما يحدثنا الجغرافيون تقع على أربعة أميال من خوارزم فهى ضاحية من ضواحيها (٣) وقد زارها ابن بطوطة الرحالة وكانت حينذاك عامرة (٤) .

---

(١) تتمة المختصر فى أخبار البشر — لابن الوردى ٢ ج / ص ١٠٤ .

(٢) معجم البلدان لياقوت ٤ ج : ص ٤٠٠ ط السعادة ووفيات الاعيان لابن خلكان ج ٢ ومعجم الادباء — لياقوت ١٩ ج — ص ١٢٦ ط الرفاعى .

(٣) أحسن التقاسيم — للمقدسى ص ٢٨٤ ط ليدن .

(٤) رحلة ابن بطوطة ص ٢٩٨ ط المعارف .

# الفصل الثانى

# ميلاد الزمخشرى ونشأته

**أسرة الزمخشري :**

كانت أسرة الزمخشرى ، أسرة مشهورة بالتقوى والصلاح محافظة على أداء شعائر الدين ، ويذكرها الزمخشرى نفسه فى شعره ، فيقول فى وصف الراح (١) :

هات التى شبهت ظلماً بشمس الضحى
لو عارضتها لغطتها باشراق
أستغفر الله أنى قد نسبت بها
ولم أكن لحياها بذواق
ولم يذقها أبى قبلا ولا أحد
من أسرتى واتفاق الناس مصداق

ويحدثنا الزمخشرى عن والدته وحنانها وشفقتها حتى بالطيور وأنها نهرته وهو طفل حين رأته يجر رجل عصفورة من عشها ، ليلعب بها وقد ازداد ، ألمها حين رأته يقطع رجل العصفورة ، فدعت عليه بأن يقطع الله رجله (٢) .

أما والده الشيخ عمر بن محمد بن أحمد الزمخشرى فلا نعرف عنه كثيراً ، ولم يعطنا الزمخشرى نفسه معلومات كثيرة عنه .

إلا ما ذكره من أن مؤيد الملك ( م ٤٩٤ هـ ) سجنه وربما كان ذلك

---

(١) مخطوط ديوان الزمخشرى ورقمه ٨٥

(٢) وفيات الاعيان ــ لابن خلكان ٢ ج : ص ٥١٠ ، مفتاح السعادة بطاش كبرى زاده ٣ ج : ٤٣٣ .

لأسباب سياسية ، ومؤيد الملك هذا يصفه ابن الأثير « بأنه كان سيء السيرة[1] ، يظن أنه مات في سجنه ، وكان من أهل الفضل والعلم وكان كذلك عالم زمخشر ، ويصف الزمخشري علمه وتقواه وورعه وقليل حظه من حطام الدنيا في مرثية له ، نعى بها أباه فيقول : [2]

فقـــدته فاضلا فاضت مآثره
العلم والأدب المـأثور والورع
أخا طباع مصفاة منـــاسبة
ماء السحابة ما في بعضها طبع
وذا حقـائق لا في لحظـة طلب
لغير رشد ولا في لفظـه قـذع
لم يأل ما عاش جدا في تقاه يرى
أن الحريص على دنيـاه منخـدع
صام النهار وقام الليل وهو شج
من خشية الله كأبي اللون ممتقع
من المروءة في عليـــــاء متسع
صدرا وان لم يكن في المـال متسع
قريب عهـد بوخط الشيب عارضه
أثر الشباب ووجف الليل متبـع

ولا شك أن الزمخشري تتلمذ أول ما تتلمذ في الثقافة الاسلامية على والده وأنه ورث علمه وفضله وأخذ عنه شمائله وآدابه .

---

(١) تاريخ الكامل لابن الاثير ١٠ ج ص ١٠٥ .
(٢) مخطوط ديوان الزمخشري ورقة ٧٢ .

ويظهر أن والده مات وهو بعيد عنه لأن الزمخشرى رحل من قريته إلى المدينة لطلب العلم والوالد يتألم بألم الفراق واذعته ولكنه تحمل ذلك كله رغبة فى تهذيب ابنه وتعليمه ، فان الزمخشرى يقول من القصيدة السابقة نفسها (١) :

وان ممـا قرانى حسرة وأسى
وضافنى الكرب من جراه والوجع
ان عاقنى شحط دار عن تفقده
حتى مضى وهو من ذكراى ملتذع
يا حسرتا أننى لم أرو غلتـه
وغلتى بزمان فيـه نجتمـع

ثم يحدثنا عن جماعة من أسرته وأقاربه تخطفهم الموت واحدا بعد آخر:

ما للنوائب لا ينفك ديدنهـا
غمى وهجيرهـا قهرى وإذلالى
أودت بجدى وما أبقت أخى وطوت
عمى وصادت بأسباب الردى خالى (٢)

ويرثى خالا آخر بقوله :

يا خير خالين إنى بعـد فقدكما
من لوعـة وأسى فى شر حالين
وإن فرقة خال واحـد حطمت
ظهرى فكيف إذا فارقت خالين (٣)

---

(١) مخطوط ديوان الزمخشرى ورقة ٧٢ .
(٢) مخطوط ديوان الزمخشرى ورقة ١٠٠ .
(٣) مخطوط ديوان الزمخشرى ورقة ١١٤ .

ونحن لا نجد من المراجع ما يعيننا على تحقيق نسب أسرته ولا نعرف هل هي عربية أو فارسية .

والغموض الذى أحاط بأسرة الزمخشرى هو عينه الذى يحيط بنشأته العلمية ...

— ٢ —

مولد الزمخشرى :

ولد الامام جار الله الزمخشرى أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد فى زمخشر فى شهر رجب عام ٤٦٧ هـ — ١٠٧٥ م (١) .

نشأة الزمخشرى :

ولد ونشأ الزمخشرى فى قريته الصغيرة « زمخشر » ولا شك أنه بدأ يتعلم مبادىء القراءة والكتابة ويحفظ القرآن الكريم فى قريته وهو بين والديه ، وعندما وصل إلى سن التعليم أصابه داء أقعده عن ممارسة الحياة كما كان يتمنى هو ، ويتمنى له أبوه ، فأصبح زمنا مبتلى وكان يعانى أشد الآلام من ذلك لأن الداء أقعده عن بغيته وآماله ، كان أبوه عالم قريته ومن ثم كان لا يصح أن يصبح ابنه « وهو العالم الصالح » جاهلا بأمور الدين ، وشاء له الله أن يسلمه أبوه إلى خياط ليعلمه ، ولكن الطفل الصغير كان أوسع أفقا فلم تطمئن نفسه إلى هذه الصنعة الصغيرة ، ولم يطق أبوه أن تقع عينه عليه وهو يعمل فى الخياطة ، وحطم الولد القيد وأخذ يفكر فى المستقبل العظيم الذى ينتظره . وأخذ يطلب من أبيه الذى يفهم ابنه ويلمس شعوره أن يرسله إلى البلد لكى يحقق آماله ، ولكن الأب لم يطق فراق

(١) راجع بغية الوعاة للسيوطى ص٣٨٨ ، نزهة الالباء للانبارى ٤٦٩ ، معجم الادباء — ريحانة الادب ، كشف الظنون — أنباء الرواة للقفطى ، وفيات الاعيان — ابن خلكان ٢ ح : ١١٠ .

ابنه وخروجه من القرية ، وألح الابن عليه أن يأخذه إلى المدينة ويتركه فيها هو وشأنه وأخذ يقول له « احملني إلى البلد واتركني فيها » فأخذ الأب بعد ابنه السفر ووصى عليه معارفه وأسلمه إلى الحياة ليلقى فيها ما قدر له[١]، ويروى ابن خلكان ( انه لما بلغ سن الطلب رحل إلى بخارى لطلب العلم)[٢] وبخارى منذ العهد السامانى كما يصفها الثعالبى « كانت فى الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر[٣] .

* * *

ونعرف كذلك عن طفولة الزمخشرى أن رجله قد قطعت وهو صغير ولا نعرف سبباً لقطع رجل هذا الطفل الصغير الناشىء ، وقد رويت لذلك أسباب مختلفة ، قيل أنه كان لسبب البرد ، وقيل بسبب جرح أصابه فى رجله ، ويقال أنه سقط عن دابته ، أو عن السطح فى صغره فأصيب بجروح أدت إلى قطعها[٤] ، وربما كان هذا هو السجان الذى حبسه عن الانطلاق وراء بغيته، وهو فى أخضر العود، وهناك حديث آخر مع الفقيه الدامغانى[٥] عندما سأل الزمخشرى عن سبب قطع رجله فأجابه بأنه سقط من الدابة فقطعت رجله بسبب دعاء والدته عليه ' ويقول ابن خلكان « انه كان

---

(١) الجواهر المضيئة — لابى الوفاء القرشى ٢ ج : ص ١٦١ والعقد الثمين للفاسى ورقة ٣٠ مخطوط دار الكتب .

(٢) وفيات الاعيان — أبن خلكان — ٢ ج : ١٠٧ .

(٣) يتيمة للدهر الثعالبى — ٤ ج : ١٠١

(٤) وفيات الاعيان — أبن خلكان ٢ / ٥١٠ معجم الادباء ج ١٩ بغية الدعاة للسيوطى .

(٥) وفيات الاعيان ٢ / ٥١٠ مفتاح السعادة بطاش كبرى زاده ١ / ٤٣٣

يستصحب معه شهادة أناس كثيرين ممن اطلعوا على حقيقة الحال خوفا من أن يظن من لم يعلم حقيقة الحال أنها قطعت لريبة [١] .

وانى لأعجب كيف ذكر بن خلكان هذا الكلام ؟ دون أن يذكر لنا ما هى الريبة التى كان يمكن أن توجه اليه ؟ واعتقد أن مجال الشك واسع أمام هذا الكلام ؟ ما الريبة التى كانت تتجه نحو الزمخشرى ، وهل كان الزمخشرى مريبا أو متهما فى كلامه إلى حد يحمله على التعلق بأذيال شهادة خلق كثيرين ليشهدوا له ؟ وهل كانت توقيعات الناس بشهادتهم تدفع عنه تهمة شائعة أو ريبة محتملة ؟ وهل وصل مطاف القصاص به إلى قطع رجله ؟ دون أن يعرج على يده اليمنى ثم اليسرى ؟

هذه الشكوك مع ما نعرفه عن الزمخشرى تجعلنا نشك فى قيمة هذا الكلام ، وتدفعنا إلى أن لا نتحرج من انكار هذا الحادث .

(١) نفس المرجع .

# الفصل الثالث

## حياته العلمية وأساتذته

**حياته العلمية وأساتذته:**

— ١ —

قضى الزمخشري حياته الأولى في زمخشر حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وتلقى قليلا من الثقافة الإسلامية على يد والده.

وبالحاح من الطفل الصغير على والده ذهب به إلى المدينة «خوارزم» أو «بخارى» ليقضي فيها فترة من فترات حياته المرهقة المكدودة وهو طفل ناشيء يكافح من أجل تزويد نفسه بالثقافة الإسلامية الواسعة ومن أجل مستقبله الذي كان يتمناه أن يكون مستقبلا حافلا عظيما مثل: مستقبل العلماء الأفذاذ الذين طالما سمع بهم وقرأ لهم..

وفي خوارزم أقبل على حلقات العلم وشيوخ الدين وعلى منابع الثقافة مجدا في التحصيل مكبا على الحفظ والقراءة مقبلا على ما رأى بثاقب فكره وبعيد نظره، أنه أجدى له في دينه ودنياه.

ويبدو أن الفتى الزمخشري عاش في كنف أصدقاء والده في خوارزم — في رأي — أو بخارى — في رأي آخر — في رعايتهم وكان والده مشجعا ومؤازرا له[١].

وفي هذه المدينة قضى الشباب الفتى من عمره زمنا غير قصير نهل فيه من منابع الثقافة ما استطاع من علوم عصره على أيدي جلة من الشيوخ.

وبعد قليل كان قد ألم بكثير من أصول الفقه والحديث، والتفسير،

---

(١) الجواهر المضيئة — لأبي الوفاء القرشي ٢/١٦١ — العقد الثمين — للفاسي ورقة ٣٠ مخطوطة دار الكتب.

والتوحيد ، والمنطق ، والفلسفة وشتى علوم الدين والعربية وأصبح يشار إليه بالبنان من بين لداته وأترابه .

— ٢ —

ولكن الفتى الشاب على الرغم من فقره وعاهته أبى إلا أن يسير فى تحصيل الثقافة على المنهج الذى كان يسير عليه غيره من الشباب الطامعين والعلماء المحصلين ، فأخذ يتنقل بين الامصار والأقطار طالبا للعلم ويتحمل أعباء السفر بين بلد إلى بلد، م قلة الزاد وأخطار الطريق، فتردد على نيسابور، ومكث فيها زمنا وقابل فى هذه المدينة ، الفقيه الدامغانى الذى سبق أن ذكرناه[١] ، ثم ذهب إلى بخارى وخراسان[٢] وفى أهل خراسان يقول[٣] :

شهدت من أهل خراسان ما ليس يوازى بعض مشهوده

وقد مدح بخراسان ، جماعة من أصحاب الدولة والنفوذ منهم ، مجير الدولة أبو الفتح على بن الحسين الاردستانى نائب تاج الدولة فى ديوان الطغراء والانشاء فى عهد السلطان أبى الفتح ملكشاه[٤] وكذلك مدح فيها ، مؤيد الملك عبيد الله النظام ابن نظام الملك الذى تولى ديوان الإنشاء أيام أبى الفتح ملكشاه[٥] . ثم رحل الى اصفهان مقر السلطان السلجوقى

---

(١) بغية الوعاة — للسيوطى / ٣٨٨ ط الاولى

(٢) معجم الادباء لياقوت : ١٩ ج : ١٥٦ ط رفاعى — وفيات الاعيان — ابن خلكان — ٢ / ٥١٠

(٣) ديوان الزمخشرى ورقة : ٤١ مخطوط بدار الكتب

(٤) تاريخ آل سلجوق ، للعماد — ص ٥٨ ديوان الزمخشرى ورقم ٢٣ مخطوط

(٥) نفس المصادر السابقة

محمد بن أبى الفتح ملكشاه ( م ٥٢١ هـ )[١] ومدحه بقصائد بليغه ومما قال فيه[٢] :

محمد بن أبى الفتح الذى تركت
أوصافه الكنة فى كل منطيق

ابن السلاطين من أبناء سلجوق
وابن الغطارف منهم والغرانيق

لله من عادل من حق سيرته
ونصرة الحق أن يدعى بفاروق

مستوجب من جموع الشرك مبغضة
محبب فى بنى الإسلام مرموق

ومن المدن التى زارها ـ مرو ـ وقد لقى فيها الامام السمعانى[٣] وطاف بكثير من مدن خوارزم وخراسان — محصلا للعلم ومجالسا للعلماء ومناظرا لاقرانه ، ونستطيع أن نحدد تاريخ هذه الفترة من حياته ، وهى الفترة العلمية الأولى التى عاشها الزمخشرى بكل مواهبه وقواه وآماله مابين عام أربعمائة وتسعة وسبعين إلى أربعمائة واثنين وتسعين أى منذ إن كان فى العاشرة إلى أن بلغ الخامسة والعشرين من عمره .

— ٣ —

وفى هذه الفترة ونحو عام ٤٨٨ وهو فى الحادية والعشرين من عمره توفى والده الذى طالما شمله بعطفه ورعايته ، وقد وشى الوشاة بوالده

---

(١) تاريخ الكامل لابن الاثير . ج : ١٨٤،١٠ ، ١٨٥

(٢) ديوان الزمخشرى ورقة ٨٦ . وقد مرت فى فصل الحياة السياسية .

(٣) الانساب للسمعانى ص ٢٧٧ .

إلى كافى الكفاة مؤيد الملك الذى كان يتولى رياسة دووابن السلاجقة ( وتوفى عام ٤٩٤هـ ) وأدى ذلك إلى حيث مكث فيه بضع سنين وقد استعطف الشاب مؤيد الملك بقصائد كثيرة ليطلق سراح والده ويعيده إلى وظيفته حفظا لأسرته وأطفاله البائسين ومن هذه القصائد قصيدته التى يقول الزمخشرى فيها(١) :

آ كفى الكفاه مؤيد الملك
خضع الزمان لعزه وجلاله
ارحم أبى لشبابه ولفضله
وارحمه للضعفاء من أطفاله
ارحم اسيرا لورآه من العدى
اقساهم قلبا ارق لحاله
ماأطول الليل الذى يفنيه فى
سهد وأطول منه ليل عياله

وأخذ الشاب كذلك ينظم قصائد كثيرة فى شكوى الزمان وصروف الأيام ، ويبدو من قصائده هذه ، القلق والحيرة والاضطراب النفسى الذى كان من أقوى أسبابه فقره وانقطاع المعونة .

وبعد قليل مات والده فى السجن ولاشك أن ذلك كان مصدر حزن عميق الابن الشاب وللأسرة المنكوبة وقد رثاه الزمخشرى فبكاه أحر بكاء وقد أشرنا آنفا إلى نبذ من مرثيته فيه(٢) .

---

(١) ديوان الزمخشرى ورقة / ٩٢

(٢) ديوان الزمخشرى ورقة ٩٧

— ٤ —

ونحن لانعرف شيئا كثيرا عن أساتذة الزمخشرى فى هذه الفترة ، ومع ذلك قد نستطيع أن نرسم صورة واضحة بقدر الامكان ووفق ماتهدينا إليه المراجع لشيوخه فى حياته العلمية الأولى وفى عهد شبابه .

ولقد كان القسط الأوفر من مواهب الزمخشرى وملكاته ، وشهرته العلمية ، وتفوقه فى علوم الدين راجعا إلى شيوخه ، ورجال العلم ، والأدب الذين تخرج الزمخشرى على أيديهم فأن علم الأستاذ واخلاصه ونبل التلميذ وتلهفه على العلم ،جديران بأن يهيئا الجو المساعد لنضوج مواهب الزمخشرى وملكاته .

لم يستقر الزمخشرى كما نعرف طول حياته فى بلدة معينة ولم يقتنع بشيوخها وعلمائها ، بل كان يجوب البلاد والأقطار ليرى رجالات العلم ويجلس بين أيديهم فى خضوع وخشوع وصبر وإيمان ،حتى يرتوى من منابع علمهم ، ثم يذهب إلى بلدة أخرى وهكذا ومما يدل على تفانيه فى طلب العلم وشوقه إليه ، أنه لم يقف عن طلب العلم يوما من الأيام بل كان حتى فى شيخوخته واستاذيته لايرى أية غضاضة فى أن يتعلم مثلا على ابن وهاس ويتبادل هو واياه العلوم ، أو على أبى منصور نصر فى مصر[1] فان الزمخشرى كان يأخذ منه علم الأدب وهو يأخذ من الزمخشرى التفسير .

---

(١) تاريخ ابن خلكان ـ ٢/١٠٧ وطبقات الحنفية القاسم بن قطوبلوغا ص ٥٣ ط أوربا .

ومن شيوخ الزمخشرى واساتذته :

١ ــ محمود بن جرير الضبى الاصفهانى ( أبو مضر ) ( م٥٠٧ هـ )
أخذ الزمخشرى عنه الأدب ، وعلم الأعراب ، وعلم الكلام والتوحيد ، وتأثر بمذهبه الاعتزالى ، وتمذهب بمذهبه ،وكان يلقب بفريد العصر وكان صاحبا لنظام الملك الطوسى وقد تخرج على يده كثير من العلماء والفحول وادخل مذهب المعتزلة فى خوارزم،وكان يقيم فى خوارزم وتوفى « بمرسو » ــ عام ( ٥٠٧ هـ ) وقد رثاه الزمخشرى بقوله :

وقائلة ماهذه الدرر التى
تساقطها عيناك سمطين سمطين
فقلت هو ألدر الذى قد حشا به
أبو مضر أذنى تساقط من عينى[(١)]

٢ ــ الشيخ أبو على الضرير وكان علماً ومتبحرا فى فنون الأدب والنحو وعلوم الأعراب وأخذ الزمخشرى منه علوم الأدب[(٢)] فى خوارزم .

٣ ــ الشيخ السديد الخياطى أخذ عنه الفقه[(٣)] .

٤ ــ أبو السعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمى البيهقى ــ ( ٤١٣ ــ ٤٦٤ هـ ) . وكان معتزليا زيديا وقال القاضى الحافظ : هو شيخ الامام الزمخشرى وله تفسير كبير يتميز عن سائر التفاسير بالترتيب والتنسيق ويعرف باسم « التهذيب » وقد قيل أن تفسير الكشاف من

(١) معجم الادباء — لياقوت ــ ١٩ ج / ١٢٤ = بغية الوعاة ص ٣٨٦ تتمة صوان الحكمة ١٣٥ ط أوربا .
(٢) طبقات الحنفية لقاسم بن قطلوبغا ط أوربا ص ٥٣
(٣) مفتاح السعادة ــ لطاش كبرى زاده ج ١/٢٣٣

هذا التفسير بزيادة تعقيد[1] .

٥ ـ ركن الدين محمد الأصولى ، وقد أخذ الزمخشرى عنه علم الأصول وأخذ هو عن الزمخشرى التفسير[2] .

ويذكر بعض التراجم ، مثل ، ياقوت فى معجم الأدباء والسيوطى فى البغية ، وصاحب مفتاح السعادة أن الزمخشرى تتلمذ على يد الشيخ الحسن بن مظفر النيسابورى الضرير وهذا سهو واضح ، فقد توفى الحسن عام ٤٤٢ ﻫ بينما ولد الزمخشرى عام ٤٦٧ﻫ[3] .

ومهما كان ، فقد كان لهذه الفترة الحافلة من حياة الزمخشرى أثر كبير فى مستقبله وتفكيره ومواهبه[4] .

١ ـ ففى هذه الفترة نضج عقله واستحكمت ملكاته وقويت ملكاته ووضحت شخصيته .

٢ ـ وفى هذه الفترة كذلك حصل الكثير من علوم الإسلام والعربية وطارت شهرته فيها وتصدر حلقات التدريس لأفراد الطلاب والمتعلمين .

٣ ـ وفى هذه الفترة كذلك اتصل بالكثير من العلماء والأدباء وذوى الفضل وجاب الأمصار فى خوارزم وخراسان ومرو وبخارى وأصفهان يجلس فى حلقات علمائها وأدبائها مستفيدا ومناقشا وموجها .

---

(١) القصد الحسن طبقات الزيدية الكبرى

(٢) الفوائد البهية لعبد الحى اللكنوى ص ٢٣٢

(٣) معجم الادباء لياقوت ٩/١٩٢ مفتاح السعادة ١/٤٣١ بغية الوعاة للسيوطى .

(٤) معجم الادباء لياقوت ٩/١٩٢ مفتاح السعادة ١/٤٣١ بغية الوعاة للسيوطى .

٤ — وكذلك نبغ فى الأدب نثره وشعره وعرف بالشعر ونظم الكثير من القصائد فى وصف حياته وبؤسها وفى شكوى الزمان وصروفه وفى مدح اساتذته ومن اتصل بهم من قريب ، وقد سبق أن أعطينا صورا من شعره فى هذا المجال ، ومنه مرثيته لوالده .

٥ — ولا شك أن الزمخشرى بدأ التأليف فى هذه الفترة ولا نعرف بيقين الكتب التى ألفها آنذاك .

# الفصل الرابع

# رجولته وكهولته

وقفنا بالزمخشرى عند المرحلة الأولى من حياته حيث اكتملت مواهبه وتألقت شهرته ، وذاع صيته ، فى أندية الأدباء والعلماء .

وبدأ الزمخشرى من ذلك الحين يدخل فى طور جديد من أطوار حياته الحافلة المديدة ، هو طور الرجولة الذى يتسم بأنه طور الصلات الاجتماعية والاتصال بمختلف طبقات المجتمع فى حياة هذا الرجل الكبير ، فقد أخذ الامام الزمخشرى يفد إلى الأمراء والوزراء ، وكبار رجالات الدولة آخذا منهم ومعطيا إياهم ، يأخذ منهم الصلات والهبات ويعطيهم القصائد والقلائد ، وكان يعطى أكثر مما يأخذ ، وقد أشار إلى هذا المعنى فى شعره حيث يقول[1] :

إن قيل لى ما أكثر المدح التى
تعنى بها فجواب ذلك القائل
ماالشأن فى مدح أقول كثيرة
الشأن فى منح أنال قلائل

وترى ديوان الزمخشرى مملوءا بالمدح والثناء لأصحاب النفوذ والسلطان كالسلاجقة والخوارزمية ، ووزرائهم وولاتهم وقضاتهم ، وقد سبق أن ذكرنا طائفة من الملوك والوزراء الذين اتصل بهم الزمخشرى ومدحهم .

وفى هذا الطور من حياته أكثر من الرحلة والانتقال يدفعه إلى ذلك

---

(١) ديوان الزمخشرى ورقة ٩٦

رغبته فى الاستفادة والإفادة ولقاء العلماء ، ومن لقيهم وأخذ منهم فى هذه الفترة :

١ — أبو بكر بن طلحة بن عبد الله اليابرى الأندلسى (م ٥١٨ هـ)(١) ، يقول أبو حيان : « أن الزمخشرى رحل من خوارزم إلى مكة قبل عام ٥٢٠ هـ ، لقراءة كتاب سيبويه والرد على ابن حزم على رجل من أصحابنا من الإندلس وكان مجاورا بها عالما بالكتاب وغيره(٢) » .

٢ — أبو منصور بن الجواليقى : الملقب بشيخ الإسلام يروى القفطى عن الكندى تلميذ الجواليقى « قدم علينا بغداد سنة ثلاث وثلاثين وخمسمأة رأيته عند شيخنا أبى منصور ابن الجواليقى مرتين قارئا عليه بعض كتب اللغة من فواتحها ومستجيزا لها لأنه لم يكن على ما عنده من العلم لقاء ولا رواية « وكان الجواليقى أماما فى فنون الأدب ودرس فى مدرسة النظامية بعد الخطيب التبريزى ، واختص بامامة المقتفى المتوفى عام (٥٢٩ هـ — ٥٥٥ هـ) وله تصانيف عديدة(٣)

٣ — أبو الحسن على بن موسى بن حمزة بن وهاس بن أبى الطيب العلوى (م ٥٢٦ هـ) كان رجلا عالما فاضلا وكان من أهل مكة وأمرائها .

٤ — أبو نعيم الاصفهانى ، أخذ الزمخشرى عنه الأدب(٤) .

---

(١) بغية الوعاة — للسيوطى — ٢٨٤

(٢) أزهار الرياض — للقاضى عياض ج ٣ ص ٧٧ ، طبقات المفسرين السيوطى ص ٤١ ط أوروبا .

(٣) أنباء الرواة — القفطى — ج ٣ / ٢٧٠ — معجم الادباء ١٩/١٢٧ . بغية الوعاة ٤٠١ نزهة الألباء — للانبارى/ ٣٢٠ ، وفيات الاعيان — ابن خلكان — ١ ج ص ٢٧٩ ط أوروبا .

(٤) ازهار الرياض — للقاضى عياض — ج ٣ : ٢١٩ معجم الادباء ج ١٤/٨٦ .

وهذا الذى ذكرناه من شيوخه هم ماعدا الذين سمع منهم واستجازهم وقد سمع من أبى سعد الشقاف وأبى سعد الخطاب نصر بن الطير (البطر) فى بغداد، وغيرهما من الشيوخ[١].

كما تتلمذ عليه فى هذه الفترة كثيرون من الطلاب الذين أصبحوا فيما بعد أئمة الأدب واللغة وعلوم الدين، وقد سمع عنه الحديث واستجازه عدد كبير يذكر لنا السمعانى أنه روى عن الزمخشرى أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويلى، بطبرستان، وعبد الرحيم بن البزاز، بابيورد، وأبو عمر عامر بن الحسن السمار بزمخشر وأبو سعد أحمد بن محمود الشاشى بسمرقند وأبو طاهر سمان عبد الملك الفقيه بخوارزم[٢].

وكان آخر الرواة عنه: أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن الشعرى (م ٦١٠ هـ) وأجاز لأبى طاهر بركات بن إبراهيم الخشوعى، والحافظ الطاهر بن محمد السلفى[٣]. وطلب منه الاجازة الأديب رشيد الدين الوطواط (م ٥٧٨ هـ) وجماعة سواهم[٤]. وتتلمذ على يديه محمد بن أبى القاسم بايجوك أبو الفضل البقالى الخوارزمى وجلس بعده مكانه[٥] ويعقوب بن على بن محمد بن جعفر أبو يوسف البلخى، ثم الجندلى أحد أئمة النحو

---

(١) مفتاح السعادة — بطاش كبرى زاده ١ / ٤٣٣ — معجم الادباء ١٩ / ١٢٨ بغية — ٣٨٨ ط مصر شذرات الذهب لابن العماد ٤/١٢١ .

(٢) الانساب للسمعانى ص ٢٧٧.

(٣) العقد الثمين — للفاسى — ج٤ : ص ٣١٠ ، وتاريخ ابن خلكان ج١ ص ٣٠٢ ط ٠ مصر

(٤) ج٢ رسائل الوطواط ص ٢٨ ط المعارف

(٥) معجم الادباء — ياقوت ج ١٩ : ص ٥

الأدب[١] وأخذ العلم عنه : على بن محمد بن على بن أحمد بن مروان العمرانى الخوارزمى أبو الحسن الأديب الملقب بحجة الأفاضل[٢] وقرأ عليه الموثق بن أحمد بن أبى سعيد إسحاق أبو المؤيد المعروف بأخطب خوارزم[٣] وكان ضليعا فى الأدب وشاعرا فاضلا .

والامام أبو بكر الأزدى القرطبى نزيل الموصل وشيخهـــا ( م ٥٦٧ هـ )[٤] .

— ٣ —

وفى هذه الفترة رحل إلى مصر لطلب العلم[٥] وكانت آنذاك فى حكم الفاطميين العلويين ، عامرة بحلقات العلم والمدارس ، آهلة بالعلماء والأدباء والشعراء ، زاخرة بنفائس المخطوطات وكتب الإسلام ولقى فيها كثيرا من العلماء .

وكان الزمخشرى لايدخل بلدا إلا ويجتمع علماؤها عليه ، يأخذون عنه ويقبسون من نوره ويستفيدون من علمه[٦] ويقول ابن خلكان : « وكان أمام عصره غير مدافع تشد إليه الرجال فى فنونه[٧] .

ورحل إلى مكة المكرمة ، نحو عام ( ٥٠٢ هـ )

---

(١) معجم الادباء ج ٢٠ : ص ٥٥

(٢) معجم الادباء ج ١٥ : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥

(٣) بغية الوعاة ص ٢٠١

(٤) مرآة الجنان ـــ عفيف الدين اليمنى ـ ج ٣ ص ٣٨٣

(٥) طبقات الحنفية ـ لقاسم بن قطلوبغا ص ٥٣ ط ليدن

(٦) أنباء الرواة ـ للقفطى ٣/٢٦٦ ط دار الكتب

(٧) وفيات الاعيان لابن خلكان .

وأقام فيها مجاورا بيت الله الحرام ، ولذلك لقب بجار الله ، ومن أجل ذلك يقول فى ديوانه :

أنا الجار جار الله مكة مركزى ومضرب أوتادى ومعقد اطنابى[1]

ويصف الزمخشرى نفسيته حين الهجرة إلى مكة والعوامل التى اكتنفته وهو سائر إليها فى إحدى قصائده[2] فيقول :

سيرى تماضر حيث شئت وحدثى
أنى إلى بطحاء مكة سائر
حتى أنيخ وبين أطمارى فتى
للكعبة البيت الحرام مجاور
متعوذ بالركن يدعو ربه
يشكو جرائر بعدهن جرائر
يشكو جرائر لا يكاثرها الحصى
لكنها مثل الجبال كبائر
والله أكبر رحمة والله أكثر نعمة وهو الكريم القادر
وأحق مايشكو ابن آدم ذنبه
وأحق من يشكو إليه الغافر
فعسى المليك بفضله وبطوله
يكسو لباس البر من هو فاجر

---

(١) ديوان الزمخشرى ورقة : ٦ مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٢٤٢

(٢) ديوان الزمخشرى ورقة ٤٣ .

يامن يسير فى البلاد منقبـــــــا
أنى إلى البلد الحرام مســـــافر
إن هاجر الانسان عن أوطانه
فالله أولى من إليه يهاجر
وتجارة الأبرار تلك ومن يبع
بالدين دنياه فنعم التاجر
تالله ماالبيع الربيح سوى الذى
عقد التقى وكل بيع خاسر
خربت هذا العمر غير بقية
فلعلنى لك يابقية عامر
وعهدتنى فى كل شراولا
فلعلنى فى بعض خير آخر
فى طاعة الجبار آبذل طاقتى
فلعلنى فيها الكسرى جابر
سأروح بين وفود مكة واحدا
حتى إذا صدروا فما أنا صادر
بفناء بيت الله أضرب قبتى
حتى يحل بى الضريح القابر
القى العصا بين الحطيم وزمزم
لايطبينى أخوة وعشائر
ضيفا لمولى لايخل بضيفه
ويبذل أقصى ماتمنى الزائر

حسبى جوار الله حسبى وحده
عن كل مفخرة يعد الفاخر
ساقيم ثم وثم تدفن أعظمى
ولسوف يبعثنى هناك الحاشر

وقد اتصل فى مكة بالشريف الحسنى العلوى ، على بن حمزة بن وهاس (م ٥٢٦ هـ) تقريبا ، وتمتع بعطفه وعطف امراء الأسرة الحسنية الحاكمة وقد اهدى إلى هذا الأمير العلوى أكثر من مؤلف ، وفى بيت الله الحرام ألف كتابيه : فى النحو : « المفرد والمؤلف » و « محاجات ومتمم مهام أرباب الحاجات فى الاحاجى والأغلوطات » واهداهما لأهل مكة حيث يقول فى مقدمة المفرد والمؤلف : « عملته لذوى السابقة والكرم من سا كنى المحرم[1] » .

وفى أثناء إقامته بالحجاز زار اليمن ، ومدنها ، ومما زاره من المدن ، همدان — حيث مدح ، هناك آل زرير ، وفى ذلك يقول[2]:

كم قلت فى خوارزم عند ترحلى
لركائبى : سيرى إلى همذانا
لو لم أقل سيرى إلى همذان —
همذت بنا فى سيرها همذانا
وإلى الكرام بنى زرير لم تزل
تجفو بنات غرير الأوطانا

(١) العقد الثمين — للفاسى ج ٣ : مخطوط دار الكتب العربية ، ومفتاح السعادة ج ١ ص ٤٣٣ .
(٢) ديوان الزمخشرى ورقه ١١١ .

وبنو زرير ماتزر ثيابهم
الا على الهضبات فى ثهلاننا

— ٣ —

وقد امتدت هذه الفترة فى حياة الزمخشرى نحو عشرين عاما ، إذ بدأت وهو فى الخامسة والعشرين من عمره عام ٤٩٢ هـ وانتهت وهو فى الخامسة والأربعين من حياته عام ٥١٢ هـ ، وفى هذه المرحلة عاش عيشة استقرار ورخاء بمكة ، وإن كان لم ينس وطنه الأول « خوارزم » ويبدو لنا من شعره أنه تزوج[١] وأنه لم يكن راضيا بحياته الزوجية ولا موفقا فيها وقد ترك ذلك فى نفسه آلاما وهموما جساما ، حتى ليرى أن الذى يتزوج لاالذى يموت — يستحق الرثاء والبكاء ، حيث يقول[٢]:

تزوجت لم أعلم واخطأت لم أصب
فاليتنى قد مت قبل التزوج
فو الله ماأبكى على ساكنى الثرى
ولكننى أبكى على المتزوج

وأغلب الظن أنه أنهى حياته الزوجية دون أن يعقب أولادا من زواجه ومن ثم عاش وحيدا فريدا حيث يقول :

فى قصيدة له :

هناك تركت النسل واخترت سيرة
مسيحية أحسن بذلك مذهبا[٣]

---

(١) أغلب الظن أنه تزوج فى هذه الفترة لأنها كانت فترة الاستقرار والثراء فى حياته
(٢) روضات الجنات ص ٣٢٣ ط ايران
(٣) نفس المصدر ورقة ١٨

وهو أيضا القائل « لاتخطب المرأة لحسنها ولكن لحصنها فان اجتمع الحصن والجمال فذاك هو الكمال وأكمل من ذلك أن تعيش حصورا وأن عمرت عصورا »[1] وفى هذا يقول أيضا :

يلوم قومى بالتنصح لومهم
وأن عناء لومهم والتنصح

يلومننى أنى نأيت بجانبى
عن النسل الوى عنه رأسى واجمح[2]

(١) المقالة السابعة والتسعون من اطواق الذهب ص ١٠٧ مطبعة السعادة

(٢) ديوان الزمخشرى ورقة ٢٦ .

# الفصل الخامس

# مرحلة العزلة

# فى

# حياة الزمخشرى ووفاته

تبدأ هذه المرحلة من حياة الزمخشري عام ٥١٢ هـ وهو في الخامسة والأربعين من عمره حيث كان ما زال يقيم في مكة ، وتنتهي عام ٥٣٨ هـ حيث توفي وهو في الحادية والسبعين من سني حياته الطويلة .

وتتسم هذه المرحلة بأنها كانت مرحلة الكهولة والعزلة في حياته .

وقد حببت له العزلة بسبب رؤيا رآها وهو في أعقاب مرض أنهكه في رجب ( عام ٥١٢ هـ ) وهو العام الذي سماه « العام المنذرة » [1] فانقطع عن المجتمع الذي كان يعيش فيه وآثر العزلة ، ورغب في الوحدة ، وأقام بمكة منفرداً بنفسه ، بعيدا عن الخاصة والعامة .

وقد ألف في هذه الفترة من عزلته ، مقاماته الخمسين ( عام ٥١٢ هـ ) وشرع في تأليف المفصل ( عام ٥١٣ هـ ) وفرغ منه ( عام ٥١٥ هـ )[2] وألف الفائق وفرغ منه عام ( ٥١٦ هـ ) [3] .

وفي نحو عام ٥١٦ هـ عاوده الحنين إلى وطنه وملعب طفولته ، ومسرح شبابه ، خوارزم ، فعزم على التوجه نحوها ، وسافر فعلا اليها وفي وصف سفرته هذه يقول من شعره [4] :

وفي نفس شبه اللهيب تصعدت
به زفرة كالنار ذاكية الجمر

---

(١) مقدمة مقامات الزمخشري .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ : ص ١٠٧ ، وأنظر المفصل .

(٣) كشف الظنون ص ١٢٩٣ ط أوربا .

(٤) ديوان الزمخشري ورقة ٤١ .

يذيب مضايف الشؤون بحـره
فتجرى شآبيب الشؤون على نحرى
بـــكاه على أيام مكة أن أبى
اليهـــا حنين النيب فاقــدة البكر
تذكرت أيامى بهـــا فـكـــأننى
قد اختلفت زرق الأسنة فى صدرى
أبيت على الصخر المبـارك باكيـا
كما كانت الخنساء تبكى على صخر
وحين تخطينـــا المنـــاقب وارتمت
بنا العيس تهوى فى مسالـكها القفر
وشط بأصحابى عن الابطح السرى
ولط الجبـــال المشمخرات بالستر
وقلت إلى أين الحطيم وزمزم
ومالى محجوزا عن الركن والحجر
صفرت وراء الغور صفرة مفلس
رأى يده صفرا من البيض والصفر
وقلت لقلبى قـــد ملـكتك مرة
فما أنت إلا طائر طار عن وكر

وقد أقام بخوارزم قريبا من عامين ، وقد ابتسم له الحظ فى خوارزم إذ قابله ملكها ، محمد بن أنوشتكين خوارزمشاه ( م ٥٢١ هـ )[١] بالترحاب

(١) تاريخ الـكامل لابن الأثير ج ١٠ : ص ٩٢ ، ٩٣ .

والتقدير وقربه اليه ، ومنحه عطفه ، ونال حظوة كبيرة ، وقد مدح الزمخشرى فيه رعايته للعلم والأدب ، حيث يقول من شعره [١] :

وقد خدمت بشيئين استوى بهما
أمر الملوك ودان السيف والقلم
هذا الكتب الأيادى واصل حدب
وذا الكبت الأعادى صارم خذم

وفى هذه المدة أرسل اليه ابن وهاس يطلب عودته إلى مكة ، وكان يحدث نفسه كما يقول الزمخشرى فى مقدمة الكشاف: « مع تزاحم ما هو فيه من المشادة بقطع الفيافى وطى المهامة ، والإفادة علينا نحو خوارزم ، ليتوصل إلى اصابة هذا الغرض » [٢] .

وما لبث أن رجع إلى مكة المكرمة مرة أخرى قبل عام ( ٥٢٠ هـ )[٣] أو على الأصح نحو ( عام ٥١٨ هـ ) حيث لقى بها عبد الله اليابرى ( المتوفى ٥١٨ هـ ) وقرأ عليه كتاب سيبويه [٤] ولا ننسى أنه فى أثناء عودته اليها مر بالشام ومدح تاج الملك صاحب دمشق ( م ٥٢٦ هـ ) [٥] ، ولما توفى تاج الملك وتولى بعدة ابنه شمس الملك بعث اليه بقصيدة تهنئة من مكة [٦].

وفى مكة المكرمة طاب له المقام ، حيث عاش موضع عطف ، ابن وهاس

(١) ديوان الزمخشرى ورقة ١٥٧ .
(٢) مقدمة الكشاف ج ١ ١٨ ط الحلبى ١٩٤٨ .
(٣) أزهار الرياض — للقاضى عياض ج ٣ : ٧٧ طبقات المفسرين للسيوطى ص ٤١ .
(٤) المرجع السابق ونفس الصفحات والمجلد ، وطبقات المفسرين للسيوطى والبغية ١ : ٤ .
(٥) الكامل لابن الأثير ج ١٠ : ص ٢٤٢ .
(٦) نفس المرجع ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ديوان الزمخشرى ورقة ٣٨ .

ورعايته ، وقد لقى فى رحابها الأمن والطمأنينة ولقى منه ، أهل مكة ، عالما جليلا ، واماما فذا ، كثير الفوائد ، فأحبهم وأحبوه ، وفى هذه الفترة ألف أكثر كتبه — وكانت أغلب تصانيفه بين زمزم والمقام (١) .

وقد ألف فى هذه الفترة « أطواق الذهب » « النصائح الصغار » « الشافى العى » و « نوابغ الكلم » و « المستقصى فى أمثال العرب » . ويبدو ان الزمخشرى جمع شعره ( ديوان الأدب ) باشارة من ابن وهاس. كما يظهر ذلك من مقدمة الديوان حيث يقول : « ولولا ذاك وأمرك مرسوم آخذ على بوجوب امتثاله واحتذاء مثاله للقيت منى حين اقترحت على جمعى نفاسات قريحتى وطلبت إلى الاسجاح سجيتى ركنا عن الاجابة مزورا وجلدا » (٢).

وفى أرض الحجاز ، زار كل بقعـة وشاهد كل أثر اسلامى ويقول فى مادة ت ـ ر ـ ب ـ من أساس البلاغة ( ووطئت كل تربة فى أرض العرب ) وعاش يلقى العلماء ويساجل الأدباء ، ويزور أعلام العالم الاسلامى فى موسم الحج ويتعرف اليهم ، ويلازم بيت الله الحرام ، ويفد إلى المدينة زائرا .

وفى مطلع ( عام ٥٢٦ هـ ) بدأ يؤلف فى بيت الله الحرام تفسيره العظيم الكشاف وانتهى منه فى أواخر ( عام ٥٢٨ هـ ) وقد نوه فى مقدمتـه بالشريف على بن حمزه بن أبى وهاس العلوى ، الذى صنف الكشاف (٣)

---

(١) مفتاح السعادة ـ لطاش كبرى زاده ج ١ : ص ٤٣٣ .

(٢) مقدمة ديوان الزمخشرى مخطوط دار الكتب .

(٣) العقد الثمين ج ٣ :مخطوط دار الكتب ، مفتاح السعادة ج ٤٣٣/١ ، ج ١١٨/١ الكشاف .

لأجله وكان الزمخشرى آنذاك يسير فى العشرة الأخيرة من سنى حياته كما يقول فى مقدمة الكشاف [١] وقد سماها « دقاقة الرقاب » [٢].

وبعد ذلك ألف « ربيع الابرار » ثم « أساس البلاغة » ثم « أعجب العجب فى شرح لامية العرب » .

وطالت اقامته بمكة فى المرة الثانية فامتدت قريبا من الأربع عشرة سنة إذ يقول فى ديوانه قبل سفره منها [٣] :

فجاورت ربى وهو خير مجاور
لدى بيته البيت المحرم عاكفا
أقمت بإذن الله خمسا كواملا
وصادفت سبعا بالمعرف واقفا
وتم لى الكشاف ثم ببلدة
بها هبط التنزيل للحق كاشفا

وحينما قدم بغداد زاره الشريف أبو السعادات هبة الله بن الشجرى — ( ٥٤٢ هـ ) مهنئا بقدومه فلما جلس اليه أنشده ابن الشجرى متمثلا :

كانت مسائلة الركبان تخبرنى
عن احمد بن داود أطيب الخبر [٤]

---

(١) الكشاف ج ١/١٨

(٢) تكنى بها العرب عن العشرة السبعين من العمر ورقة ٦ من القسم الثانى من كتاب ما يعول عليه فى المضاف والمضاف اليه ، محمد أمين المحبى مخطوط دار الكتب العربية ٤٧٥٤ أدب .

(٣) ديوان الزمخشرى .

(٤) هو على بن هبة الله بن الشجرى العلوى كان امام عصره فى اللغة والنحو وقرأ على التبريزى وابن طباطبا وله مصنفات جليلة ، بغية الوعاة للسيوطى ص ٤٠٨ ، ٢٠٧ .

حتى القيف___ا فلا والله ما سمعت
أذني بأحسن عما قد رأى بصرى (١)

— ٢ —

ولا ندرى متى فارق الزمخشرى مكة إلى بلاده خوارزم للمرة الأخيرة ولـكننا نعرف أنه تردد على بغداد مرتين آخرها ( عام ٥٣٣ هـ ) (٢) وقد يكون أنهى اقامته فى هذا العام ، ومنها سافر إلى بلاده - حيث مر ببغداد فى سفره .

وعاد الزمخشرى إلى وطنه شيخا كهلا : يقعده المرض والشيخوخة وقد أصبح بعد رجوعه ، فخر خوارزم ومرجع العلماء فى كل فرع ومشكلة، وطارت شهرته فى كل أرجاء العالم الاسلامى .

وظل كذلك حتى توفاه الله عام ٥٣٨ هـ - ١١٤٤ م حيث دفن « بجرجانيه » خوارزم (٣) .

---

(٥) والمحفوظ : جعفر من خلدح.
(٢) أنباء الرواة - للقفطى - ٣/ ٢٧٠ ط دار الـكتب.
(٣) بغيه الوعاة للسيوطى ص٣٨٨ - نزهة الالباء - للانبارى، ٤٦٩ معجم ما استعجم - البـكرى ج ٢ ، ريحانة الأدب للتبريزى ط طهران .

# الباب الثالث

# الفصل الثالث

## آثار الزمخشري

## الفصل الاول : آثار الزمخشرى :

لم تصلنا جميع آثار الزمخشرى ومؤلفاته ، ولكن من حسن الحظ، أنه قد حفظ مقدار لا بأس به ، من كتبه ، الخالدة فى مختلف مكتبات العالم، وقد طبع بعض هذه الكتب ، وسنشير هنا إلى جميع تآليفه ، وإلى المخطوط منها والمطبوع ... وهذا بيان بتآليفه :

١ — الكشاف عن حقيقة التنزيل فى التفسير ، وقد طبع مرارا فى مصر والهند ، فى مجلدات مختلفة وسأخصص له بحثا مستقلا .

٢ — القسطاس فى العروض : وهو مخطوط فى برلين وليدن ودار الكتب المصرية .

٣ — كتاب الامكنة والجبال والمياه : مرتب على حروف المعجم ، ويبتدىء بباب مافى أدلة الهمزة ، وهذا الكتاب فى الغالب يقتصر على معالم الحجاز ، والبلاد العربية ، من الشامات وغيرها ، وكثيرا مايعتمد على أقوال الشريف العلوى بن وهاس ، وطبع فى ليدن عام ١٨٥٥ م ، مع مقدمة أوملاحظات ، وفهارس باللغة اللاتينية « للميوده جواف » وطبع أيضا فى النجف والعراق ، بالمطبعة الحيدرية عام ١٩١٧م .

٤ — الفائق فى غريب الحديث: منه نسخ فى أياصوفيا و – كوبرلى– وفى جامع ومكتبة دمشق — وقد طبع مرارا فى مصر فى عدة مجلدات، يقول الزمخشرى فى خاتمة الكتاب : وتهيأ انتهاؤه فى أوائل شهر ربيع الآخر الواقع سنة ست عشرة وخمسمائة وسأخصص له بحثا مستقلا .

٥ — تعليم المبتدىء وأشارد المهتدى — وتوجد منه نسخة خطية

بدار الكتب المصرية ، بقسم الفهارس الفارسية تحت رقم س — ٤٢٥٤ وهو كتاب صغير الحجم — مكتوب على ورق عادى ، بحجم الربع ، يقول الزمخشرى فى مقدمته : « الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله الطاهرين أجمعين » قال مؤلف ، هذا الكتاب : المنطق المستعمل ، الذى ينطالق به ، السن المبتدئين ، فافهمه وأعمل به واحفظه تتفصح به إن شاء الله تعالى ثم يشرع فى الكتاب ويذكر جملا مفردة عربية ، وتحتها ترجمتها باللغة الفارسية ، والجمل التى يكتبها ليس لها لون أدبى وإنما هى جملة سهلة وبسيطة ، مما يكتبه الناشئون فى مراحل التعليم الأولى .

٦ — المفصل فى النحو — وقد نقلت نصوصا من مقدمته فيما سبق — هذه المقدمة التى يبدى فيها تحمسا شديدا بالنسبة إلى اللغة العربية ويشن الهجوم على أعدائها — ويقيم بحثه النحو فيه على عمد ثلاثة : الاسم ، والفعل ، والحرف وله طبعات وشروح كثيرة وأشهرها شرح ابن يعيش فى عشرة أجزاء ، ومن طبعاته طبعة الاستانة عام ١٢٩٨ م ومنه نسخ خطية فى المكتبات الكبرى ، فقد شرع فى تأليفه فى عاشر رمضان عام ٥١٣ هـ وانتهى منه ، فى شهر محرم عام ٥١٥ هـ .

٧ — المستقصى فى أمثال العرب : وهو معجم للأمثال العربية منه نسخة فى دار الكتب المصرية تقع فى ١٧٨ صفحة وفى مكتبات أوروبا ، والزمخشرى يبسط أسلوبه فى مقدمة هذا الكتاب حيث يقول : والحمد لله على ما أثلج به صدورنا ، من برد اليقين وكساه اعطافنا من تشريف الاسلام وأثبت عليه أقدامنا من صراطه المستقيم ، والصلاة على مصطفاه

من خلقه محمد وعترته الأبرار.. . ، ثم يقول : وقد تصديت للانصاب إلى هذا المضمار ، تصدى القاصد بذرعه ، والرابع على ظلمه ، فتدبرت شعب الفن الذى أنا كائن بصدده ، وقائم بازائه فصادفت الشعبة التى هى أمثال العرب ، خليقة بالميل في صغوا الاعتناء بها ، والـكدح فى تقويم عنادها ، لما أنست من تناهى فاقة الأفاضل .إلى استـكشاف غوامضها والغوص فى مشـكلاتها ، ولاسيما من انتدب منهم لتدريس قوانين العربية ، واقراء الـكتب الـكبار ، فقيدت من أوابدها ما أعرض واقتنصت من شواردها ما أكثب ، ثم ارتبطتها فى قرن ترتيب حروف المعجم . . . وذلك أنى بوبتها فاوردت مافى أوله الهمزة ثم قضيت على أثره بما فى أوله الباء وهلم جرا إلى منتهى أبواب الـكتاب ، وفصلت كل باب ، فقدمت فى باب الهمزا اياه ، ثم مع الباء وقد استمررت على مراعاة هذا النمط فى أوساط الـكلم أو آخرها وحتى تساوت صدور الأمثال ، وجاءت شرعا لا يدل بعضها على البعض وعدلت بالنظر على اعجازه فقدمت الاحق ، فالأحق ، وكل كلمة وجدتها متـكررة ، سطرتها كرة واحدة ، ثم لم اتعرض لها فى سائر مواقعها إلى أن انتهيت إلى أختها التى تطأ عقبها ، إلا إذا استـكره ذلك وغمض ،وقد عنيت بايراد قصصها وذكر النـكت والروايات فيها ، والـكشف عن معانيها ، والأنباء على مضاربها والتقاط أبواب الشواهد لها على أنى اشترطت تحرى الأختصار ،وتجريد الألفاظ عن الفضلات ،التى يستغنى عنها فى حط الاثام ، وعن وجهة المنى ، ولارتفاع الـكتاب محيطا بهذه النعوت كلها ، سميته ( المستقصى فىأمثال العرب ) ويحتمل أن يكون تاريخ تأليف هذا الـكتاب قبل عام ٥١٨ هو وهو عام وفاة الميدانى . . . حيث يذكر المترجمون - (أن الزمخشرى ألف هذا الـكتاب بعد ما أطلع

على كتاب « الأمثال للميدانى » وقصد بذلك منافسته للميدانى ويذكر أيضا أن الزمخشرى عندما أطلع على كتاب الميدانى أضاف إلى اسمه - نونا وصار باللغة الفارسية نميدانى — أى لاتعرف شيئا . .

٨ — رسالة فى نص العشرة - وأخرى فى كلمة الشهادة — فى برلين .

٩ ـ أطواق الذهب : وهو فصول قصار على نهج كتابة المقامات ومن الراجح أن يكون هو نفس كتاب « النصائح الصغار » والنصائح الكبار تكون هى مقاماته . .. وتوجد منه نسخ خطية ـ فى برلين - والمتحف البريطانى وقد ترجم إلى اللغة الألمانية وطبع مع الأصل فى فينا عام ١٨٢٥ م وفى استتجارت ١٨٦٣ م وقد ترجم إلى اللغة الفرنسية وطبع فى باريس عام ١٨٧٦ م وطبع وحده بمصر مرارا وشرحه الآشتيانى .

يدور أطواق هذا الكتاب حول معاتبة النفس حيث استخدم فيها المحسنات البديعية ، وألوان الجناس ، والطباق المختلفة من تامة وناقصه ، والسجع ويراعى فيها مخارج الحروف بين الكلمات وكان تأليف هذا الكتاب فى عام ٥١٢ هـ .

١٠ — مقامات الزمخشرى وكلها تدور على الوعظ والارشاد ، وليس فيها راو ، ولا بطل ، بل يبدؤها بخطاب نفسه ، ومانزال يذكر ويعظ رادعا نفسه عن الشهوات مؤكدا لها أن تسلك السبيل السوى الذى يؤدى بها إلى الفوز بنعيم الله ورضوانه ، وقد تأثر ولاشك ، فى أسلوبه فيها ، بمقامات الحريرى ، التى كان يقول فيها :

اقسم بالله وآياتـــــــه
ومشعر الحج وميقاته

أن الحريرى حرى بسان
نـكتب بالتبر مقاماته

وقد جعلها خمسين مقامة ، وأنفها عام ٥١٢ ﻫ أى قبل الفائق .

١١ — نوابغ الـكلم : فى اللغة طبع فى عصر عام ١٢٨٧ ﻫ وله شروح عديدة ، وطبع أيضا فى باريس مع ترجمة فرنسية عام ١٨٧٦ م وينقل منه فى تفسيره الـكشاف وربيع الأبرار ... يقول فى مقدمته : اللهم إن مامنحتنى به من النعم والسوابغ الهام هذه الـكلم النوابغ ، ناطقة بكل زاجرة ..... كأنى القن بها صيحفة لقمان ، وأصف بها حكمة سليمان ، ولـكن ثم آذان عن استماع الحق مبدودة ..... ثم يقول : فصل : السنة منهاجى ، ومنها أجى ، عينى تقربكم عند تقربكم ، حبذا الوادق إذا رعد ، والصادق إذا وعد ، السوقية كالـكلاب السلوقية ، رب زعمات ، سمين عزمات ، سحابة وقفت تعله ، ووكفت تحله ، الأب أعرف وأشرف والأم أر أم أرأف ...

١٢ — القصيدة البعوضية ـ وأخرى فى مسائل الغزالى ـ فى برلين .

١٣ ـ الأنموذج فى النحو : وهو مختصر المفصل وعليه شروح كثيرة وقد طبع فى إيران طبعات عديدة .

١٤ — شافى العى فى شرح كلام الامام الشافعى . يشير إلى هذا الـكتاب فى تفسيره الـكشاف[1] .

١٥ — المحاجاة فى الاحاجى والاغلوطات : ورد هكذا اسمه فى

(١) ١ : ٢٧٦ الـكشاف .

بعض النسخ وفى دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة برقم ( ٢٨ أدب ) — بعنوان كتاب المحاجاه بالمسائل النحوية لجار الله الزمخشرى ومعه كتاب المسائل الخلافية لأبى البقاء العكبرى « يقول فى مقدمة الكتاب : ثمان مسائل نحوية مسوقة فى مسالك المحاجاه فى سلوك المعاياه لا تستملى منها مسألة ألا سقطت على أملوحة من الأماليح العلمية وأفكوهة من الأفاكيه الحكمية » .

١٦ — أساس البلاغة : فى اللغة : طبع مرارا وسأخصص له بحثا مستقلا وقد ألفه بعد الكشاف .

١٧ — مقدمة الأدب : معجم عربى فارسى ، طبع فى ليبسك عام ١٨٤٣ وهو أهم معجم مزدوج يشتمل على كثير من جمل اللغة العربية وترجمتها باللغة الفارسية وقد عثر على نسخة منه بالفارسية عام ١٩٤٨ م . ولكن المعجم الذى طبع فى ليبسك ١٨٤٣ ليس معه الترجمة الخوارزمية ، والمرجح أن الفارسية لم تكن للمؤلف ، لأن الذى كتبه الزمخشرى كان باللغة الخوارزمية ، وهذا المؤلف يعتبر أهم معجم مزدوج ، إذ ، حتى الآن لم يعثر على معجم خوارزمى عربى إلا هذا المعجم[1] . وهناك رأى بأن الزمخشرى ألف كتابه بثلاث لغات : اللغة الفارسية والتركية والخوارزمية ، وقد طبعت النسخة الفارسية عام ١٨٤٢ وطبعت الخوارزمية أخيراً فى تركيا وأما النسخة الخوارزمية لم يعثر عليها حتى الآن . ويقول الزمخشرى فى مقدمة الكتاب : الحمد لله الذى فضل على جميع الالسنة لسان العرب كما فضل الكتاب المنزل به على سائر الكتب وجلالة هذا اللسان وجعل الله

---

(١) مجلة كلية الآداب : جامعة طهران عدد عام ١٣٨٦ مهرماه ومجلة مهر — من الاثار المتبقية للخوارزمية .

له من نباهة الشأن ، وأن الحاجة إليه سانحة فى الملة الإسلامية فى أنواع علومها ، وفنون آدابها ، كان — المتعاطون لاتقانه والتبحر فيه معدودين فى علماء هذه الأمة ، مذكورين فى طبقات الأئمة ، ومن صنع الله تعالى لهذه الطبقة ، أن الملوك لم تضطر سحابهم ، ولا فاضت اعطياتهم ومواهبهم على أحد فيضها على هؤلاء ، من أدبائهم وخطبائهم ومترسليهم وشعرائهم ، ولم يخل بعد انقضاء دولة الأعراب . عصرا من الأعصار من ملك فاضل جواد يرغب فيهم ويصطنعهم ويكفلهم ويكفيهم ، ويتعصب لصناعتهم ، ويحرص على تنفيق بضاعتهم والذى اصطفاه الله فى زماننا لنصرة الادب وقذف فى قلبه الرغبة فى كلام العرب الأمير الأجل الاسفهسالار بهاء الدين علاء الدولة أو المظفر انسر بن خوارزمشاه .... وقد رسم لى أمره العالى — زيد علوا — بتحرير نسخة من كتاب مقدمة الأدب لخزانة كتبه المعمورة ، ففعلت على رسمه وجعلت الكتاب مرسوما باسمه .... ثم شرح منهجه فى الكتاب مقسما إياه إل فصول وأبواب

١٨ — أعجب العجب فى شرح لامية العرب : وهو مطبوع ، يقول فى مقدمته : سبحانك اللهم وبحمدك معرب الافهام ، بقيد الافهام . . . . هذه نكتة قذفتها خوطر اخواطرى وفائدة جردتها نواظر نواظرى ، وسبك لم ينسج على منواله ، فيقال قد سبق إليه ، وزركش قد نظم بين اليواقيت فكل عالم يعرج عليه ، وغاص لها الخاطر فى بحر الأفكار . فاستخرج وردها وتاه الناظر فى فكر الأفكار ، فاستحضر صورها من كل غريبة كل حديد النظر عن تقريرها ، ومل مزيد الفكر من تدبرها ، تعبت فيه قريحة القرائح ، وتاهت فى ميادينة قانصة السوانح ، وقد اتحفت بها الخزانة السعيدية والحضرة الغربة .... وخطابى لمن نشأ غى علم الاعراب ، وحقق

فى ميادين أفكاره بالعجب فيه والاطراب ، وسرد علمى المعانى والبيان وعرف التحقيق فيهما والتبيان وطالع أساس البلاغة وعرف براعة البراعة ... الخ .

١٩ — ديوان الزمخشرى : يوجد منه نسخ خطية ومصورة فى ١١٩ لوحة بخط جيد بدار الكتب المصرية ومكتبة الاسكندرية وهو مرتب على الحروف الابجدية : يفتتح الديوان بقوله : قال : عبد الله الفقير إليه محمود بن عمر الزمخشرى رحمة الله عليه أبدا ، يحمد الله على هدايته ، لاقوم السبل ، واثنى بالصلاة على خاتم الأنبياء والرسل ، فان الذكر مضمار لحمد الله فيه قدمة المجلى ، والصلاة على مطفاه محمد قدوة المصلى .. . اتخذها ذريعتى إلى من لاأشيم إلا مخايل جوده ، ولااسيم ألا فى خمائل محموده ، ولااقتدح الا بزناد فضله ، التى لاتصلد ، ولااستجدى الأمن الأفقر إليه ، هو الأغنى ولامن الملق بين يديه هو الحظر الاسنى وأياه أسأل تحت سجوف الظلام وإليه اجأر فى ساعات النيام ، أن يقمصنى شعار التوبة النصوح ...

ومما أجل الصنع فيه أناختى
بمكة مرضيا مرارا وموردا
ولولا ابن وهاس وسابغ فضله
رعيت هشيما واستقيت مصردا

٢٠ — ربيع الابرار : فى الادب والمحاضرات يقول فى مقدمته : عبد الله الفقير إليه محمود بن عمر الزمخشرى ، ... هذا كتاب قصدت به أجمام خواطر الناظرين فى الكشاف عن حقائق التنزيل وتريح قلوبهم المتعبة باجالة الفكر ، فى استخراج ودائع علمه وخباياه ، والتنفيس عن

اذهانهم المكدودة باستيضاح غوامضه ، وخفاياه ، وأن تكون مطالعته تر فيها لمن مل،فيه فأخرجته لهم روضة مزهرة وحديقة مثمرة ، من أنس به سلى عن كل أنيس .

أن أردت السمير فياله من سمير ، وأن طلبت الخبر قد سقطت على الخبير ، وأن بغيت العظات المبكية ففيه مايشرق بالدمع اجفانك أو الملح المضحكة ففيه ماتفتر بمضاحكه أسنانك .... الخ .

ويوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطه بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٥ أدب وقد لخصه محي الدين محمد بن الخطيب قاسم (عام ٩٤٠ هـ) وسماه « روض الأخبار المنتخب من ربيع الأبرار » لخصه أخر وسماه « أنوار الربيع » وترجمه إلى اللغة التركية عاشق جلبي وقدمه إلى السلطان سليم العثماني .

هذا القدر الذى ذكرته من آثار الزمخشرى ليس هو كل ماجاء فى المعاجم ، وكشف الظنون ، بل أن هناك آثارا تنسب إليه ويصل عددها إلى خمسين مصنفا ذكرها ياقوت وابن خلكان وحاجى خليفة وغيرهم ، ولكننى لم أقصد استيعاب كل مانسب إليه بل ذكرت المتيقن أنه من تأليفه والموجود الآن فى مكتبات العالم ،والتي أجمع عليها جميع أصحاب التراجم دون أن اهتم بذكر مانسب البعض إليه ولم يجمع العلماء عليه أو لم تكن موجودة ، كرسالة الأشرار ، وعقل الكل ، وروح المسائل ، وديوان التمثيل ، ورسالة المسأمة ، وغيرها[1] ..

---

(١) معجم الادباء ـ لياقوت ج ١٩ : ص ١٣٣ ، ١٥٣ .

# الفصل الثاني

## ثقافته

كان الزمخشرى حجة فى علوم الدين والعربية ، ملما بمذاهب الكلام وفلسفة الفلاسفة ، وقضايا المنطقيين ، مع إلمامه بأصول الشريعة وفروعها ومع احاطته التامة بأسرار العربية ودقائقها ونبوغه فى شتى علومها ، من بلاغة ونحو ، وصرف ، وأدب ، ومظهر هذه الثقافة الواسعة يبدو جليا فى مؤلفاته المختلفة المنوعة ، التى جمعت بين علوم الدين وعلوم اللغة والأدب.

ولا شك أن هذه الثقافة كان مردها ، إلى ميوله ومواهبه وبيئته العلمية التي قيل فيها : قلما وجد فقيه أو لغوى لم يتخرج على أستاذ خوارزمى. وإلى شيوخه ، ومطالعته ورحلاته ، وتجاربه وإلى مجاورته فى مكة زمنا غير قصير ، حيث الألسنة فصيحة ، والملكات قوية ، والمواهب سليمة ، ومكة قلب الحجاز موطن العربية وعلومها ، وعلى الرغم من أصله الأعجمى، ومن البيئات التى درج عليها وعاش فيها وهى بيئات غير عربية فقد كان الزمخشرى حجة فى اللغة والأدب فى عصره غير مدافع .

وكل هذا كان كفيلا ، بأن ينشأ الفتى الزمخشرى نشأة عربية وأن يجعله عربى الروح ، والثقافة على الرغم من أصله وجنسيته فاذا كان أعجمى الأصل ، فقد كان عربى التفكير ، والثقافة ، والأسلوب ، ولقد تغلغلت العربية فى أعماق نفسه ، ورست جذورها فى جوانحه ، وحناياه . يقول القفطى فى كتابه أنباه الرواة : « أقام الزمخشرى برهة من الزمان بالحجاز حيث هبت على كلامه رياح البادية وورد مناهل العرب العاربة » .

وأظهر دليل على ذلك آثاره ومؤلفاته حيث لا نرى فيها مؤلفا بغير العربية ، إلا النزر واليسير ، كمقدمة الأدب .

ومهما كانت أصول ثقافة الزمخشرى واللغات التى يعرفها فقد كانت ثقافته العامة ، عربية خالصة ، من جميع نواحيها الفكرية واللغوية .

— ٢ —

ولا شك أن الزمخشرى بحكم نشأته كان يعرف اللغة الخوارزمية والتركية ، وقد ألف كتابه «مقدمة الأدب» باللغتين الخوارزمية والعربية ثم ترجم الكتاب فيما بعد إلى اللغة الفارسية وبذلك كان لهذا الكتاب ، أهمية كبيرة من حيث أنه مصدر من المصادر الوثيقة للغة الخوارزمية .

وكذلك لا شك فى أن الزمخشرى كان يعرف كذلك اللغة الفارسية ويتقنها ويقرأ الكتب المدونة بها ويلم بالثقافة الفارسية وكان فى امكانه أن يصنف بها وان لم يفعل ذلك إذ اتجه بكل طاقاته إلى اللغة العربية وثقافتها ، حتى صار علما مفردا فيها ، ولقد قال بعض الشعراء فيه :

لا تعجبوا لابن كشاف إذا برزت
منه الغرائب فى لامية العرب
بل كونه أعجمى الأصل منطبعا
يعلم اللغة الفصحاء للعرب

ويدلنا على مدى اعتزازه باللغة العربية ودفاعه عنها ، واستخفافه بالشعوبية ، وغيرهم من الذين يفكرون فى تقليل شأنها ، ما كتبه فى مقدمة كتابه « المفصل فى النحو » إذ يقول : « الله احمد على أن جعلنى من علماء العربية ، وجبلنى على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لى أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوى إلى لفيف الشعوبية وأنحاز وعصمنى من مذهبم الذى لم يجد عليهم ، إلا الرشق بألسنة اللاعنين والمشق بأسنة الطاعنين . . ثم يقول : ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من

مقدارها ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها حيث لم يجعل خيرة رسله وخيرة كتبه ، فى عجم خلقه، ولكن فى عربه لا يبعدون عن الشعوبية، منابذة للحق الأبلج وزيغا عن سواء المنهج ، والذى يقضى منه العجب حال هؤلاء ، فى قلة انصافهم وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك أنهم لا يجدون علما من العلوم الاسلامية فقهها ، وكلامها ، وعلمى تفسيرها ، وأخبارها ، الا وافتقاره إلى العربية بين لا يدفع ، ومكشوف لا يتقنع ، ويرون الكلام فى معظم أبواب أصول اللغة ، ومسائلها مبينا على علم الاعراب ، والتفاسير مشحونة بالروايات ، عن سيبويه ، والأخفش ، والكسائى ، والفراء ، وغيرهم من النحويين ، البصريين والكوفيين ، والاستظهار فى مآخذ النصوص بأقاويلهم ، والتشبث بأهداب فسرهم وتأويلهم ، وبهذا اللسان منا قلقهم فى العلم ومحاورتهم وتدريسهم ، ومناظرتهم ... الخ .

ومن هذه الكلمة ، نفهم مدى حب الزمخشرى للعربية ، ومباهاته بها ومفاخرته بأنه من أنصارها وكراهيته الشعوبية ورميه اياهم بالإنحراف عن الطريق المستقيم ، وقد رد فيها الزمخشرى ، على الذين كانوا يريدون فى عصره الاستغناء عن العربية بلغاتهم القومية ، ومرجع ذلك إلى أن العربية لغة الثقافة الاسلامية ، ولغة القرآن ، ولا غنى عنها فى شتى علوم الاسلام ، ومعارفه التى دونت بها ، وخاصة فى الفقه ، والأصول ، — والتفسير ، إذ لابد للمفسر من استعمال العربية ، والاستفادة بدلالة ألفاظه، وكذلك أصول الفقه لأنه يقوم على معرفة الكتاب والسنة ، ولا يعرف معناهما إلا بمعرفة اللغة العربية ، ولذلك جعلت العربية واتقانها شرطا فى صحة الاجتهاد ، ويعلل الزمخشرى حقد الشعوبية على العرب والعربية — على هدى ادراكه لحقائق ذلك العصر — وان النبى والكتاب لم يكونا

من أمتهم ولسانهم ويدل هذا النص ، على أن الاصطدام كان ما يزال موجودا بين الشعوبية وأنصار العربية أى بين العنصر العربى وسائر العناصر الأعجمية — وان اللغة العربية كانت اللغة الرسمية ، للدويلات المستقلة ، فى أقاليم العالم الاسلامى ، وخاصة فى أقاليم شرقى بغداد . وايران. وخوارزم وكانت كذلك لغة سجلات القضاة ولغة التدريس والعلم .

ومع تخصص الزمخشرى فى الثقافة العربية فقد كان يعرف علوما أخرى ، كعلم الجغرافيا ، والجبال والأنهار وأصول المدن وقد صنف تصنيفا يدل على سعة اطلاعه ، وطول باعه فى هذا الفن سبق أن أشرنا اليه فى ذكر آثاره وهو كتابه فى « الأمكنة والجبال والمياه » .

— ٣ —

ويصف الباحثون « الزمخشرى » بأمام عصره فى اللغة [١] وقد حاز قصب السبق ، فى البلاغة والبيان والنحو واللغة وعلوم القرآن ، وتآليفه تشهد له بطول الباع وغزارة المادة ، ومتانة الأسلوب ، وقوة التفكير والمنطق ، والحظ الكثير من العلم والعقل المجدد المطلع على شتات الفوائد والمعارف يقول القفطى :

« كان رحمه الله يضرب به المثل فى علم الأدب والنحو واللغة ، لقى الأفاضل والأكابر ، وصنف التصانيف ، فى التفسير ، وغريب الحديث والنحو وغير ذلك ودخل خراسان وورد العراق ، وما دخل بلدا إلا واجتمعوا عليه وتتلمذوا له واستفادوا منه ، وكان علامة الأدب ونسابه

---

(١) مفتاح السعادة — لطاش كبرى زاده ج ١ ص ٤٣٢ ط السعادة وفيات الاعيان — لابن خلكان — ج ٢ ص ٥٠٩ دائرة المعارف الاسلامية بمعجم الادباء — لياقوت ، نزهة الالباء — للانبارى — بغية الوعاة للسيوطى .

العرب ، أقام بخوارزم ، تضرب اليه أكباد الابل . وتحط بفنائه رحال الرجال وتحدى باسمه مطايا الامال ثم خرج منها إلى الحج وأقام برهة من الزمان فى الحجاز حتى هبت على كلامه رياح البادية وورد مناهل العرب العاربة ... وكان الزمخشرى أعلم فضلاء العجم بالعربية فى زمانه وأكثرهم أنسا واطلاعا على كتبها ، وبه ختم فضلاؤهم . وهكذا يذكره صاحب الوشاح أستاذ الدنيا فخر خوارزم جار الله أبو القاسم محمود الزمخشرى . من أكابر الأمة ، وقد ألقت اليه أطراف الأزمة ، واتفقت على اطرائه الألسنة ، وتشرفت بمكانه وزمانه الأمكنة والأزمنة ، ولم يتمكن فى دهره واحد من جلال وذائل النظم والنثر ، وصقال صوارم الأدب والشعر ، إلا بالاهتداء بنجم فضله ، والاقتداح بزند عقله ، ومن طار بقوادم الانصاف وخوافيه ، علم ان جواهر الكلام فى زماننا هذا من نثار فيه (١) .

ولقد لقى الزمخشرى فى عصره تقدير الملوك والأمراء والعلماء وأثنى عليه الناس ثناء كبيرا ، (٢) ، كتب اليه الأمير شبل الدولة أبو الهيجاء مقبل بن عطية البكرى « ختن نظام الملك الحسن بن اسحق » أبياتا يمدحه فيها ومنها :

| | | | |
|---|---|---|---|
| هـذا | أديب | فاضل | |
| | مثل | الدرارى | درره |
| زمخشرى | فاضـل | | |
| | أنجبـــــــه | | زمخشره |

---

(١) أنباة الرواة ـ للقفطى ج ٣ : ص ٢٦٦ وما بعده ط دار الكتب المصرية .

(٢) معجم الادباء لياقوت ١٩ ج/١٢٨ ، نزهة الالباء للانبارى ص ٤٨٠ .

كالبحران لم أره
فقد أتاني خبره

وهكذا يكتب إليه منتخب الدولة أبو جعفر محمد أحد امراء السلطان سنجر رسالة ، وقصيدة يثنى عليه على بن وهلس[١] ويقول السمعانى : كان يضرب به المثل فى علم الأدب والنحو[٢] ويقول ابن خلكان : وكان أمام عصره غير مدافع تشد إليه الرحال فى فنونه[٣] ،ويقول : الانبارى : كان نحويا فاضلا[٤] ويحكى ابن الانبارى رأى ابن الشجرى اللغوى فى الزمخشرى فيقول : « وقدم إلى بغداد للحج فجاءه شيخنا الشريف ابن الشجرى مهنئا له بقدومه فلما جالسه أنشده الشريف :

كانت مساءلة الركبان تخبرنى
عن أحمد بن داود أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ماسمعت
أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

ويقول عنه ياقوت : كان أماما فى التفسير والنحو واللغة والأدب واسع العلم كبير الفضل متفننا فى علوم شتى[٥]. ويقول الزمخشرى عن نفسه : .... وأنى فى خوارزم كعبة الأدب[٦] .

---

(١) أنباء الرواة ــ ج ٣ : ٢٧١ ط دار الكتب

(٢) الانساب للسمعانى ص ٢٧٧ ط ليدن .

(٣) وفيات الاعيان لابن خلكان . ج ٢ ص ١٠٧

(٤) نزهة الألباء ــ للانبارى ج ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١

(٥) معجم الادباء لياقوت ١٩ ص١٢٦

(٦) ديوان الزمخشرى ورقة ٨ .

— ٤ —

وإلى جانب تضلع الزمخشرى فى علوم اللغة والأدب كان على حظ كبير، من الاطلاع على الفقه وأصوله، وكان يوصف بالفقيه الحجة وقد ألف فى هذين العلمين مؤلفات وعندما يتحدث الزمخشرى فى تفسيره الكشاف عن مسائل فقهية تراه يعالجها بمهارة، وطول باع، وسعة أطلاع على آراء الفقهاء ويتبع الاجتهاد فى الرأى والاتباع غالبا لمذهب الحنفية[1] إذ كان حنفى المذهب، وقد ذكره الشيخ محى الدين والشيخ محمد الدين وقاسم بن قطلويغا فى طبقات الحنفية[2].

ويحصى الزمخشرى نفسه فى شعره — ثقافاته التى تفوق فيها يقول[3] :

تراني فى علم المنزل عالمـــــا
وما أنا فى علم الأحاديث راسفا
فللسنة البيضاء فى مناهــــج
ويبغى كتاب الله منى المعارفا
وما أنا من علم الديانات عاطلا
بأحسن حلى لم يزل لى شائفا
فكم قد حوت يمناى منه دفاترا
وكم قد وعت إذناى منه وظائفا

---

(١) انظر مثلا صورة الطلاق والحج من تفسير الكشاف .

(٢) طبقات قاسم بن قطلوبغا ص ٥٣ ليدن — وفيات الاعيان ، معجم الأدباء لياقوت وطبقات الحنفية ، وبغية الوعاة للسيوطى .

(٣) ديوان الزمخشرى ٧٨ ورقه .

وماللغات العرب مثلى مقوم
أبى كل ندب متقن أن يخالفا
وبى يستغيث النحو من أن يسوسه
نهى لم يجد الذائقون حصائفا
فقل أين خلى سيبويه كتابه
يقل حجر جار الله مأواى حالفا
وما فى رواة الكتب راوية له
سوى واحد فانظر فلست مصارفا
وعلما المعانى والبيان كلاهما
أزف إلى الخطاب منه وصائفا
وعلم القوافى والأعاريض شاهد
بفسحة خطوى فيه إذ كنت زاحفا
أقرت بى الآداب أصلا لها ومن
رأى مشرفيات جحدن المشادفا
وديوان منظومى يريك بدائعا
وديوان منثورى يريك طرائفا

# شخصية الزمخشرى

وهب الزمخشرى نفسه ، للثقافة والإفادة والتأليف وعاش راهبا فى محراب العلم ، منقطعا عن الحياة بمهامه العقلية ومشاغله الفكرية .

كان معروفا بحدة الذكاء ، وقوة العارضة ، وبلاغة اللهجة ، وحسن المنطق ، والقدرة فى الجدل والحجاج والمناظرة .

ولم يلهه عن حياته العلمية هذه شيء من زوج وولد وسواهما ، فقد رأينا أنه تزوج ولم يوفق فى زواجه ، فطلق زوجته دون أن ينجب أبناء وعاش وحيدا فريدا ، يؤثر ان لا يكون له نسل كما فعل أبو العلاء وغيره من قبل ، ويشرح الزمخشرى ، فلسفته فى ذلك فى أبيات من شعره فيقول :

تصفحت أولاد الرجال فلم أكد
أصادف من لايفضح الأم والأبا
رأيت أبا يشقى لتربية ابنه
ويسعى لكى يدعى مكبا ومنجبا
أراد به النشء الاغر فما درى
أيوليه حجرا أم يعلبه منكبا
أخو شقوة مازال مركب طفله
فأصبح ذاك الطفل للناس مركبا
لذاك تركت النسل واخترت سيرة
مسيحية احسن بذلك مذهبا(١)

---

(١) ديوان الزمخشرى ورقة ١٨

وقد أعرض عن لذاته فى البنين والأسرة ، بذاته فى العلم والتأليف يقول فى شعره :

وحسبي تصانيفي وحسبي رواتها
بنين بهم سيقت إلى مطالبى (١)

وكان من البديهى أن ينصحه أهله بالزواج ، وأن يلوموه على مذهبه فى الوحدة ، ولكنه عزف عن رأيهم ، وأصر على التمسك بفلسفته ويقول فى ذلك من شعره (٢) .

يموه قومى بالتنصح لومهم
وأن عناء لومهم بالتنصح
يلوموننى أنى نأيت بجانبى
عن النسل الوى عنه رأسى وأجمح

— ٢ —

وكان الزمخشرى ، حاد الطبع ، جريئا فيما يعتقد أنه الحق ، صريحا أبعد حدود الصراحة ولم يكن من عادته ، أن يجارى أو يدارى ، ولم يكن ممن يحبس عواطفه ، ويقيد انفعالاته ، حتى لا يشعر بها أحد .

أطلع مرة على كتاب « الأمثال » للميدانى فما لبث أن أخذ القلم وزاد نونا على « ميدانى » فصارت الكلمة بالفارسية « نميدانى » أى لا يعرف مؤلفه شيئا (٣) وهذا دليل على حدة الانفعال والمزاج العصبى ، وقد يكون لمرضه ، واعتداده بنفسه أثر فى ذلك .

---

(١) ديوان الزمخشرى ورقة ٩

(٢) نفس المصدر ورقه ٢٦

(٣) أنباء الرواة ـ للقفطى ٢٣٩ ، معجم الادباء بغيه الوعاة روضات الجنات .

وكان الزمخشرى شديد الاعتداد برأيه والثقة بنفسه والصلابة فيما يذهب إليه، من فكرة، كان يزور بيت شريف مكة، فاذا مااستؤذن قال: معرفا بنفسه، أنا الشيخ المعتزلى: ثم يردف ذلك بقوله: من يبرز لى، من يبرز لى[١]، وكان إذا زار صاحبا يقول: لمن يستأذن له: قل لسيدك أبو القاسم بالباب[٢]:

ولكنه كان إلى جانب ذلك متواضعا شديد التواضع جم الأدب يقول فى رسالته التى بعث بها إلى الحافظ السلفى: « ولايغرنكم قول فلان فى، فان ذلك اغترار منهم بالظاهر المموه وجهل بالباطن المشوه، ولعل الذين غرهم منى ماراوا من حسن النصح للمسلمين، فجللت فى فى عيونهم وغلطوا فى ونسبونى إلى ما لست منه فى قبيلى ولا دبير[٣].

وكثيرا ما كان يرجع للحق إذا تبين أنه الصواب فيقول: رشيد الدين الوطوط عن الزمخشرى: « وقد جرى بينى وبينه، فى حياته وأوقات راحته مما يتعلق بفنون الأدب وأقسام علوم العرب، مسائل أكثر من أن يحصى عددها، أو يستقصى آمدها، رجع فيها إلى كلامى ونزل على قضيتى وأحكامى، فالسعيد من إذا سمع الحق، سكنت شقاشق لجاجه، وسكنت صواعق حجاجه ثم يقول: « وإنما ذكرت هذا القدر اليسير ليعلم فتيان هذه الخطة، أن هذا الامام كان صبورا على مرارة الحق، وحرارة الصدق، مع أنه رب هذه البضائع وصاحب هذه الوقائع فهو مع الحق ولو على نفسه[٤].

---

(١) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٤١ ط ليدن.

(٢) معجم الادباء لياقوت ١٩ ج.

(٣) وفيات الاعيان لأبن خلكان ج٢ ٨٠١، العقد الثمين للفاسى / ٣٠

(٤) رسائل البلغاء لكرد على — ص ٢٧٨، ٢٨٠، ط ١٣٦٥

وكان مع تلك الصفات ، شديد الوفاء يعترف بفضل من أسدى إليه يدا ، وظل يذكر طول حياته بالخير والتقدير ، ابن وهاس حيث يقول فيه(١) :

وما أجل الصنع فيه أناختى
بمكة مرضيا مرادا ومورد
ولولا ابن وهاس وسابغ فضله
رعيت هشيما واستقيت مصردا

— ٢ —

وكان على حظ كبير من الفضل والتدين ، والبعد عن الشبهات والاحتياط فى الدين ، حتى لقد كان يحتاط كثيرا فى الفتيا والإجازة ويتهرب غالبا من إجازة أحد مالم يطمئن إليه ، اطمئنانا كاملا فى دينه وعلمه ودليل ذلك حكايته مع الحافظ السلفى وعدم استجازته عندما استجازه القاضى عياض ، حتى أنه كتب فى رد الزمخشرى : الحمد لله الذى لم يجعل على يدا لمبتدع أو فاسق(٢) .

وقد اضطرته ظروف الحياة إلى أن يتصل بالملوك والأمراء مادحا ومستمنحا بشعره ، كما يصنع علماء عصره ليضمنوا لأنفسهم وسائل الحياة ولينجوا من الوشايات وأثرها ومحنها البغيضة التى تعترض لها من قبل والد الزمخشرى ، ومع ذلك فطالما ، كان يضمن مدائحه للملوك أن يوفقهم الله ، لازالة الظلم والجور وأن يعم البلاد على أيديهم العدل والرفاهية(٣) .

(١) ديوان الزمخشرى ورقه ١٠ ومقدمة الديوان .
(٢) أزهار الرياض — للقاضى عياض ج ٣ : ٢٨٣
(٣) راجع مثلا ديوان الزمخشرى ورقة ١٦ .

ولما بدأ حياة العزلة عام ٥١٢ هـ أخذ على نفسه الميثاق لله ، إن من الله عليه بالشفاء «أن لا يطأ بأخمصه عتبة السلطان ولا واصل بخدمة السلطان أذياله ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم ورفع العقيرة فى المدح بين أيديهم وأن يعف عن ارتزاق أعطياتهم ، وافتراض صلاتهم مرسوما وإدرارا وتسويغا ونحو ، ويجد فى اسقاط اسمه من الديوان ومحوه ، وأن يعنف نفسه حتى تقىء ما استطعمت فى ذلك فيما خلالها فى سنى جاهليتها ، وتتقنع بقرصيها وطمريها ، وأن يعتصم بحبل التوكل ويتمسك ، يتبتل إلى ربه ، ويتنسك ويجعل مسكنه لنفسه مخيسا ويتخذه لها مخيسا ولا يريم عن قراره مالم يضطره أمر خير لا يجد الصالح بدا من توليه بحظورة ، وأن لا يدرس من العلوم التى هو بصددها إلا ماهو مهيب بدارسة إلى الهدى رادع عن مشايعة الهوى ، ومجد عليه فى علوم القراءات ، والحديث وأبواب الشرع ، من عرف منه أنه يقصد بارتياده وجه الله تعالى ويرمى به الغرض الراجح فى الدين ضاربا صفحا عمن يطلبه ليتخذه أهبة للمباهاة وآلة المنافسة[1] .

ومن أجل ذلك ، وجدنا روحه العاصفة القوية واضحة فى « أطواق الذهب » وفى « مقاماته » بما اشتملا عليه من تحطيم لسورة النفس ، وثورة على المجتمع فى عصره بما اشتمل عليه من فساد ورذائل وعلى الحكام الجائرين والملوك الظالمين .

---

(١) خطبة مقامات الزمخشرى .

— ٤ —

وقد كانت عزلة الزمخشرى وحياته الروحية فى جوار بيت الله الحرام منذ عام ٥١٢ هـ مما أكسبه ، فناءا فى الله وإيثارا للحق ، وزهدا فى الدنيا ولوما للنفس وتطلعا إلى مثل الحياة الروحية الكريمة ، ومن ثم عاش الزمخشرى متصوفا ورعا زاهدا قانعا عزوفا عن الأهواء والشهوات ، ومع ذلك فقد كان يحارب بدع المتصوفين ، وحماقات الجاهلين ممن يدعون التصوف ويلبسون الحق بالباطل فرماهم بالكذب والخداع والجهل ووصفهم بأعداء العلم والدين ، وسمى مجالس ذكرهم بالمراقص ، واتهمهم بشتى النقائص ، ففى تفسير قوله تعالى « فاتبعونى يحببكم الله »[1] يقول الزمخشرى[2] :

« فاذا رأيت من يذكر محبة الله ، ويصفق بيديه مع ذكره ويطرب وينعر ويصعق ، فلا تشك فى أنه لا يعرف ما الله ولا يدرى ما محبة الله ، وما تصفيقه ونعرته ، وصعقته إلا لأنه تصور فى نفسه الخبيثة ، صورة مستملحة معشقة فسماها الله بجهله ودعارته ، ثم صفق وطرب ونعر ، وصعق عن تصورها ، وربما رأيت المنى قد ملاء ازار ذلك المحب عند صعقته ، وحمقى العامة حواليه قد ملئوا رداءهم بالدموع لما رققهم من حاله » ...

وهكذا نراه يذكرهم الزمخشرى بعبارات الشين والتقريع فى مناسبة أخرى حيث يقول : « اما يعتقده أجهل الناس واعداهم للعلم وأمقتهم للشرع .

وأسوأهم طريقة ، وان كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهلة والسفهاء

---

(١) سورة آل عمران آيه ٣١ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣١٩ .

شيئا ، وهم الفرقة المتفعلة المفتعلة من الصوف وما يدينون به من المحبة والعشق والتغني على كراسيهم خربها الله وفى مراقصهم عطلها الله بآيات الغزل المقولة فى المردان ، الذين يسمونهم شهداء وصعقاتهم التى اين عنها صعقة موسى (١) .

— ٥ —

هل كان الزمخشرى شيعيا ؟ ؟

هذا السؤال يجول بخاطرنا عندما نمعن فى القراءة فى آثار الزمخشرى ككتابه ربيع الابرار ، ولكن قبل أن نجيب على هذا السؤال نتساءل أولا : من عسى أن يكون الشيعى الذى تقصد أن يكون الزمخشرى من جماعته ؟ يمكن أن نحدد لهذه الكلمة معنيين أحدهما : المعنى العام، وهو حب أهل البيت وتكريمهم ، لأنهم أهل البيت ولا يزيد شيئا،والمعنى الثانى: هو المعنى الخاص : الذى يزيد على ذلك أحقيتهم بالخلافة بنصوص تروى ، فلو أريد بتشيع الزمخشرى المعنى العام ، فلسنا بحاجة إلى نفى أو اثبات لأن اثباته شيء مسلم ، ولكن الذى نقصده ، هو المعنى الخاص . ومن ثم يلزمنا أن ندرس كل ما يعيننا على الاجابة عن هذا السؤال وإذا رجعنا إلى تفسيره الكشاف نجد أن الكثير مما يرجح كفة الاعتقاد بتشيعه ومن ذلك مثلا نرى . أن فى بعض النسخ المطبوعة من الكشاف ، تراه يعقب بقوله : « عليه السلام » بعد ذكر « على بن أبى طالب » وهذا مما تعارف عليه الشيعة فى تصانيفهم ، وثانيا تراه كثيرا ما يشيد بذكر فضائل أهل البيت وخاصة بالامام على ، فمثلا عند تفسير آية المباهله ، يأتى بحديث الكساء ويعقب عليه بقوله : « وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أهل

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٦٧ .

الكساء عليهم السلام [١] » وقوله فى شعره :

كثر الشك والخلاف وكل
يدعى الفوز بالصراط السوى
فاعتصامى بلا اله سواه
ثم حبى لأحمد وعلى
فاز كلب بحب أصحاب كهف
كيف أشقى بحب آل على [٢]

ونرى أمثال ذلك مبعثرا فى تفسيره وشعره ، ولكن هل هذا يكفى أن يثبت لنا انه كان شيعيا بالمعنى الذى نريده ؟ طبعا لا ... وسبب ذلك واضح ، أما كلمة « عليه السلام » فمن قال أنها مختصة بالشيعة ولم يستعملها غيرهم ، وهل إذا تعارف عليها الشيعة يستلزم عدم استعمالها عند غيرهم؟؟ وإذا كان قد استعملها هل تدل على تشيعه حقا ؟؟ على انه ربما تكون من تصرف النساخ ، حيث اننا نرى كثيرا منهم يضعون الكلمات ويحذفونها طبق أهوائهم ، وعلى فرض ذلك ، فلا يمنع أن يكون كل ذلك مجاراة لشعور ابن وهاس العلوى : أمير مكة : على أن هذه الآراء توافق ميول الزيدية ، ولا سيما إذا قلنا ان أكثر المعتزلة حينذاك كانوا يميلون اليها وان الزمخشرى كما ذكر سابقا تتلمذ على امام من أئمة الزيدية هو الامام الحاكم الجشمى .

وقد حاولت بعض المراجع الشيعية أن تنسب هذا الرجل اليهم ، وجاءت بفقرات من كتابه ربيع الابرار من أمثال الأخبار والأحاديث

---

(١) تفسير الكشاف ج ٩ ص ٣٢٧ .
(٢) معجم الادباء لياقوت — ج ١٩ ص ١٢٩ .

المروية فى فضل على وأهل البيت وذم معاوية [١] ورجع صاحب ( روضات الجنات ) إلى نص آخر ، فى الباب الثانى والخمسين : باب العدل والانصاف من كتاب « ربيع الابرار » : والذى يقرأ صيغة هذا النص والتعليق عليه ، لا يخالجه أدنى شك ، بأنه صدر عن رجل متشيع أمامى واليك نص الكلام :

« قال عليه السلام — على بن أبى طالب — لعامله :

انطلق على دعوى الله وحده ، لا شريك له ، ولا ترد عن مسلما وتجتازون عليهم ولا تأخذن منه أكثر من حق الله فى ماله ... إلى آخر الخطبة » فيعلق المؤلف على هذا بقوله : قلت : « أنظر إلى هذا البون البائن والتفاوت المتباين ، فان فيه عبرة لمعتبر ودليلا لمتفكر هذا أمير المؤمنين وسيد المسلمين ، ووصى رسول رب العالمين يأمر فى الصدقة بهذه الأوامر — ويكلها إلى رب المال ، من غير اجبار ولا اكراه ولا استحلاف على صحة دعواه ، وهذا أبو بكر رضى الله عنه ، قاتل على منعها وسفك الدماء ، وسبى النساء ، واسترق الذرية ، وسمى مانعيها مرتدين ، افاتباع أمير المؤمنين وسيد الوصيين وابن عم رسول رب العالمين ، ومن تثبت عصمته ووجبت على الأمة طاعته ، ونص رسول الله على امامته أولى أم اتباع من جوز على نفسه الخطأ ... الخ [٢]

وعندما نقرأ هذا النص الصريح لا يخالجنا أدنى شك ، فى أن كاتبه كان شيعيا ومتعصبا ولكن علينا أن ندرس هذا النص لنرى مدى قيمته وصلاحيته من حيث الصحة والفساد .

---

(١) روضات الجنات — لمحمد باقر الخوانسارى — ص ٧٢١ ط طهران .

(٢) ربيع الابرار — للزمخشرى — الباب الثانى والخمسين مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٥ أدب .

فنقول :

أولا : يستبعد جدا أنه ألبس على الزمخشرى الظروف التى أحاطت بأبى بكر وعلى حتى يأتى ويقارن هذا بذاك ، وهل الزمخشرى كان يجهل التاريخ إلى هذا المدى ؟؟

ثانيا : إذا أمعنا فى كتاب « ربيع الابرار » وتفحصنا أسلوبه ، لا نجد مثل هذا الأسلوب من الكلام فى أى موضع من مواضع الكتاب مع أن المناسبات كانت كثيرة لكى يكرر الزمخشرى مثل ذلك بنصه أو بأسلوب آخر فى ثنايا فصول كتابه .

ثالثا : ومن الناحية الشكلية فهذا التعليق المذكور نقل من نسخة خطية بدار الكتب رقم ١٥٥ مجهولة التاريخ والناسخ ولا نجد هذا التعليق فى نسخة رقم ٥١١٢ وبالمقارنة بين النسختين لا نجد حذفا من الكتاب ، ولكن أمامنا المجال لنشك فى أن فى الكتاب زيادة حدثت وان الناسخ كان شيعيا وبتأثير نزعته زاد هذا الكلام عليه ، فاذا ما رأينا هذه الظاهرة فى بعض آثاره فهى ليست حجة على تشيعه ، بل انها دليل على انه كان رجلا محايدا ومن كل ما ذكرناه من آراء وحجج يتبين لنا ضعف ما يذهب اليه البعض من نسبة الزمخشرى إلى الشيعة ، خاصة وان مدينة خوارزم كانت سنية وكان أهلها كذلك ، يغلب عليهم هذه النزعة السنية.

* * *

# الفصل الرابع

# اعتزاله وأثره فى تفكيره

أخذ الزمخشرى نزعة الاعتزال من أستاذه محمود بن جرير الضبى الاصفهانى ( م ٥٠٧ هـ بمرو )[١] وقد قدم خوارزم وكان أول من نشر بها مذهب المعتزلة ، حتى غلبت هذه النزعة عليها فصار الزمخشرى يعدها، من رأس فضائل خوارزم[٢] ،وكان الضبى ، كثير الايادى على الزمخشرى فى أيام محنته حتى ، ليقول جار الله فى بعض قصائده يمدح نظام الملك الطوسى ( ٤٨٥ هـ ) :

إليك نظام الملك شكواى فاستمع
إلى بث مجذوذ المعايش ضنكها
طريح خطوب كل يوم تنوبه
بأينقها تنحى عليه ببركها
ولو لم يل الضبى عنى عراكها
لغالت يد البلوى اديمى بعركها[٣]

وكذلك تأثر الزمخشرى أيضا باستاذه الثانى الحاكم العلامة أبو سعد المحسن الجشمى الزيدى المعتزلى ومن ثم نرى فى تفسيره الكشاف وفى كتابه ربيع الابرار كثيرا من مذاهب وآراء المعتزلة .

---

(١) يقول السيوطى فى بغية الوعاة ص ٣٨٧ ط أولى : كان الضبى وحيد دهره وفريد عصره فى اللغة والنحو والطب وكان يضرب به الامثال فى فنون الفضائل وتخرج على يده جماعة من علماء اللغة والنحو وهو الذى أدخل الى خوارزم مذهب الاعتزال ونشره بها .

(٢) ربيع الابرار للزمخشرى .

(٣) ديوان الزمخشرى ورقة ٩١ .

وقد دافع الزمخشري عن عقيدته الاعتزالية دفاع المؤمن بها في كثير من كتبه، وخاصة الكشاف وكان يجاهر بقوله : أنا الشيخ المعتزلي من يبرز لي، من يبرز لي، وقد عاش معتزا باعتزاليته منافحا عنها بكل قواه، لايدع فرصة تمر دون أن ينال مغمزا من خصومه، يهاجمهم بأعنف القول ويسميهم : بالمشبهة – والمجبرة – والحشوية[١] وأمثال ذلك[٢] وربما تعدى ذلك إلى الرمي بالخروج عن الاسلام فيقول : أن من ذهب إلى تشبيه أو مايؤدي إليه كاجازة الرؤية أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور لم يكن على دين الله الذي هو الاسلام[٣]، وهذا مع علمنا بأنه يسمى المعتزلة بعلماء العدل والتوحيد .

وكان خصوم المعتزلة يشنون الحملات على الزمخشري كلما سنحت لهم فرصة، كما فعل ابن المنير الاسكندراني في تعليقاته على الكشاف، وبيان المواضع الاعتزالية(٤) فيه وقد هجا الشعراء من خصوم المعتزلة الزمخشري في قصائد ومن ذلك :

وجماعة كفروا برؤية ربهم
هذا ووعد الله ماأن يخلفه
وتلقبوا عداية قلنا أجل
عدلوا بربهم فحسبهم سفه

---

(١) تفسير الكشاف ص ١٣٥ ج ٢

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٩٤ : ١ / ٣١٥

(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣١٥ ، ٣١٤

(٤) تفسير الكشاف تعليقات ابن المنير الاسكندراني ج ٢ ص ٨٤ ، ٨٧

وقال أبو على السكونى الأصولى :

نطق الكتاب وانت تنطق بالهوى
فهوى الهوى بك فى المهاوى المتلفة

وقال القاضى أبو عبد الله محمد بن محمد بن على التونسى :

وأتى الأخير الغمر من إتباعهم
يبغى الحجاج معرضا بالبلكفة
أعنى الخوارزمى والصلف الذى
لم يتأد من جهله بالمعرفة
بل تاه فى نيد الجهالة معرضا
كحمار وحش فى مهامه(١) متلفة

وممن هاجموا الزمخشرى القاضى عياض صاحب أزهار الرياض عند ذكر الحافظ السلفى، إذ يتطرق للزمخشرى والمعتزلة فيقول « وإنما أوردت ذلك من رسالة الحافظ للزمخشرى مع ما فى بعضه من الغلو وعدم التأدب من الشرع فى بعض الألفاظ ، كى تعلم فضل أهل السنة حيث انتصروا على هؤلاء بالدليل والبرهان وحطموا رأسهم ورأس شيعتهم بالحجارة(٢) والمالكى فى تعلقاته على الكشاف لا يسعه أن ينكر فضل الزمخشرى فى ابداعه ، وإظهاره اعجاز القرآن فيعبر عنه بقوله ، : هذا من محاسن نكته الدالة على أن كان مليا بالحذاقة فى علم البيان(٣) » وخصوم الزمخشرى مع ذلك ، لم ينكروا تبحره فى كنوز البلاغة القرآنية

---

(١) أزهار الرياض — للقاضى عياض — ج ٢ : س ٢٨٣ ، ٢٩٤

(٢) نفس المصدر

(٣) تفسير الكشاف — تعليقات ابن المنير — ج ١ : س ١١٢

فترى يحيى بن منصور التونسى يشبه فى حين أنه معجب به فى قوله :

عجبا لحبر فى البلاغه ذائق
على الفصاحة فرده ومؤلفه
جمع المعانى والبيان مكشفـــا
أسرار قرآن بأكمل معرفة
وأضاه الله العظيم فزاغ عن
سنن الصواب وحاد عنه وحرفه[1]

ويأتى آخر فيعجب بتفسيره واعجازه ويعترف بأنه أول تفسير يبين بلاغة القرآن فيرى لزاما على من يريد أن يظفر باعجاز القرآن أن يقرأ هذا التفسير ولكن بشىء من الحذر والاحتياط كى لايتأثر بما جاء فيه من البدع فتفسد عقائده ، فيشترط عليه أولا أن تكون عقائده ثابتة وثانيا أن يكون له حظ كثير من هذا الفن[2] .

— ٢ —

والمعتزلة من أهم الفرق الدينية الإسلامية وكانت لها فلسفة واضحة وتفكير خاص وتنسب فى نشأتها إلى واصل بن عطاء أحد تلاميذ الحسن البصرى ، إذ ناقش أستاذه يوما فى مسألة المنزلة بين المنزلين — فيما إذا اخطأ العبد بارتكاب الكبيرة هل يمكن أن يقال عنه أنه مؤمن أولا ؟ فقال استاذه اعتزلنا واصل — إذ كان واصل يعتقد بأنه ليس ذلك

---

(١) ازدهار الرياض ـ للقاضى عياض — ج ٣ : ص ٢٩٠

(٢) تاريخ ابن خلكان ج ١ : ص ٤٨٦ ط بولاق

الرجل بكافر ولامؤمن وهو معنى المنزلة بين المنزلتين[١] ثم أطلق على تابعى وأصل المعتزلة[٢] وهم أول مانشئوا من القدرية — التي كانت لاتقول بالقدر خيره وشره وباختيار العبد فى أفعاله ليعاقب عليها ويثاب ، ثم عندما ظهر واصل وعمرو بن عبيد من تلامذة الحسن البصرى وسعا مجال القدرية ، ونقلاها إلى مرحلة جديدة فأسسا مذهب الاعتزال المعروف الذى ، تلتقى حول أصوله المعتزلة بجميع فرقها .

وأصول مذهب الاعتزال هى[٣] :

١ — القول بالتوحيد : وفسروه تفسيرا خاصا من حيث الصفات الثبوتية والسلبية فى ذاته ، وأن صفاته عين ذاته وأنه لا يرى بالأبصار لافى الدنيا ولافى الآخرة[٤] .

٢ — القول بالعدل :وأن الله لايظلم أحدا ، ولا يفعل القبيح ، وقالوا بخلاف ماقالته الاشاعرة ، فانهم لمانفوا الحسن والقبح العقليين ، قالوا : ليس الحسن الاماحسنه الشرع ، وليس القبيح الاماقبحه الشرع وأن الله لوأدخل المطيع النار ، والعاصى الجنة لم يرتكب فعلا قبيحا .

لأنه لايسأل عما يفعل ولكن المعتزلة الذين سموا أنفسهم « العدلية » ادعوا أن الحكم الفيصل فى تلك النظريات هو العقل مستقلا ، ولاسبيل لحكم الشرع والعقل يستقل بحسن بعض الأفعال كالصدق ، وقبح الآخر كالكذب ، ويحكم بأن القبيح محال على الله لأنه حكيم وفعل القبيح مناف

---

(١) المنية والامل فى شرح الملل والنحل ـ لاحمد بن يحيى المرتضى ص ٦

(٢) الانتصار ـ لابن الخياط ص ١٢٦ ـ الملل والنحل ـ الشهرستانى

(٣) المنية والأمل ـ للمرتضى ص ٦

(٤) نفس المصدر السابق

للحكمة ، وأنه لا يهيء أسباب الظلم ، فجعل العباد أحرارا ، فى أفعالهم إذ أنها منسوبة إليهم[١].

٣ — الوعد والوعيد أى أن الله صادق فى وعده ووعيده لامبدل لكلماته — فلا يغفر الكبيرة الا بعد التوبة .

٤ — المنزلة بين المنزلتين : وقد أشرنا إليه سابقا[٢] .

٥ — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

هذه أصول أجمعت عليها المعتزلة واعتنقوها كمبدأ أساسى لمذهبهم، حتى أن الخياط ليقول فى كتابه « الانتصار » : « وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة ، التوحيد والعدل ، الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين . والأمر بالمعروف فهو معتزلى[٣] » . ولقد ذكر المرتضى ما اجمعت عليه المعتزلة بقوله[٤] « اجمعت المعتزلة على أن للعالم محدثا قديما قادرا عالماً ، حيا ، لالمعان ، ليس بجسم ، ولاعرض ولاجوهر ، غنيا واحدا ، لايدرك بحاسة ، عدلا حكيما ، لايفعل القبيح ، ولايريده كلف ، تعريضا للثواب ، ومكن من الفعل وازاح العلة ، ولابد من الجزاء ، وذهبت المعتزلة أيضا إلى وجوب البعثة حيث حسنت، ولابد للرسول من شرع جديد أو إحياء مندرس ، أو فائدة لم تحصل من غيره ، وأن آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم — والقرآن معجزة له : وأن الإيمان قول ومعرفة وعمل واجمعوا على تولى الصحابة ، واختلفوا فى

(١) المنية والامل ٦ ، الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٣٢ رسائل الجاحظ ص ١٥ ، ٩٧

(٢) تفسير الكشاف ج ١ / ص ٢٠٧

(٣) الانتصار لابن الخياط — ص ١٢٦ تحقيق الدكتور نيبرج ط دار الكتب عام ١٩٢٥ .

(٤) المنية والامل فى شرح الملل والنحل — لاحمد بن يحيى المرتضى ص ٦ .

عثمان(١) .

وقد تأثر المعتزلة فى أفكارهم بآراء الجهمية ، وكانت طريقا إلى فتح باب التأويل ،وسلوك المجاز فى مسائل التوحيد وتفسير القرآن ولقد كان هذا الباب مقفلا قبلها لا يطرقه أحد ولا يخطر له ، ثم درج المعتزلة على أثر الجهمية(٢) .

وكانوا يحاولون بهذه الفلسفة الجديدة تأويل آيات الصفات والتنزيه البحت الخالص ، وذاتية الصفات لله تعالى وخلق القرآن ، ونفى الجهة عن البارى(٣) فكانت هذه الأفكار بمنزلة اعتراض العقل على الأحكام والمقررات المحدودة الضيقة النطاق ، فانهم من هذه الناحية يعتبرون ، من دعاة التحرر العقلى والروحى فى الأمة الإسلامية ، فبينما كانت الأفكار حول أفعال البشر تدور فى إطار ضيق ، حطموا هذا القيد ، وقالوا بحرية الانسان فى أفعاله ، ونفوا الظلم عن الله .

ويرى المستشرق ادواردج براون — أن العراق كان موالد ومرتع هذه الفرقه(٤) ولكن يخالفه فى ذلك « المستشرق فون كريمر » حيث يرى أن نشأتهم كانت فى دمشق وتأثروا بآراء المتأليهين البيزنطيين وخاصة يحيي الدمشقى(٥) ويعتقد « فون كريمر » أن فكرة حرية الارادة التى قال بها معبد الجهنى ( م ٨٠ هـ ٦٩٩ م ) الذى قتل بأمر عبد الملك الأموى ٦٥—

---

(١) المنية والأمل فى شرح الملل والنحل — لاحمد بن يحيى المرتضى ص ٦

(٢) تاريخ الجهمية والمعتزلة — للقاسم الدمشقى — ص ١٤ ط المنار

(٣) تاريخ الجهمية — للقاسمى الدمشقى — ص ٩٤ ط المنار

(٤) تاريخ الأدب الايرانى لادوارد . ج بروان . ص ٤١٣ ط طهران

(٥) نفس المرجع السابق

٨٦ هـ / ٦٨٥ — ٧٠٥ م) أو الحجاج بن يوسف — قد أذاعها فى دمشق[1] — ويقول العوفى : «أن هشام بن عبد الملك أمر بقتل « غيلان القدرى» فى دمشق ، بجريمة نشر فكرة التفويض وحرية الارادة[2] .

لقد كانت المعتزلة فى ابتداء امرها طائفة دينية لاشأن لها بالسياسة مع عكس ما كانت عليه الخوارج والشيعة والمرجئة ، إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمارها فتكلمت فى الأمامة وشروطها وذهبت إلى أن الأمة هى التى تختار الأمام سواء كان قرشيا أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك وأن الله لم ينص على رجل بعينه وقد ذهب إلى هذا المذهب المعتزلة بأسرها وجماعة من الزيدية والخوارج والاباضية الا النجدات من فرق الخوارج .

قال جولد تسهر — عن علاقة الشيعة بالمعتزلة مما هو جدير بالملاحظة أن طوائف الشيعة برغم تشعبها قد سادت فيها مبادىء المعتزلة فى كثير من المسائل ولاسيما مالم يتأثر منها بعقيدة الأمام أو المهدى ، فقد استطاع فقهاء الشيعة وعلماء التوحيد منهم أن يستفيدوا من أفكار المعتزلة ويستخدموها لدعم عقائدهم الخاصة وهذا يدل على أن الشيعة آثروا أن يسموا أنفسهم أهل العدل ويظهر التشابه بين المعتزلة والشيعة فيما يدعيه من أن هؤلاء أن عليا والأئمة من آل بيته هم أول من قالوا بحرية الارادة وأن المعتزلة لم يزيدوا شيئا أكثر من شرحهم ، وهكذا تأثر الشيعة والمعتزلة بعضهم ببعض فى عقيدتهم القائلة أن الامام المنتظر سوف يظهر ويملأ الأرض قسطا وعدلا وهذا هو ماتقوله للزيدية أيضا وقد نسبت

---

(١) تاريخ اداب إيران — لادوارد براون. ج ص ٤١٤ ، ٤١٥ ط طهران

(٢) جامع الحكايات — للعوفى — باب أحوال الخلفاء الامويين ط طهران

المعتزلة عقائدها إلى علي بن أبي طالب وأعوانه مؤسسي الاعتزال وعلم الكلام وذكروا الامام عليا في الطبقة الأولى من طبقاتهم وفي الطبقة الثانية الحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي[١] .

ولاشك أنه كانت عقيدة الاعتزال وعقيدة التشيع الكلامي تسير، حينذاك في أكثر الأحيان في مجال واحد، وأما مسألة التأثير والتأثر التي أشار إليها — جولدزمير — يمكن أن تكون من قبيل تأثر الملتان بمعلول واحد ومشابه ولا تكون هناك تأثير وتأثر، وإن كان هناك نقاط يختلفون بعضهم مع بعض، فنرى المعتزلة تقول: « بالتفويض والاشاعرة بالجبر والشيعة تقول بأنه لاجبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين[٢] . وقد رأينا المعتزلة تصل إلى ذروتها في عصر المأمون[٣] ووقعت الخلافة تحت نفوذهم وسلطانهم الفكري، حتى أن المأمون ( ١٩٨ — ٢١٨ — ٨١٣ — ٨٣٣ م ) أرغم العلماء بأن يساندوا ويؤيدوا فكرة خلق القرآن .وقد كتب إلى اسحق بن إبراهيم يقول : أن أي واحد من العلماء لا يؤيد هذا الرأي يعذب وقد ذاق العذاب والحبس والتنكيل أربعة وعشرون من أبرز العلماء منهم أحمد بن حنبل ( م ٢٤١ هـ ) فصدقوا وأيدوا الرأي إلا ابن حنبل ويحدثنا الطبري وأبو الفداء بأن المأمون أمر عامله ببغداد وهو حين ذلك اسحق ابن إبراهيم أن يمتحن القضاه والعلماء والشهود وكانوا يرغمون

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي والدين والعرف الاجتماعي للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ١٨٤ ج ١ .

(٢) الباب الحادي عشر للعلامة الحلي — العراق، عقائد الصدوق ط طهران .

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٠٩٩ .

على القول بعدم روية الله فى القيامة[١] .

ومع ذلك كله لا يسعنا إلا أن نطاطىء رؤوسنا لهؤلاء — المعتزلة اجلالا وإكبارا لخدمات كبرى أسدوها للفكر العربى والثقافة الإسلامية إذ وسعوا افقها وخدموا بآرائهم مجتمعها لأن الجمود الفكرى وعدم الانتقال من دائرة الألفاظ كان معناه تضييق نطاق الدين وجعله جامدا غير مؤثرا فى الحياة حسب مصالح الزمان والمكان ، وطبعا هذا مما لا يتفق مع سماحة الدين وكانت من آراء المعتزلة حربا لاهوادة فيها على أفكار التجسيم والحلول وغيرها وقد صقلت أراء المعتزله الأفكار الإسلامية وهذبتها ، واعطتها روحا جديدا إذ اعطوا العقل مكانه ممتازة وجعلوه نبراسا لهداية البشر ومصباحا فى ظلام الطريق وفيصلا فى كل شىء وقد استخدموا العقل فى إستدلالاتهم وآرائهم الفلسفية والكلامية ، وكان الهدف الأسمى لذلك تنزيه البارى عن الشبهات وعما لا يليق به تعالى ولحاجة المعتزلة للجدل احيوا المنطق اليونانى ، واستخدموا قضاياه وحججه فى الدفاع عن آرائهم وتأثرت بتلك الطريقة العلوم الإسلامية بل تأثر بها كذلك ، الأدب شعره ونثره على حد سواء .

وقد اختلف المستشرقان « فون كريمر » وزميله « اشتاينر » فى مدى تأثر المعتزلة بالأفكار الخارجية التى وفدت إلى العقل الإسلامى من الكتب المترجمة عن اليونان فذهب « اشتاينر » إلى أن المعتزلة فى مراحلها الأولية كانت مستقلة وبعيدة عن أى تأثير خارجى . ولكنهم استمدوا قدرتهم العقلية بعد عصر الترجمة ـ عهد المنصور والمأمون — من كتب الطبيعة

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ـ ٤ ص ١٥٢٣ ـ تاريخ أبى الفداء ـ ج ٢ ـ ص ٣٠ . ط الأولى تبيين ، كذب المفترى لابن عساكر ص ١١٦ ، وراجع ظهر الاسلام ج ٤ على ـ وضحى الاسلام ج ٢ ـ لاحمد أمين ـ ط ٥٥ ـ ١٩٥٧ .

والفلسفة اليونانية ، واستخرجوا منها أفكارا[١] اعتزالية ويقول زميله « فون كريمر » أن أفكارهم كانت واقعة تحت نفوذ أفكار المسيحية البيزنطية فى دمشق[٢] .

والذى يمكننا أن نذهب إليه فى هذا الصدد هو أنه بلا شك وبعد ترجمة الثقافات الأجنبية قد قرأ المعتزلة الكتب المترجمة وخاصة المنطق والفلسفة والطبيعة واستفادوا منها، لأن هذا النحو من التفكير والاستدلال المنطقى الدقيق الواسع، والبحث عن العرض والجوهر والمادة وسواها لم يكن مألوفا فى صدر الإسلام . فطعّم المعتزلة أقوالهم وأفكارهم بما استفادوا من الثقافات الأجنبية واستخرجوا عنها أفكارا إسلامية جديدة ، وإن لبست ثوب المنطق اليونانى[٣] .

— ٣ —

هذا هو مذهب الاعتزال وأصوله الذى استحال أيضا إلى فرق عديدة من مثل النظامية والجاحظية : وغيرها وقد استمر صدى الاعتزال قويا مرددا بعد ما بلغه من سلطان ونفوذ فى عهد المأمون ولقد حاربت الهيئات الإسلامية الاعتزال بعد عصر المأمون ، ومع ذلك ظل المعتزلة على رأيهم من المجاهرة برأيهم والدفاع عنه ، وكان ظهور الزمخشرى فى القرنين

---

(١) تاريخ الاداب لايرانى — لادوار براون — ج ص ٤٢٥ ط طهران

(٢) المرجع السابق ص ٤٩٣ ، ٤٠٨ .

(٣) راجع عقائد المعتزلة وأصولها فى مقالات الاسلاميين للامام الاشعرى ج ص ٢١٠ وما بعدها الطبعة الأولى .

والخامس السادس الهجرى من أقوى الأسباب فى عودة الاعتزال إلى الحياة العقلية الإسلامية من جديد مرة أخرى .

ويدافع الزمخشرى عن أصول الاعتزال فى كتبه وتفسيره خاصة ـ هذه الأصول التى سبق أن عرضنا لها وأشرنا إليها .

وقد يقف الزمخشرى فى بعض الأحيان ، موقفا وسطا بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، وهذا من النادر ومن مثل ذلك ، ما كتبه فى تفسير الآية الكريمة « أن تعذبهم فانهم عبادك وأن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم[1] » حيث يقول : « فان قلت . المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال « وإن تغفر لهم » قلت : ما قال أنك تغفر لهم ولكنه بنى الكلام على إن غفرت ، فقال أن عذبتهم عدلت لأنهم احقاء بالعذاب وإن غفرت لهم مع كفرهم ، ولم تعم فى المغفرة وجه حكمة لأن المغفرة حسنة ، لكل مجرم فى المعقول ، بل حتى لو كان المجرم أعظم جرما ، كان العفو عنه أحسن ويعلق على هذا ابن الاسكندرانى فيقول : تذبذب الزمخشرى فى هذا الموضع ، فلا إلى أهل السنة ولا إلى القدرية « المعتزلة » ويفيض فى شرح ذلك وبيان أن العفو عن المجرم ، لا يأتلف لقواعد السنة ، ولا يأتلف أيضا كما يقول : بنزعات القدرية[2]

— ٤ —

لقد كان الاعتزال ذا أثر كبير فى تفكير الزمخشرى وآرائه فهو

(١) سورة المائدة آية ١١٨ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٤٩٣ : ط الحلبى .

قد ألزم نفسه من جهة السير على منهج المعتزلة العقائدى ، وهو من جهة أخرى قد دون أصول الاعتزال فى مؤلفاته وخاصة تفسيره ، وهو من جهة ثالثة : قد جعل هدفه الدفاع عن نزعة الاعتزال وتأييد آراء المعتزلة فى أكثر من مؤلف من مؤلفاته .

وسوف نعرض لأثر الاعتزال الفكرى فى تفسيره ، عند حديثنا فى الكشاف فى القسم الثانى من الرسالة .

* * *

# القسم الثانى

## فكرة الزمخشرى اللغوى والأدبى

# الباب الأول

# الفصل الأول

# مواهبه فى اللغة
# وعلومها

## تمهيد

— ١ —

ذاعت شهرة الزمخشرى فى اللغة وعلومها ، وكان إماما فيها ، وعلما يحج اليه طلابها ، ومرجعا للباحثين والدارسين فى شتى الفروع ، من متن اللغة ، والنحو ، والصرف ، والاشتقاق وعلم القراءات ، وسنفصل الكلام على ذلك فى هذا المجال .

— ٢ —

**الزمخشرى اللغوى :**

١ — أما جهوده فى متن اللغة ، وتحقيق مفرداتها فيشهد به ما ألفه فى ذلك ، من نفائس الآثار ، مثل : « الأساس » و « الفائق » وسواهما ، وسنخصص لدراسة هذا الجانب« الباب الثانى من القسم الثانى من البحث».

ولا شك أن نبوغ الزمخشرى اللغوى كان مدينا لعوامل كثيرة ، فى مقدمتها : تلمذته على أئمة اللغة العربية فى خوارزم ، وبخارى، وخراسان، وفى مقدمتهم « أبو جرير الضبى الأصفهانى » و « أبو منصور الجواليقى » وسواهما ومنها ، كذلك : طموحه بأن يبلغ مبلغ أئمة اللغة الكبار الذين نبغوا فيهـا من علماء خوارزم وما جاورهـا من الأقطـار ، كالجوهرى ، والميدانى ، والأزهرى وسواهم ..

وقد أخذ الزمخشرى نفسه أول اقباله على اللغة العربية ، بقراءة كتب أئمة اللغة وأعلامها ، كالخليل وسيبويه ، وابن دريد ، وأبى على الفارسى، والزجاج ، والرمانى وسواهم .. حيث أكب على مطالعتها ، وتعمق فى فهمها ، وأفاد منها ثقافته اللغوية الواسعة ، ورأى فى المامه بذلك خير معين

له على ما يريده لنفسه، من تفوق فى فهم كلام العرب وبلاغتهم، وفهم القرآن وإعجازه، ثم نجد لرحلات الزمخشرى ولقاءه العلماء وتلمذته عليهم فى كل مكان، ومناظرته للأدباء والشعراء، وسماعه لمختلف اللهجات، والبلاغات، والفصاحات أثرا كبيرا فى هذه الثقافة اللغوية الواسعة.

وإقامة الزمخشرى فى مكة، ورحلاته فى أنحاء الجزيرة العربية، وفى البادية، والحضر ولقاؤه للأعراب ولرواة اللغة، وسماعه اللهجات العربية فى أنحاء الجزيرة العربية (١) شماليها وجنوبيها، كان له أثر ضخم فى عظمة ثقافته اللغوية، وإمامته فيها. وكان الزمخشرى على نهج اللغويين الأوائل يسمعون من العرب ويتأثرون بذلك فى تفسيرهم لكلام الله، ولقد رأيناه يطوف بأنحاء أرض العرب، وكان أيضا ذا حاسة لغوية دقيقة تفرق بين لفظة ولفظة وكلمة وكلمة، وحرف وحرف.

٢ — والزمخشرى يقف مع أئمة اللغة وفحولها فى طبقة واحدة، وشهرته اللغوية أكبر من أن تجحد، وإذا ما ذكرنا الخليل، وابن دريد، والأزهرى، والجوهرى، وابن جنى، وسواهم من أئمة أعلام اللغة،

---

(١) يقول فى مادة (هش الورق): أن معناها خبطه ومعنى قوله تعالى «وأهش بها على غنمى» أى اخبط على رؤوس غنمى، وعن لقمان بن عاد: أكلت حقا وابن لبون وجذع وهشة تخب وسيلا دفم «سمعته من غير واحد من العرب» تفسير الكشاف ج ٢: ص ٢٩٨ ط الحلبى» ويقول فى الكشاف ج ٢: ص ١٢٨ «سمعت أهل السروات بمكة يقولون فى دعائهم: يا سيدى ويا مولى، ويقول فى الكشاف كذلك ج ١: ص ٨٨: «عن نافع وقاسم أنهما وقفا على «لا ريب» من آية ٢: سورة البقرة «ولا بد للواقف من أن ينوى خبرا، ونظيره قوله تعالى: قالوا لا ضير وقول العرب. لا بأس» وهذه كثيرة فى لسان أهل الحجاز والتقدير لا ريب فيه ويقول الزمخشرى فى موضع آخر من الكشاف ج ٣/ص ٢٥٧ وأنشدنى بعض العرب.

فلا شك اننا نذكر معهم الزمخشرى وجهوده اللغوية الكبيرة التى كانت أكبر خدمة لمتن اللغة العربية ومفرداتها .

ولقد خدم الزمخشرى ـ وهو ممن ولدوا ونشأوا فى بيئات غير عربية ـ اللغه العربية خدمات صادقة تذكر دائما بالتقدير والاعجاب والاعتزاز من الباحثين ، والمنصفين على مرور الأيام .

٣ ـ وفى « الأساس » و « الفائق » جهود كبيرة كان للزمخشرى الفضل فى الظفر بها ، فى سبيل خدمة لغة القرآن .

ولقد شهد للزمخشرى، بالتقوى فى المعجم اللغوى كتابه « الأساس »(١) الذى يدل على ثقافة واسعة كان الزمخشرى يميل اليها من عنفوان شبابه ، وكان يقبل عليها متعلما ومستفيدا وقارئا ودارسا حتى نبغ فيها وتفوق فى جوانبها تفوقا قلما وجد لأحد من معاصريه . ومنهجه فى تحقيق الأوضاع اللغوية فى ( الأساس ) وغيره ان يذكر أولا المعنى الحقيقى للكلمة الذى وضع له اللفظ أولا ثم يذكر ما وضع له اللفظ ثانيا من معنى آخر يناسب الأول وهذا منهجه فى تحقيق الأوضاع الأصلية ، وبيان مناسبات المعانى اللغوية ، بعضها مع بعض ، مع كون اللفظ حقيقة لغوية فى كل منها .

والكشاف له منزلة كبيرة عند علماء اللغة وعلماء التفسير ولقد كان مرجعا المفسرين وبحرا يغرفون من منهله ، رجع اليه كثيرون منهم السيوطى، وابن كثير فى تفسيره ، والبيضاوى ، وأبو حيان ، وكذلك فعل المفسر الطبرسى الذى لخص الكشاف وعلق عليه وتأثر ببعض آرائه وأفكاره ، وخاصة فى تفسيره ( مجمع البيان ) وسنعرض لذلك بشىء من التفصيل عند

---

(١) اختصره ابن حجر فى كتابه ( غراس الأساس ) ، وكذلك فعل المناوى ( م ٩٣١ ) فى كتابه ( أحكام الأساس ) .

بحثنا عن الكشاف ، ويجهد الزمخشري نفسه في ( كشافه ) في تعقب مفردات القرآن الكريم ، والحديث عنها حديثا واسعا ، وزنتها بأمثالها من المشتقات ، واستنباط معانيها ، بالرجوع كثيرا إلى مصادرها وأصولها اللغوية ونظائرها وأشباهها في الاشتقاق .

وفي « أطواق الذهب » و « مقامات الزمخشري » تجيء المادة اللغوية، فيها سهلة ، طيعة ، مفيدة للناشئين الذين يقبلون على دراسة لغات العرب ، فهما وان قصد بهما أولا الأسلوب والمعنى والموضوع إلا أنه لا شك أن تعليم المادة اللغوية ، وتسهيل تراكيب اللغة أمام الناشئين ان كان قصدا مقصودا للزمخشري منها كما كان يقصده كتاب المقامات ، من أمثال البديع ، والحريري ومن لف لفهما .

٤ — وأما رأى الزمخشري في اللغة هل هي اصطلاح أو توقيف ، فهو كرأى المعتزلة اضراب الفارسي ، وابن جني ، الذين يذهبون إلى انها اصطلاح (١) إذ ان ذلك مما يخدم رأى المعتزلة من ناحية وفي العدل والتوحيد أو حرية الارادة ، من ناحية أخرى ، إلى أن هذا الرأى كذلك يخدم اللغة العربية من جانب — الاتساع اللغوى — إذ يجوز المعتزلة القلب (٢). ويرون أن اللفظ المشترك - وهو الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة واحدة — ممكن الوقوع لجواز أن يقع من واضعين، بأن يضع أحدهما لفظا لمعنى ثم يضعه الآخر لمعنى آخر . ويشتهر ذلك اللفظ بين الطائفتين في افادة المعنيين وممن ذهب إلى ذلك ابن جني المعتزلي وأما أهل السنة ومنهم ابن فارس فيذهبون إلى أن اللغة توقيف .

---

(١) راجع المزهر للسيوطي ج ١ : ص ٨ وما بعدها ط ١٩٥٨ ، الخصائص لابن جني ج ١ : ص ٤٧ ط ١٩٥٢ .

(٢) راجع المزهر للسيوطي ج ١ : ص ٤٧٦ ط ١٩٥٩

ومن التوسع اللغوى الذى يذهب اليه المعتزلة اجازة الاستشهاد ، بشعر المحدثين الذى يذهب اليه الزمخشرى وغيره (١) ويقول السيوطى: « ووقع فى كلام الزمخشرى وغيره الاستشهاد بشعر أبى تمام وسواه من المحدثين ، وقال اما ابن جنى فيذهب إلى ان الاستشهاد بشعر المولدين فى المعانى ، كما يستشهد بشعر العرب فى الألفاظ (٢) .

ومن باب التوسع اللغوى تقسيم المعتزلة اللغة إلى حقيقة ومجاز ويضيف الزمخشرى فيجعل الكلام العربى قد يكون، مبنياً على التحقيق وقد يكون مبنيا على التخييل وذلك عند تفسيره للاية : إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ) (٣) . والمعتزلة يذهبون ان التجوز فى اللغة أكثر وأعم ، يقول :المرتضى، وليس يجب أن تأخذ العرب بالتحقيق فى كلامها فان تجوزها واستعارتها أكثر (٤) ، ويقول ابن جنى :واعلم ان اكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة (٥) .

وينفى « الاسفرايينى » رهو من الأشعرية ، المجاز فى لغة العرب (٦) وينفى ذالك عنه امام الحرمين والغزالى (٧) ولهذه الأصول أثر كبير فى آراء الزمخشرى فى التوسع اللغوى (٨) ومن باب التوسع اللغوى أيضا ترى

---

(١) راجع الكشاف ج ١ : ص ١٧٠ ط الحلبى .
(٢) الخصائص لابن جنى — ج ١ : ص ١٤ ط ١٩٥١ م
(٣) الكشاف ج ٢ ص ٥٢ ، ٣ ، ٥ ط الحلبى .
(٤) امالى — السيد المرتضى — ج ٢ : ص ٢٦ .
(٥) المزهر — للسيوطى — ج ١ : ص ٣٥٧ ط ١٩٥٨ .
(٦) المزهر — السيوطى — ج ١ ص ٣٦١ ط ٥٨ ،
(٧) المرجع السابق.
(٨) منهج الزمخشرى فى التفسير — مصطفى الجوينى — ص ٢٤٢ .

المعتزلة ومنهم ابن جنى والزمخشرى ان لغات العرب كلها حجة [١] .

٥ ــ سيذهب العلماء إلى انه لا يحتج بكلام المولدين والمتحدثين فى اللغة العربية [٢] ويخالفهم الزمخشرى فيستثنى من ذلك أئمة اللغة العربية ، داعيا إلى جعل الوثوق بكلامهم كالوثوق برواياتهم وهو رأى له وزنه ـ وقيمته .

ويروى الزمخشرى فى تفسيره شعرا لحبيب بن اوس ويقول [٣] : ( وهو وان كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة ، فهو من علماء العربية ، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، الا ترى إلى قول العلماء « الدليل عليه بيت الحماسة » فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته واتقانه [٤] ويستشهد أيضا بشعر المعرى [٥] وبكلام أعرابى أمام الرشيد [٦] وبشعر عضد الدولة الديلمى ( فناخسرو ) [٧] — ويتخلى هذه القاعدة أحيانا فيستشهد بشعر الجن [٨] وبغيره [٩] ، ويستدل الزمخشرى كثيرا بالقول المأثور وخاصة فى تفسيره [١٠] ، ويجعل للتوسع اللغوى مجالا كبيرا فى اللغة وهو أهم من المجاز وكذلك المجاز بأقسامه .

---

(١) راجع الكشاف ج ١ ص ٧٧ ط الحلبى ، الخصائص لابن جنى ج ٢ : ص ١٠ ط ٩٥٢ المزهر للسيوطى ج ١ : ص ٢٥٧ ط ٥٨ .

(٢) الاقتراح للسيوطى ص ٣١ ط حيدر أباد ١٣٤٠ هند .

(٣) تفسير الكشاف ج ١ : ص ١٧٠ ط الحلبى .

(٤) تفسير الكشاف ج ١ : ص ١٧٠ .

(٥) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٣٢٨ .

(٦) تفسير الكشاف ج ٣ : ص ١٨٣ .

(٧) تفسير الكشاف ج ٣ . ص ٢٦٥ .

(٨) شواهد الكشاف ص ٥٣ .

(٩) يكثر الاستشهاد ويقول : « الحسن البصرى » راجع مثلا تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢١٥ .

(١٠) راجع الكشاف ج ٣ : ص ١٢٦ .

— ٣ —

**الزمخشرى النحوى :**

( ا ) تفوق الزمخشرى على علماء عصره فى أصول النحو وفروعه ، وطارت شهرته كامام من أئمة النحو والعربية فى عصره ، ورجع اليه المستفيدون والدارسون فى مسائلها .

والزمخشرى الكثير من المؤلفات المشهورة فى النحو ، ومنها « المفصل » و « الإنموذج » و « المحاكاة » وسواها مما سبق أن أشرنا اليها ، ولا تزال هذه الكتب مصادر مهمة فى بحوث النحو .

(ب) وقد درس الزمخشرى النحو على فحول العلماء فى عصره وهاجر إلى بلاد كثيرة ، ليلقى بها علماء النحو وأئمته ، وفى رحلته إلى مكة قرأ « الكتاب لسيبويه » على عبد الله اليابرى ، وفى خوارزم تتلمذ على أبى مضر ، وفى بغداد حضر مجالس الجواليقى ، وسواهم من أئمة اللغة والنحو ، الذين أفاد منهم وتأثر بهم فى الكثير من آرائه النحوية واجتهاداته فى مختلف أبواب النحو ، الذى نبغ الزمخشرى وظهرت عبقريته فيه ، حتى لقد أصبح مطمح أنظار العلماء فى هذا الميدان ، فأقبلوا عليه للاستفادة من محاضراته وحلقات دروسه وأصبحت اراؤه فى النحو موضوع اهتمام العلماء والباحثين يقبلون على تفهمها ، لاهجين بالثناء عليه والتنويه به . وكانت كتبه تدرس فى مدارس النحو فى العالم الاسلامى القديم ، وبلغ من شهرتها وأهميتها ، فى هذا المضمار ان الملك عيسى الأيوبى خصص مائة دينار جائزة لمن يحفظ المفصل [١] وقد اهتم الشارحون بكتبه النحوية فشرحوها وعلقوا [٢] عليها ورجع العلماء إلى آرائه ، والذين كتبوا عن الزمخشرى

---

(١) و (٢) راجع كشف الظنون فى كلامه على « المفصل » .

يصفونه ، بأستاذ زمانه وأفضل أهل عصره فى علوم اللغة ، ويصفونه بجودة القريحة وحدة الذكاء ، وكان يضرب به المثل فى النحو واللغة (١) .

وقد نوه « ابن يعيش » فى شرحه على « المفصل » بهذا الكتاب فقال : « لما كان الكشاف الموسوم بالمفصل من تأليف العلامة أبى القاسم الزمخشرى رحمه الله جليلا قدره ، نابها ذكره ، قد جمعت أصول هذا العلم فصوله ، وأوجز لفظه ، فتيسر على الطالب تحصيله ... » استخرت الله فى املاء كتاب أشرح فيه مشكلة وأوضح مجمله واتبع كل حكم منه حججه وعلله (٢) .

( ج ) ويؤكد الزمخشرى فى مقدمته لكتاب المفصل ان سائر العلوم الاسلامية ، من فقه ، وتوحيد ، وتفسير وغيرها ، مفتقر إلى النحو ، فى تفهمه ، والالمام به ، ويقول : ان معظم أبواب أصول الفقه ومسائله مبنية على علم الاعراب . وان التفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه ، والاخفش والكسائى ، والفراء ، وغيرهم من البصريين والكوفيين .

وقد جعل الزمخشرى النحو خادما لتفسير كلام الله ومبينا لمعانيه ، وموضحا لأغراضه ، كما يراه هو وهذا مما يتضح بجلاء فى كتابه « الكشاف » فهو يرجح اعرابا على اعراب ، ويحمل الأسلوب على وجه دون وجه ، متى كان فى ذلك ما يبين المعنى المقصود ، ويكشفه ويوضحه ، ويخضع كل ذلك لاثبات آرائه الاعتزالية ، كما سنوضح ذلك عند بحثنا عن تفسيره ، وهو لا يضيق ذرعا فى تفسيره بالاجتهاد اللغوى ، فيبيح القياس ويجيز التأويل اللغوى والتضمين الذى أجازه من سبقوه ، وقد يمر ببعض الوجوه النحوية

---

(١) انباه الرواة « للقفطى » ج ٣ ص ٢٦٥ ط دار الكتب المصرية .

(٢) مقدمة المفصل « شرح ابن يعيش » .

التى يذكرها المفسرون فى اعراب كلام الله ، من الكرام موكدا أن صون القرآن عن مثل هذا التعسف واجب [١] :

وبذلك يجعل للنحو وظيفة معنوية هى الابانة عن معانى الكلام ووجوه فهمه .

ويضفى على النحو أهمية خاصة فى تفهم القرآن وجوانب بلاغته حيث يقول فى مقدمة تفسيره الكشاف : « ان من يريد ان يخوض هذا الميدان - تفسير القرآن - يشترط عليه أولا أن يكون قد برع فى علمى المعانى والبيان وأن يكون فارسا فى علم الاعراب ويكون له حظ وافر منه ، مقدما فى معرفة كتاب سيبويه على حملته [٢] .

( د ) وللزمخشرى كثير من الآراء والمذاهب فى النحو سواء من ناحية أصوله أم فروعه ، وكتابه « المفصل » خير شاهد على ذلك بما حوى من آراء دقيقة ومسائل عويصة .

وهذه طائفة من آراء الزمخشرى واجتهاده فى النحو :

١ — يرى الكوفيون فى ( إذا — المفجأة ) مثل : قوله تعالى : فاذا هى حية تسعى» [٣] ، انها حرف ، وكذلك ذهب الاخفش وابن مالك ، ويرى المبرد ، والفارسى وابن جنى وأبو بكر الخياط ، وابن عصفور أنها ظرف مكان ، ويميل الرياشى ، والزجاج ، والزمخشرى وابن طاهر إلى انها ظرف زمان [٤] .

٢ — الحق الزمخشرى « بانما المكسورة » « إنما المفتوحة » فقال

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٥٩٨ « سورة الصافات آية ٥ » .

(٢) مقدمة تفسير الكشاف .

(٣) فى آية ٢٠ سورة طه .

(٤) همع الهوامع « للسيوطى » ج ١ : ص ٢٠٧ .

انها تفيد الحصر ، لأنها فرعها ؛ وما ثبت للاصل ثبت الفرع وقد اجتمعا فى قوله تعالى «إنما يوحى إلى إنما إلهكم اله واحد» فالأولى لقصر الصفة على الموصوف ، والثانية بالعكس » .

وقال أبو حيان : هذا الشيء انفرد به ، وقد وافق البيضاوى الزمخشرى ؛ وكذلك التنوخى فى « الأقصى القريب » ولم يتعرض لها سواهم [1] .

٣ — يجعل الزمخشرى من أخوات « صار » الفعلين « غدا » و « راح » بمعنى « صار » أو بمعنى وقع فعله وقت الغدو والرواح، ويلحق بصار كذلك « قعد » وجعل منه الزمخشرى قوله تعالى « فتقعد مذموما [2] .

٤ — يقول الزمخشرى فى سبب بناء « الآن » انه هو وقوعه فى أول أحواله بالألف واللام ، لأن حق الاسم فى أول أحواله التجرد منها ، ثم يعرض تعريفه ، فيلحقه ، فلما وقع « الآن » فى أول أحواله بالألف واللام خالف الأسماء وأشبه الحروف . ويرده ابن مالك ، بلزوم بناء مثل ( الجماء الغفير ) و ( اللات ) ونحوهما ، مما وقع فى أول أحواله بالألف واللام ، وبأنه لو كانت مخالفة الاسم لسائر الأسماء موجبة لشبه الحرف واستحقاقه البناء لوجب بناء كل اسم خالف الأسماء بوزن أو غيره ، وهو باطل باجماع وقال ابن مالك : انما بنى ( الآن ) لشبه الحرف فى ملازمة لفظ واحد ، لأنه لا يثنى ولا يجمع ولا يصغر، بخلاف ( حين ) و ( وقت ) ، ( زمان ) ومدة قال أبو حيان وهو مردود بما رد به هو على الزمخشرى [3] .

---

(١) همع الهوامع « للسيوطى » ح ١ ص ١٤٤ .

(٢) من آية ٢٩ من سورة الاسراء ، راجع همع الهوامع ج ٢ ص ١١٢ .

(٣) راجع شرح المفصل لابن يعيش ح ٣ ص ١٠٣ ، همع الهوامع للسيوطى ج ١ ص ٢٠٨ .

٥ — يقسم الزمخشرى الجملة إلى أربعة اضرب فعلية، واسمية، وشرطية، وظرفية، ويعلق ابن يعيش على هذا فيقول : ان هذه قسمة أبى على الفارسى، وهى قسمة لفظية وهى فى الحقيقة ضربان ، فعلية واسمية لأن الشرطية فى التحقيق مركبة من جملتين فعليتين الشرط فعل وفاعل والجزاء فعل وفاعل والظرف فى الحقيقة للخبر الذى هو ( استقر ) وهو فعل وفاعل [1].

٦ — يجيز النحويون وقوع ( أن المفسرة ) بعد لفظ القول ولم يقتصروا بها على ما فى معناه ، فيجوز على هذا القول وقوعها تفسيرا لفعل القول ، وقد أبى الزمخشرى ( فى المفصل ) وقوعها إلا بعد فعل فى معنى القول ، قال : ( واما ان المفسرة فلا تأتى إلا بعد فعل فى معنى القول ) وقد عرض فى الكشاف لذلك عند تفسيره لقوله تعالى ( ان أعبدوا الله ربى وربكم )[2] حيث قال : يحمل فعل القول على معناه لأن معنى ما قلت لهم الا ما أمرتنى به ما أمرتهم به ( الا ما أمرتنى به حتى يستقيم تفسيره بان اعبدوا الله ربى وربكم [3].

٧ — لم يفرق الزمخشرى فى ( المفصل ) بين عطف البيان والبدل[4] اللهم إلا فى مثل قول المرار الأسدى ( انا ابن التارك البكرى بشر ) حيث خفض ( بشر ) عطف بيان على البكرى ولو جعله بدلا لزم تكرار العامل واضافة اسم الفاعل المعرف بالألف واللام الى العلم فلم يفصل بينهما الا فى هذا المثال ، لأنه من حيث المعنى المعتمد فى عطف البيان الإول ، واما

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش ح ١ ص ٨٨ .

(٢) آية ١١٧ سورة المائدة .

(٣) تفسير الكشاف ح ٣ ص ٤٦٢ ، شرح المفصل لابن يعيش ح ٨ ص ١٤١ .

(٤) شرح المفصل لابن يعيش ح ٣ ص ٧١ .

الثانى فللتوضيح ، والمعتمد فى البدل الثانى، وأما الأول فبساط لذكره لا على أنه مطرح مهدر .

٨ — وليس هناك باب من أبواب النحو يخلو من رأى للزمخشرى فى تفصيل وجه على وجه أو فى الذهاب إلى رأى ينفرد به ، دون غيره من علماء النحو ويطول بنا المقام لو حاولنا استقصاء آرائه فى شتى أبواب النحو بابا ، بابا ، والموازنة بينه وبين غيره من علماء النحو فيما ذهب إليه .

٩ — ولاشك أن الزمخشرى كان بعد عصر مذاهب النحو ، من المذهب البصرى والكوفى — والبغدادى والأندلسى ، وكان كثيرا ما يرجع إلى آراء شتى من هذه المذاهب ، يأخذ منهـــا مايراه اوفق وأقرب إلى رأيه .

١٠ — وكان الزمخشرى يؤمن بالقياس فى النحو سالكا نهج سيبويه والفراء والفارسى والرمانى وابن جنى وآرائهم فى هذه السبيل التى سار عليها أغلب المعتزلة ، الذين ذهبوا إلى جواز القياس فى اللغة وفى علم النحو فوضعوا له أصولا تشبه أصول الفقه وتكلموا فى الاجتهاد فيه كما تكلم الفقهاء[١] .

* * *

**الزمخشرى وعلم الاشتقاق :**

١ — الاشتقاق : أخذ كلمة من كلمة أو أكثر ، مع تناسب بين المأخوذ والمأخوذ منه فى اللفظ والمعنى وينقسم إلى صغير ، وكبير ، وأكبر .

( أ ) فالاشتقاق الصغير : انتزاع كلمة من كلمه، بتغير فى الصيغة مع

---

(١) كتاب أصول النحو — لسعيد الافغانى — ص ٢٩٢ ، ٩٤ ط دمشق .

تشابه بينهما فى المعنى ، واتفاق فى الأحرف الأصلية وفى ترتيبها مثل: ضرب ويضرب واضرب وضارب ومضروب .

( ب ) والكبير هو انتزاع كلمة من كلمة بتغيير فى ترتيب بعض أحرفها مع تشابه بينهما فى المعنى واتفاق فى الأحرف مثل : الكم ، وكلم وملك وكال ويسمى قلبا .

( ج ) والأكبر أن يكون بين الكلمتين تناسب فى المعنى واتفاق فى الأحرف السابقة وتناسب فى مخرج الأحرف المتغيرة ، مثل عنوان، وعلوان، ونهق ونعق ، . وفى كلام اللغويين مايشير إلى عدم اشتراط تناسب المخرج كما يتضح فى مثل هديل وهدير ، ومثل صريز وصريف .

( د ) أما الاشتقاق الكبار فقد زاده بعضهم مريدا به مايسمى بالنحت ، مثل عبشمى : مشتقا من عبد شمس[1] .

ويعرف الزمخشرى الاشتقاق بقوله : معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعدا فى معنى واحد[2] ويعلق على ذلك السيد الجرجانى فيقول: لم يرد بما ذكره تحديد معنى الاشتقاق بل أراد أن الاشتراك فى المعنى كاف فى اثبات الاشتقاق .

٢ — وكان الزمخشرى قد برع ونبغ فى علم الاشتقاق وفى الكشاف و « الأساس » وغيرها ولوج للكثير من مباحثه ، وأهم مسائله ، وطبق ماسبق أن طبقه ابن جنى وأبو على الفارسى وسواهما ، من فروعه على مفردات اللغة وألفاظها وقد سمع الزمخشرى مسائل الاشتقاق من أساتذته

---

( ١ ) الخصائص لابن جنى ج ١ : ص ١٤٤ ، مجلة المجمع اللغوى العربية ١/ ٢٨٣ ، المزهر للسيوطى ج : ص ٤٨٢ — ط ١٩٥٨ أصول النحو لسعيد الافغانى ص ١٢١ .

( ٢ ) تفسير الكشاف ج : ١ ص ٣٣ ط الحلبى .

وقرأ ما كتبه العلماء فى مثل الاصمعى ( م ٢١٦ م ) والاخفش ( ٢٢١ م م ) والمبرد ( م ١٨٥ هـ ) والزجاج ( م ٣١١ هـ ) وابن خالوية ( ٣٧٠ هـ ) والرمانى ( م ٣٨٤ هـ ) وابن جنى ( م ٣٩٢ هـ ) وسواهم .

٣ — وعلماء النحو يختلفون فى مصدر الاشتقاق فالبصريون يذهبون إلى أن المصدر أصل الفعل والكوفيين يرون أن المصدر مشتق من الفعل وفرع عليه (١) ، ويروى « ولفنسون » فى كتابه تاريخ اللغات السامية (٢) ان المصدر أصل فى الاشتقاق عند الاريين ومنهم الايرانيون والفعل أصل الاشتقاق فى اللغات السامية .

ومذهب الزمخشرى فى ذلك هو مذهب البصريين فيرى ان المصدر هو أصل الفعل ومشتمل على معناه ولذلك قال فى كتابه « الأنموذج فى المصدر »: ويعمل عمل فعله أى الفعل المشتق منه (٣) .

ويقول الزمخشرى فى المفعول المطلق : هو المصدر لأن الفعل يصدر عنه (٤) . ويشرح ذلك ابن يعيش فيقول : اعلم ان الأفعال مشتقة من المصادر وذهب الكوفيين إلى أن الأفعال هى الأصل والمصادر مشتق منها (٥) .

٤ — والاشتقاق الصغير عند الزمخشرى مسلم به كاشتقاق عالم ومعلوم من العلم مثلا ، وفى الكشاف يجعل الزمخشرى اشتقاق القدير من التقدير

---

(١) راجع الانصاف لابن الانبارى ـ ح ١ : ص ١٤٤ وما بعدها .

(٢) تاريخ اللغات السامية ص ١٤ ط ١٩٢٩

(٣) راجع شرح الأنموذج للاردبيلى فى القسم الخامس عشر من الأسماء ص ٢٤٩ ط طهران ضمن مجموعة

(٤) شرح المفصل لابن يعيش ـ ج ١ : ص ١٠٩

(٥) المرجع السابق ج ١ . ص ١١٠

لأنه يوقع فعله على مقدار قوته واستطاعه وما يتميز عن العاجز ، ولعله لم يرد به الاشتقاق المعروف انما أراد أن بين الكلمتين مناسبة واتصالا فاذا اشتمل المزيد على معنى المجرد وزيادة جعل له أصلا : كالقدير من التقدير والوجه من المواجهة ، فالمراد من الاشتقاق هنا الاشتقاق اللغوى ، بمعنى الأخذ ، لا الاشتقاق الاصطلاحى الذى نعنى به الاشتقاق الصغير .

فالزمخشرى يجعل المجرد مأخوذا أحيانا من المزيد إذا كان المزيد أعرف بالمعنى المشترك ترجيحا لجانب المعنى على جانب اللفظ ، ويرى الشهاب فى حاشيته على البيضاوى : ان المراد جعل اللفظ مشتقا من أشهر مواده لا من المزيد كما اصطلح عليه علماء التصريف (١) وقد يحتمل ان يراد ان القدير والتقدير ، يتلاقيان فى الاشتقاق من ( ق ، د ، ر ) لكنه عدل الى لفظ ( التقدير ) لاشتهاره بالمعنى المقصود دون لفظ القدرة(٢) ، وهذا ترجيح جانب المعنى على جانب اللفظ — أيضا من باب التوسع اللغوى ، ومن مثل ذلك ما يذهب اليه الزمخشرى من أن أصل رعد ، الارتعاد ، ويدل ذلك على أنه يرد المجرد إلى المزيد إذا كان المزيد أعرف بالمعنى الذى اعتبر فى الاشتقاق (٣) ومن ذلك أيضا ما يقول الزمخشرى من أن الغيبة من الاغتياب (٤) كالغيلة من الاغتيال .

٥ — اما الاشتقاق الكبير ، فقد عرض له الزمخشرى كثيرا فى

---

(١) راجع شرح الشهاب على « البيضاوى » ج ١ : ص ٤١٦
(٢) راجع شرح الكشاف للسيد الجرجانى — ج ١ : ص ١٧٣
(٣) شرح الكشاف للسيد الجرجانى ج ١ : ص ١٦٦
(٤) تفسير الكشاف للزمخشرى — ج ١ : ص ١٥٥

الكشاف وغيره من كتبه يقول فى الكشاف [١] : « الحمد والمدح اخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل » .

ويعلق على ذلك السيد / الجرجانى فيقول: يستعمل الزمخشرى الأخوة فيما بين لفظين يتلاقيان فى الاشتقاق الكبير أو الأكبر ، أما الكبير فان يشتركا فى الحروف الاصول من غير ترتيب مع اتحاد فى المعنى أو تناسب فيه ، كالجذب، والجبذ ، والحمد ، والمدح واما الأكبر فبان يشتركا فى أكثر تلك الحروف فقط ويتناسبا لا فى الباقى مع الاتحاد أو التناسب فى المعنى كأله ووله ، وكالفلق ، والفلج .

ومن أمثلته كذلك ما ذكره الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : لتلفتنا عما وجدنا عليه اباءنا [٢] ، قال الزمخشرى : اللفت والفتل اخوان، ومطاوعهما الالتفات والانفتال [٣] .

٦ — واما الاشتقاق الأكبر فأمثلته كثيرة ذكره الزمخشرى فى تفسيره ومن مثل ذلك ما ذكره فى تفسير قوله تعالى ( وأولئك هم المفلحون ) [٤] ، قال : المفلح بالحاء المهملة الفائز بالبغية كأن الذى انفتحت له وجوه الظفر ، ولم تستغلق عليه ، والمفلج بالجيم مثله ، ومنه قولهم للمطلقة: استفلحى بأمرك بالحاء والجيم والتركيب دال على معنى الشق والفتح ، وكذلك اخواته فى الفاء والعين نحو فلق، وفلى [٥] ، وفى مثل ذلك أيضا [٦]

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشرى — ح ١ : ص٣٧

(٢) من آية ٧٨ سورة يونس

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٨٣ آية

(٤) من آية ٥ سورة البقرة

(٥) تفسير الكشاف ج ١ : ص ١١٤

(٦) تفسير الكشاف ج ١ : ص١٠٩

اتفق الشيء : وأنفده اخوان ، أي بينهما الاشتقاق الأكبر لاشتراكهما في أصل المعنى وأكثر حروف الأصول مع التوافق في الباقي. وعن يعقوب: نفق الشيء ونفد واحد وكل ما جاء مما فاؤه نون وعينه فاء « فدال على الخروج والذهاب .

ويقول الزمخشري في « الأساس » : المال نافد ، وانفدوا ما عندهم واستنفدوه وانفد القوم زادهم ، ويقول في مادة « نفق.» : انفق الدراهم وانفقتها كقولك نفدت وانفدتها .

كذلك من أمثلته هذا المثال قال الزمخشري : « الختم والكتم اخوان لأن في الاستيثاق من الشيء يضرب الخاتم عليه كتما له وتغطية [١] ويعلق « السيد الجرجاني » على ذلك فيقول « انهما متشاركان في العين واللام ومتناسبان في المعنى، ومن مثل ذلك أيضا : العياذ ، واللياذ، يقول الزمخشري انهما من واد واحد [٢] ، ويقول في موضع آخر ان عذت ولذت: اخوان [٣] . ومن مثل ذلك أيضا القاسي والقاسح اخوان في الدلالة على اليبس والصلابة [٤] . ومن مثل ذلك أيضا ان « اله » معناه تحير ودهش ومن اخواته ، وله وعلة ، قال الزمخشري : انه ينتظمهما معنى التحير والدهشة ، وذلك ان الأوهام تتحير في معرفة المعبود ، وتدهش الفطن [٥] ويقول السيد شريف الجرجاني : انه ربما بريد بهذا الكلام تحديد معنى الاشتقاق وهو ان

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ : ص ١٩ ،
(٢) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٢٢٠
(٣) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٥٠
(٤) تفسير الكشاف تفسير قوله تعالى ( وجعلنا قلوبهم قاسية ) سورة المائدة آية ١٣
(٥) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٣٢

الاشتراك فى المعنى كاف فى اثبات اشتقاق الاله من اله ، فقول الزمخشرى ان وله وعلة من اخوات اله ، اشارة إلى الاشتقاق الأكبر فى أثناء بيان الاشتقاق الصغير (١) وهو ، اشتقاق الاله من اله ، أى « عبد ، أو من استأله » أى استعبد أو من تأله ، أى تعبد » .

ومن مثاله أيضا ما ذكره الزمخشرى من أن القاب ، والقيب والقاد ، والقيد ، والقيس ، كلها بمعنى المقدار (٢) .

٧ ـ وهكذا تجد الزمخشرى قد أفاض فى ذكر الاشتقاق ، وأمثلته ، مما يدل على مزيد تبحر فيه والالمام به والاطلاع على أصوله وفروعه .

ويمكن الاطلاع على بحوث علماء اللغة فى الاشتقاق وآراء الزمخشرى فيه ، فى كثير من كتب اللغة ومن أهم كتب فقه اللغة الخصائص لابن جنى (٣) والمزهر للسيوطى (٤) وسواهما .

**الزمخشرى وعلم الصرف :**

١ ـ تحدث الزمخشرى فى الأنموذج و « المفصل » عن مسائل علم الصرف بتفصيل وافاضة ، ففى الجزء الرابع من شرح المفصل ( لابن يعيش) ذكر التثنية ، فى الجزء الخامس وذكر الجمع بأقسامه ، والتصغير والنسب، وفى الجزء السادس ذكر المشتق من المصدر واسم الفاعل ، واسم المفعول والصفة المشبهة ، وافعل التفضيل ، واسم الزمان والمكان واسم الآلة ، وذكر كذلك المجرد وابنيته ، وفى السابع ذكر التعجب ونعم وبأس

---

(١) المرجع السابق
(٢) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ١٧٦
(٣) راجع الخصائص ـ لابن جنى
(٤) راجع المزهر ـ للسيوطى

وأوزان الفعل الثلاثى والرباعى ، وفى الجزء التاسع ذكر الامالة والوقف ، وهاء السكت واحكام التقاء الساكنين ، وهمزة الوصل ، والمزيد ، وفى العاشر ، ذكر الابدال والاعلال والادغام .

٢ — ويؤكد الزمخشرى كثيرا « ان زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، ومن مثل ذلك ما ذكره فى الكشاف من ان فى الرحمن من المبالغة ما ليس فى الرحيم [١] . ومن مثل ذلك ما ذكره ، فى تفسير قوله تعالى ( ان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ) [٢] حيث قال : فان قلت : لم قيل مما نزلنا على لفظ التنزيل بدون الانزال قلت : لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم وهو من محازه لمكان التحدى . ويقول أبو حيان فى رد كلام الزمخشرى : ( والذى قاله الزمخشرى فى تضعيف عين الكلمة هو الذى يعبر عنه بالتكثير أى أن يفعل ذلك مرة بعد مره ، فيدل على هذا المعنى بالتضعيف ويعبر عنه بالكثرة ، وذهل الزمخشرى عن ان ذلك انما يكون غالبا فى الأفعال التى تكون قبل التضعيف متعدية نحو جرحت زيدا وفتحت الباب ، لا يقال جلس زيد ولا قعد عمرو ونزلنا لم يكن متعديا قبل التضعيف وانما كان لازماً وتعديه إنما يفيده التضعيف - والهمزة ، وان جاء فى لازم فهو قليل ، قالوا : مات المال وموّت المال ، إذا كثر ذلك فيه ، وأيضا فالتضعيف الذى يراد به التكثير انما يدل على كثرة وقوع الفعل اما ان يجعل اللازم متعديا فلا ، ونزلنا قبل التضعيف لم يكن متعديا فيكون التعدى المستفاد من التضعيف دليلا على أنه للنقل لا للتكثير ، إذ لو كان للتكثير وقد دخل على اللازم بقى لازما نحو مات المال وموت

(١) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٣٤ .
(٢) تفسير الكشاف ج ١ : ص ١٨٤ آية ٢٣ سورة البقرة .

المال ، وأيضا . فلو كان التضعيف فى نزل دليلا للتنجيم لاحتاج قوله تعالى ( لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ) إلى تأويل لأن التضعيف دال على التنجيم والتكثير وقوله ( جملة واحدة ) ينافى ذلك [١] .

٣ ـ وللزمخشرى بعض الآراء التى يستدرك بها على علماء الصرف، أو يزيد على ما ذكروه شيئا أو ينقد فيها كلامهم ... ومن مثل ذلك ما ذكره السيوطى فى ( المزهر ) نقلا عن ابن خالويه : قال ابن خالويه فى كتاب ( ليس ) : لم يجمع على فعال ، الا نحو عشرة أحرف ، عرق وهو اللحم على العظام ، وعراق ، ورخل ، من أولاد الضأن ورخال ، وشاه ، وربى ورباب ، وتوأم وتوام ، وفرير وفرار ، ولد الظبية ، ونذل ونذال ، ورذل ورذال ، وثنى وثناء ، وبسط وبساط فحصل من مجموع ما ذكره ثلاث عشر كلمة ، وزاد الزمخشرى فى أبيات له « عرام » وهو بمعنى العراق ونظم فى ذلك أبياتا فقال :

ما سمعنا كلما غير ثمان
من جمع وهى فى الوزن فعال
فرباب وفرار وتوام
وعرام وعراق ورخال
وظؤار جمع ظئر وبساط
جمع بسط : هكذا فيما يقال [٢]

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ لأبى حيان ـ ج ١ فى تفسير الاية انا نزلنا من سورة البقرة

(٢) المزهر ـ للسيوطى ـ ج ٢ ص ٧٢ ط الحلبى ١٩٥٨ والظاهر ان الصحيح نسبته الى صدر الأفاضل ـ المعروف بخليفة الزمخشرى كما نبه عليه الشهاب الخفاجى فى شرح درة الغواص للوهم ٨٤ .

٤ - وهكذا نرى ان المصادر الثلاثية سماعية عند سيبويه ولكن الزمخشري يرى انها قياسية لكثرتها [١] .

٥ ــ ومن آرائه واستنباطاته أيضا ما يذكره بمعنى المصحاة فيقول وكأنها مفعلة من الصحو على سبيل التفاؤل وحقها أن تسمى مسكرة لأن المعاقرين يكرهون اسراع السكر ويؤثرون أن يتطاول لهم الصحو [٢] .

وجملة الأمر ان الزمخشري كما تفوق في اللغة والنحو والاشتقاق وفروعها ، كذلك كان متفوقا في علم الصرف متبحرا فيه واقفا على أصوله وفروعه ، ويطول بنا الحديث لو بحثنا شتى أبواب الصرف بابا بابا ووازنا بين أقوال علماء الصرف فيها ، وما وافقهم الزمخشري فيه ، أو استدرك عليهم من مسائله .

**الزمخشري وعلم القراءات :**

١ ــ أكثر الزمخشري في تفسيره من ذكر وجوه القراءات والاستدلال بها ، على معاني ألفاظ وأساليب الكتاب الحكيم ، وعلى نقد وجوه من معاني الآيات مما ألم به المفسرون ، ويدل ما ذكره الزمخشري في الكشاف على تبحره في علم القراءات وتفوقه فيه واحتفاله به ، ويستعين بذلك كله : على تفسير كتاب الله وتبيين معانيه وتوضيح خافيه ، ويكثر من ترجيح قراءة على قراءة إذا كان فيها ، حينما ما يوضح المعنى المقصود من كتاب الله أو ما يزيد من بلاغة أسلوب القرآن .

ومثل ذلك كثيرة في تفسيره ، ومن القراءات التي يذكرها لتوضيح

---

(١) أنظر المطلوب شرح المقصود رقم (١) حرف ا وآخر ص ٢١ ــ ٢٢ نقلا عن السماع والقياس ــ لاحمد تيمور ص ١٣

(٢) أنظر الفائق للزمخشري مادة ــ ف ق ر ــ ج ٢ : ص ٢٩١

المعنى المقصود من القرآن ما ذكره فى تفسير قوله تعالى « مالك يوم الدين » قال : ويجوز أن يكون ، ملك الأمور يوم الدين ، كقوله تعالى ( ونادى أصحاب الجنة ونادى اصحاب الأعراف ) والدليل عليه قراءة أبى حنيفة ملك يوم الدين [١] ، ومما يقصد به من القراءات بلاغة القرآن ما فسر به قوله تعالى « والله بما تعملون خبير » إذ قال : قريت بما تعملون : « بالتاء والياء فالتاء على طريقة الالتفات وهى أبلغ فى الوعيد ، والياء على الظاهر ، ومما نقد فيه بعض القراءات ما ذكره فى قوله تعالى « ان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » [٢] برفع يغفر ويعذب وبجزمهما [٣] حيث نقد قراءة من ادغم الراء فى اللام وقال : ان صاحب هذه لأحن مخطىء خطأ فاحشا وراويه عن أبى عمرو مخطىء مرتين لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم ، والسبب فى نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة والسبب فى قلة الضبط قلة الرواية ، ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو وينقد الأستاذ سعيد الأفغانى فى كتابه « أصول النحو » الزمخشرى فيما ذكره فى قوله تعالى « قتل أولادهم [٤] شركائهم » قال الزمخشرى « وأما قراءة ابن عامر برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على اضافة القتل إلى الشركاء والفصل بينهما بغير الظرف فشيء لو كان فى الضرورات وهو الشعر لكان سمجا مردودا ..... فكيف به فى الكلام المنثور ، فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٧٤

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٤

(٣) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٣٠٧

(٤) سورة الأنعام آية ١٣٧

وجزالته والذى حمله على ذلك أن رأى فى بعض المصاحف ( شركائهم ) مكتوبا بالياء ، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء لأن الأولاد شركاؤهم فى أموالهم لوجد فى ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب[1] ، ويقول الأفغانى: ان فى هذا الكلام زلتين كبيرتين ينزه عنهما الشادى فى علم القراءة .

فأما الأولى :

فى جملته الأخيرة المشعرة بأن بابن عامر حر فى اختراع القراءة حتى لقد عجب من هذا الجهل الساذج بما هو معروف ضرورة، والمقرر ، البديهى ان القراءة سماع محض لا مجال للاجتهاد فيها .

وأما الثانية :

فهو مظنة أن القارىء أسير الرسم ... وهذه شبه تلك فى الجهالة ، فالقراءة تتلقى مشافهة بالاسناد وهى عادة توافق الرسم وليس للقارىء أن يقرأ قراءة لم يتلقها[2] .

أما ما ذكره الأفغانى من أن جملة الزمخشرى الأخيرة مشعرة بأن ابن عامر حر فى اختراع القراءة ، ورد الأفغانى على ذلك بأن القراء سماع محض لا مجال فى الاجتهاد فيها فهو صحيح ، إلا أن مراد الزمخشرى بقوله ـ حمله على ذلك أى على تفضيل ذلك ـ أى تفضيل هذه القراءة وليس مقصود الزمخشرى ـ حمله على الاتيان بهذه القراءة وابتكارها وذلك أمر بديهى يعرفه الأفغانى وغيره من العلماء ، وأما قول الأفغانى واما الثانية فهو مظنة ان القارىء أسير الرسم ـ فهى مثل الأولى فى أن مراد الزمخشرى ان كتابة « شركائهم » بالياء جعل ابن عامر يؤثر هذه القراءة ويختارها ، وليس

---

(١) الكشاف ح ١ : ص ٣٩ ، ٥٣

(٢) كتاب أصول النحو ـ لسعيد الافغانى ص ٣٩ ط اولى

مراده ان القارىء أسير الرسم ، وبذلك يسقط هذا النقد الذى تحامل فيه الأفغانى على الزمخشرى والذى أداه إلى أن يقول فى تتمة نقده له : وكان على الزمخشرى وهو أعجمى تخرج بقواعد النحاة المبينةعلى استقراء ناقص أن يتحرى لنقد رجل عربى قويم الملكة فصيح اللسان، حجة فىلغة العرب شيئا غير هذه الخطابيات ، وعلى هذا تكون هذه القراة حجة قوية على الفصل بين المتضايقين بغير الظرف والجار والمجرور »[1] ونحن نقول . ان الزمخشرى بما كسب من ملكات ودراسات وثقافات وبما كتب وألف ونافح عن العربية صار فى حكم العرب الخلص ، الذين لا يصح وصفهم بالأعجمية ، وفى رأيى أن نقد الزمخشرى لهذه القراءة يعد فى محله ، وموضعه من الصواب ، لأنها تؤدى بلا شك إلى — الضرورة القبيحة فى نظم القرآن وأسلوبه المعجز ، ولا حاجة لنا إلى مثل هذه القراءة التى تضعف بلاغة كلام الله وفصاحته . ويبدو فى رأى الأستاذ الأفغانى فى الزمخشرى تحامل كبير حتى ليرى أن الزمخشرى فى النحو عالم دون الوسط بين قدماء المصنفين ، وان آراءه ليست هناك ، وأنه يقطع فى أمور كثيرة ، بما لا تقبله الملكة الخالصة ، ويتعرض أحيانا لما لا يحسن شأن من ألف فى كل فن ، ويستدل الأفغانى على ذلك ، بما ذكره الزمخشرى من قراءة ابن عامر هذه ثم يستطرد الأفغانى ويقول . وقديما قالوا . انه ، نحوى ضعيف[2] . وينسب هذا الكلام إلى ابن مالك .

---

(١) كتاب أصول النحو — لسعيد الافغانى — ص ٠٤

(٢) من رسالة بعث بها إلى الاستاذ الافغانى — الاستاذ بجامعة دمشق ردا على رسالة بعثت بها اليه تتضمن الرغبة فى معرفة رأيه فى اجتهاد الزمخشرى اللغوى والنحوى .

وفيما ذكرناه عن الزمخشرى النحوى ما يدل دلالة قوية على انه مجتهد — وامام كبير فى علوم العربية كلها منها النحو ، ونحن وان خالفنا الأستاذ الأفغانى فى الرأى الا انا نجله ونقدره لمكانته العلمية بين علماء العرب المعاصرين .

* * *

# الفصل الثاني

# الزمخشري

# والبلاغة العربية

( أ ) وقد كان الزمخشرى فى البلاغة أماما لايبارى فى عهده وله آراء كثيرة فى مسائل البلاغة تشهد له بالتفوق فيها ، وقد رجع علماء البلاغة المتأخرون من بعده إلى آرائه يستشهدون بها ويعلقون عليها ، كالسكاكى ، والخطيب القزوينى ، والسيد ، والسيد وغيرهم .

وفى كتب البلاغة بعض آراء الزمخشرى التى تشهد له بالاجتهاد فى مسائلها ، وفى تفسيره الكشاف ، الكثير من مسائل البيان التى عرج عليها ، وعرض لها ، واجتهد فى تحليلها ، وقد اهتم السيد الجرجانى ، ( م ٨١٦ هـ ) فى التنويه ، بها فى شرحه على الكشاف ، الذى لم ينه منه غير شرحه على الربع الأول من سورة البقرة من تفسير الكشاف ، ومما عرض له الجرجانى من ذلك التمثيل والاستعارة التمثيلية .

(ب) وينوه الزمخشرى فى مقدمة الكشاف ، بعلمى المعانى والبيان فيقول : لايتصدى أحد اسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق ، ألا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعدان يكون آخذا من سائر العلوم بحظ[1] . ثم يستطرد فيقول : وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة ، منقادها مشتعل القريحة وقادها ، يقظان النفس دراكا للمحة ، وأن لطف شأنها متنبها على الرمزة ، وأن خفى مكانها ذا دراية بأساليب النظم والنثر ، مرتاضا ، بتلقيح بنات الفكر قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويرصف[2] .

---

(١) مقدمه تفسير الكشاف .

(٢) المصدر السابق .

( ج ) ويذكر الزمخشرى فى الكشاف كثيرا من مباحث علم المعانى وعلم البيان ، فمن علم المعانى ما يذكره من أسرار التعبير باسم الاشارة ، واسم الموصول ، والجملة الأسمية ، والنكرة وتقديم الخبر على المبتدأ ، والأضمار ، والحذف ، والذكر والتكرار ، والايجاز . والالتفات والوصل والفصل ، والاشارة والخبر ، والاعتراض والاستفهام وسواها ( وكذلك يذكر كثيرا من مسائل البيان من التشبيه، والمجاز والاستعارة ، والكناية) ( ومن مسائل المعانى ماذكره فى توجيه قوله : تعالى إياك نعبد » حيث قال : « فان قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب ، قلت : هذا يسمى الالتفات فى علم البيان[1] وقد يكون من الغيبة ، إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى المتكلم » ....

ويستطرد بعد ذلك فيقول : « وذلك على عادة افتنانهم فى الكلام وتصرفهم فيه ، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية تجديدا لنشاط السامع ، وإيقاظا للاصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد ، .... الخ .

ويذكر الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « رب إنى وهن العظم منى » وجوها كثيرة ، فى البيان فى أسباب بلاغة الآية ، وكذلك يذكر تفسير قوله تعالى : « وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسيها ويذكر فى غيرها من الآيات، كثيرا من أسرار البيان. يشرح بها بلاغة الكتاب، ومعجزته الآلهية الكبرى ، التى نراها فى فصاحته ..

ويهتم الزمخشرى خاصة بالاستعارة ، والتمثيل والكناية[2] ،

---

(١) علم البيان عند الزمخشرى يشمل علمى البيان والمعانى .

(٢) التمثيل يريد به الزمخشرى وعلماء اللغه مايرادف التشبيه مخالفين بذلك =

بقول الزمخشرى ، : أن التمثيل مما يكشف المعانى ويوضحها لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها .

ويشرح الزمخشرى فى الكشاف أسلوب التمثيل ، والتخييل شرحا واضحا ، عند تفسيره لقوله تعالى « أنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض[1] » ، وعند تفسيره الاية الكريمة « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم[2] » .

فيقول فى هذا الأسلوب ، أنه من باب التمثيل والتخييل ، ويفيض فى شرح ذلك وكذلك عند تفسير قوله تعالى « فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين[3] وقوله تعالى » لوأنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله[4] » .

( د ) أما من جانب علم البديع ، فقد ألم الزمخشرى ببعض ألوانه ، فى ثنايا تفسيره ومن مثل ذلك ماذكره فى الآية الكريمة « وجئتك من سبأ بنبأ يقين » قال : هذا من جنس الكلام الذى يسميه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام ، الذى يتعلق باللفظ بشرط أن يجىء مطبوعا أو يصنعه عالم بجوهر الكلام ، يحفظ معه صحة المعنى ، وسداده (٥) ، ويعرض لأساليب أخرى من الجناس ، والطباق والمقابلة والمشاكلة ، واللف والنشر وغيرها(٦) .

---

= رأى عبد القاهر الجرجانى وسواه من علماء البلاغة وأنظر فى ج ١ س ٢٨٣ رأى الزمخشرى فى الفرق بين الكناية والتعريض .

(١) آية ٧٢ من سورة الاعراف . ( ٢ ) سورة الاعراف ١٧٢ .

(٣) الكشاف ج / ٣ س ١٠٩ آية ٢٩ من سورة الدخان .

(٤) الكشاف ح / ٢ س ٢١٨ آية ٢١ من سورة الحشر .

(٥) الكشاف ٢ س ٤٤٨ آية ٢٢ من سورة النمل .

(٦) الكشاف ج ١ س ٣٥٦ .

ومن نمازج آراء الزمخشرى فى البلاغة هذه المسائل : —

١ — يجعل الزمخشرى ، ويتبعه السكاكى ، مما يفيد التخصيص مثل قولنا : « ماأنت علينا بكريم » وقوله تعالى « وماأنت علينا بعزيز» من كل ماولى الضمير فيه حرف النفى ، ولم يكن الخبر فعليا أن كان أصلا مشتقا ، وهما فى ذلك مخالفان رأى عبد القاهر الجرجانى وجمهور البلاغيين ، الذين يجعلون تقديم المسند إليه هنا لافادة التقوى ، والتأكيد لا التخصيص ، يقول القزوينى فى إيضاحه فى التعليق على رأى الزمخشرى والسكاكى : —

وفيه نظر : لانا لانسلم أن ايلاء الضمير حرف النفى إذا لم يكن الخبر فعليا يفيد الحصر[1] . وفى رأيى أن — الزمخشرى فى حمله الوصف المشتق على الفعل فى ذلك ليس بمتجاوز حكم الذوق، ودلالة الأسلوب وفحوى الكلام الذى يفهم التخصيص ، على ماهو واضح فى مثل هذا الأسلوب ، يقول الزمخشرى : دل ايلاء ضمير حرف النفى على أن الكلام واقع فى الفاعل لافى الفعل كأنه قيل : وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينـــا .

٢ — يجعل الزمخشرى « التنكير » فى مثل قوله تعالى « قالوا أن لنا لاجرا[2] » للتكثير ويميل بعض البلاغيين إلى جعله مفيدا للتقليل، ويجعل التنوين فى قوله تعالى « ياأبت أنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن[3] » مفيدا للتحقير ، ويجعله السكاكى للتهويل ويميل القزوينى إلى

(١) راجع الايضاح للقزوينى ج ١ ص ٦٢ ط المحمدية بالقاهرة .

(٢) آية ٤١ من سورة الشعراء .

(٣) آية ٤٥ من سورة مريم .

رأى الزمخشرى[١]

٣ — يستدل صاحب الايضاح بكلام الزمخشرى فى تعريف المجاز العقلى بقوله : أن يسند الفعل إلى شىء يلتبس الذى هو فى الحقيقة له . على صدق تعريفه المجاز العقلى الذى استمده عبد القاهر الجرجانى[٢] .

٤ — ويجعل الزمخشرى حذف المفعول فى قوله تعالى « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون » ..... لا نسقى . . . . . فسقى لهما .....الخ[٣] .

لإثبات المعنى فى نفسه للشىء على الاطلاق : يقول الزمخشرى : ترك المفعول ، لأن الغرض هو الفعل لا المفعول ، ألا ترى ، أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد ، وهم على السقى ، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم ابل — مثلا : ويجعل السكاكى ، الحذف فيه لمجرد الاختصار ، ويرجح الخطيب ، رأى الزمخشرى وهو ما يفيـــد الذوق ودلالة الأسلوب[٤] .

٥ — ويجعل الزمخشرى قوله تعالى « ولما سكت عن موسى الغضب »[٥] من باب الاستعارة التمثيلية وكذلك مثل قولهم اعتصمت بحبله « وأن جاز فى هذا المثال الأخير أن يكون » « الحبل » استعارة للوقوف و « الاعتصام » ترشيحا لاستعارة الحبل ، بما يناسبه أو استعاره للوثوق بالعهد ، ويستدل القزوينى فى الإيضاح بكلام الزمخشرى فى هذا الباب[٦] » .

---

(١) الايضاح للقزوينى ١ ج : ص ٤٧ .
(٢) الايضاح للقزوينى ج ١ : ص ٢٥ .
(٣) آية ٢٣ وما بعدها من سورة القصص .
(٤) الايضاح للقزوينى . ج ١ :ص ١٠٨ ، ١٠٩ وراجع الكشاف ج٢ ص٢٦٩ ، ٤٧٠
(٥) بعض آية سورة الاعراف ١٥٤ .
(٦) الايضاح للقزوينى . ج ٢ : ص ٣٠٦ .

٦ — ويجعل الزمخشرى نحو قولهم « مثلك لايبخل » كناية عن النسبة يقول : نفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته قصدوا المبالغة فى ذلك فسلكوا به طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده، أو عمن هو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه ، ونظير ذلك قولك للعربى « العرب لاتخفر الذمم » فأنه أبلغ من قولك « أنت لاتخفر[1] » .

٧ — رأى الزمخشرى فى الالتفات :

ذكر الزمخشرى الأبيات المشهورة لامرىء القيس :

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلى ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذى العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاء فى وخبرته عن أبى الأسود

وقال أن هناك ثلاث التفاتات[2]، ولكن أبا حيان يرد عليه بأنهما التفاتان فقط : بأن الأول خروج من الخطاب المفتتح به فى البيت الأول إلى الغيبة فى البيت الثانى ، والالتفات الثانى خروج من هذه الغيبة إلى المتكلم فى قوله :

وذلك من نبأ جاءنى وخبرته عن أبى الأسود

ثم يرد عليه بأن تأويل كلامه أنها ثلاث خطأ وتعيين أن الأول هو الانتقال من الغيبة إلى الحضور أشد خطأ ، لأن هذه الالتفاتات هو من عوارض الالفاظ لا من التقادير المعنوية[3] . والزمخشرى يخالف الجمهور فى بيان معنى الالتفات فنرى ابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » يقول

---

(١) راجع الايضاح — للقزوينى — ح ٢ : ص ٣٢٥، ٣٢٦ .

(٢) يعبر الكشاف ج ١ ص تفسير الاية إياك نعبد .

(٣) تفسير البحر المحيط — لابى حيان — ج ١ ص ٢٠ .

وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام القسم الأول فى الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ، إعلم أن عامة المنتمين إلى هذا الفن إذا سألوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب وعن الخطاب إلى الغيبة قالوا كذلك كانت عادة العرب فى أساليب كلامها وهذا القول هو عكاز العميان كما يقال ونحن إنما نسأل عن السبب الذى قصدت به العرب ذلك من أجله وقال الزمخشرى أن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنما يستعمل للتفنن فى الكلام والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطريه لنشاط السامع وإيقاظا للاصغاء إليه » وليس الأمر كما ذكره لأن الانتقال فى الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن الا تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للاصغاء إليه فان ذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجد نشاطا للاستماع وهذا قدح فى الكلام لاوصف له لأنه لو كان حسنا لما مل ولو سلمنا إلى الزمخشرى ، ماذهب إليه لكان إنما يوجد ذلك فى الكلام المطول ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك لأنه قد ورد ـ الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ويكون مجموع الجانبين معا يبلغ عشرة ألفاظ أو أقل من ذلك ومفهوم قول الزمخشرى فى الانتقال من أسلوب إلى أسلوب إنما يستعمل قصدا للمخالفه بين المنتقل عنه والمنتقل إليه لا قصداً لاستعمال الأحسن وعلى هذا فاذا وجدنا كلاماً قد استعمل فيه جميعه الايجاز ولم ينتقل عنه أو استعمل فيه جميعه الاطناب ولم ينتقل عنه وكان كلا الطرفين واقعا فى موقعه قلنا هذا ليس بحسن إذ لم ينتقل فيه من أسلوب إلى أسلوب وهذا قول فيه مافيه وما أعلم كيف ذهب على مثل الزمخشرى مع معرفته بفنى الفصاحة والبلاغة(١) .

---

(١) المثل السائر ـ لابن الاثير ـ ص ٢٥٤ ط بولاق .

٨ — ولاننسى أن نقول أن القزويني يستدل في كتابه الايضاح وخاصة في باب المعاني في مواضع كثيرة ، بأراء الزمخشري ، ويستشهد بما كتبه من تحليل بلاغة كثير من النصوص ، من كتاب الله ، وأحاديث رسول الله وكلام العرب البلغاء ، وكلام القدامى الأدباء والشعراء .

( د ) موقف الزمخشري من قضية الاعجاز القرآني : —

بهر الزمخشري ببلاغة القرآن ،وفصاحته ، وأذهله أعجازهوجلالته، ووقف وهو يفسر بعض الآيات مأخوذا بروائع نظمه ، وبدائع تأليفه ، وأسرار بيانه ، ودقائق وصفه وخفايا تركيبه ، ويقول الزمخشري : « وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء ، حدا يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره[1] » وحينما يفسر بلاغة القرآن في قوله عند تفسيره الآية الكريمة « وترى الجبل تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب[2] فأنظر إلى بلاغة هذا الكلام ، وحسن نظمه ، وترتيبه، ومكانة اضماره ورصانةتفسيرهوأخذ بعضه بحجزة بعض كأنما أفرغ افراغا واحدا، ولأمر ماأعجز القوى ، وأخرس الشقاشق[3] » .

وقضية الاعجاز ، أثارها العلماء منذ القرن الثالث الهجري للدفاع عن القرآن ، وبلاغته وألف فيها أبو عبيدة ( م ٢٠٨ هـ ) والنظام ( م ٢٣٥ هـ ) والجاحظ ( م ٢٥٥ هـ ) وأبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي ( م ٣٠٦ هـ ) والرماني ( م ٣٨٤ هـ ) والباقلاني ( م ٤٠٣ هـ ) — وعبد القاهر الجرجاني ( م ٤٧١ هـ ) في كتابه دلائل الاعجاز ، وسواهم وقد ذهبوا مذاهب

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٤٧٣ .
(٢) سورة النمل آية ٨٨ ومابعدها .
(٣) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٧٥ ، ٧٦

شتى فى فهم اعجاز القرآن فذهب بعض إلى أن سبب الاعجاز الصرفة ـ ومنهم النظام ، وذهب آخرون إلى أن ـ اعجازه فى نظمه ومن رواد هذا المنحى ـ الجرجانى ـ وذهب آخرون إلى أن اعجازه ، بما اشتمل عليه من أمور الغيب ويقف بعض الباحثين عن الاعجاز عند الحسن اللفظى البديعى فى القرآن فيجعلونه سببا أكبر من أسباب الاعجاز ، وقد تعرض عبد القاهر لراىء من قال بالاعجاز فى كلم القرآن على انفراد أو ائتلاف ومن قال بالفواصل والقواطع أو الاستعارات أو الغريب على هؤلاء جميعا كما رد على من قال بالصرفة .

أما الزمخشرى فقد ذهب إلى أن القرآن الكريم ، كتاب معجز من جهتين : من جهة اعجاز نظمه ، ومن جهة مافيه من الأخبار بالغيوب[1] ويكرر هذا فى موضوع آخر فيقول : فى تفسير الآية : « فاعلموا إنما أنزل بعلم الله[2] » « أى أنزل ملتبسا بما لايعلمه الا الله من نظم معجز للخلق وأخبار بغيوب لاسبيل لهم إليه » ويتحدث عن معجزة الأخبار بالغيب فى القرآن فى تفسيره لايات التحدى بالقرآن من مثل قوله تعالى : » وأن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله[3] ... الخ » ، وعند تفسيره للايات التى وقع فيها أخبار بالغيب كقوله تعالى : «الذين جعلوا القرآن عضين[4] » حيث يقول الزمخشرى : « وهو من الاعجاز لأنه أخبار بما سيكون وقد كان» كقوله تعالى: ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم[5] »

(١) تفسير الكشاف ج ٢: ص ٧٥،٧٦ .
(٢) الاية ٢٣،٢٤ من سورة البقرة .
(٣) الاية ٩١ من سورة الحجر .
(٤) سورة هود آية ١٤ .
(٥) آية ٩٥ من سورة البقرة.

حيث يقول الزمخشرى : « وهو من المعجزات وهو أخبار بالغيب وكان كما أخبر به » .

ولكن الزمخشرى يرى أن اعجاز نظم القرآن هو « أم اعجاز القرآن والقانون الذى وقع عليه التحدى ومراعاته أهم مايجب على المفسر[(١)] .

ومن ثم — وهذا هو كلام الزمخشرى — لايجوز لنا أن نمنى كثيرا بجانب الأخبار بالغيب الذى اشتمل عليه القرآن الكريم وأن نجعل له منزلة كبيرة فى اعجازه .

فدراسة نظم القرآن ، وتبين وجوه بلاغته هى الجانب الأكبر فى اعجازه ، وهذا هو رأى الزمخشرى ، وقد تأثر فيه برأى عبد القاهر الجرجانى ، الذى بسطه فى دلائل الاعجاز وسبقه إليه الجاحظ فى كتبه « البيان والتبين ، والحيوان ونظم القرآن » ونظرية النظم ، نظرية عرض لها الجرجانى بالتفصيل والدراسة وكيف يختلف نظم ونظم ، وتختلف تبعا فى ذلك بلاغة الكلام ، وفصاحته ، وقد تبعه فى هذه النظرية (نظرية النظم) الزمخشرى فأفاض فى تفصيلها ، ورد كثيرا من وجوه اعجاز القرآن إليها وفى الواقع كان الكشاف كشافا لما أحتوى عليه كتاب « الجرجانى ، فالزمخشرى لم يأت — غالبا — الا بما أتى به عبد القاهر من حيث المبدأ ولكن ميزته ميزة التطبيق — وإذا — جاء بشىء من عنده فانه يعرضه فى هذه الأسئلة التى يفرضها ، ويوصفها مزدحمة ثم يجيب عنها على طريقته « فان قلت » فلا تكاد تقرأ سطورا ، من كتابه حتى يصادفك « فان قلت قلت » على العكس مما نجده ، عند عبد القاهر ، فهو وأن فعل ،

(١) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٣٠١ .

هذا الصنيع ، فى الدلائل بالخصوص إلا أنه يباعد بين جزئياته ، ويطيل وقفاته فى المسألة : ولنستمع إليه يحلل روعة النظم فى قوله تعالى : « وقيل ياأرض ابلعى ماءك » الخ فيقول فى دلائله : « ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نوديت الأرض ثم أمرت ثم إضافة الماء إلى الكاف ... ثم أن اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل وغيض الماء فجاء الفعل على صيغة فعل والمبنى للمجهول ، الدالة على أنه لم يغض ، إلا بأمر آمر ، وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقديره بقوله تعالى « وقضى الأمر » ثم أضمار السفينة قبل الذكر ، كما هو شرط الفخامة ، والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة قيل الخاتمة بقيل فى الفاتحة » .

ويقول الزمخشرى فى الكشاف « جىء اخباره على الفعل المبنى للمفعول ، للدلالة على الجلال والكبرياء ، وأن تلك الأمور العظام لاتكون إلا بفعل قادر وتكوين مكون قاهر إلى أن يقول غيره « ياأرض ابلعى ماءك وياسماء اقلعى » ولا أن يقضى ذلك الأمر الهائل غيره ، ثم يستطرد الزمخشرى فيقول ولما ذكرنا من المعانى والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية » ولم يذكر عبد القاهر فى ذلك وهذا الصنيع معروف عند الزمخشرى ، وعلى بعد ما بين الزمخشرى — والجرجانى فى المذهب العقدى ، فقد استغل الزمخشرى رأى عبد القاهر فى مسألة الاعجاز ، وأنه لايكون إلا بما هو فى متناول الذين يتجه الاعجاز إليهم ، وفى عرفهم وصنعهم ، فموسى أعجز بالخوارق ، التى كان السحرة بارعين فيها ، وعيسى بالطب ، الذى كان قومه نطسه فيه ونبينا بالبلاغة ، التى كان العرب على قدم راسخة فيها ، وإذا كان عبد القاهر يلجأ فى حل مشاكل النظم القرآنى

إلى توضيح معانى النحو ، فاننا نجد الزمخشرى يفعل هذا كذلك[1] ، وإذا كان الزمخشرى يلجأ كثيرا إلى اللغة والبلاغة العربية فى تفسيره ، فانه لايلجأ إلى الفلسفة وقد نهى عنها فى كشافة كما فعل فى تفسير قوله تعالى : « ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم » فيقول: لأنهم يقصدون به الشر ، وفيه أن اجتنابه اصلح كتعلم الفلسفة التى لايؤمن أن تجر إلى الغواية « فهو بهذا يخالف الرازى واضرابه[2] ، وبالجملة فقد تتبع الزمخشرى ـ كالجرجانى ـ خصائص الكلمات المنظومة ، فى التعبير القرآنى وأمعن فى بيان التعريف والتنكير والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والحذف والذكر ، وغير ذلك .

( أ ) يقول الزمخشرى فى مقدمته على الكشاف فى وصف القرآن « أنه الكتاب المعجز الباقى فى كل زمان ، ودائر بين سائر الكتب على كل لسان ، فى كل مكان أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء ، وأبكم من تحدى به من مصاقع الخطباء ، فلم يتصدر للاتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم .... الخ ويستمر الزمخشرى فى كلامه فيقول : أن الذى يريد أن يسلك هذا الطريق — تفسير القرآن — ينبغى أن يكون قد أطال النظر فى نظم القرآن .. ومهما يكن برع فى الفقه ، وعلم التوحيد ، والوعظ والارشاد ، والنحو واللغة ولكن يجب عليه أن يكون قد تخصص فى علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعانى وعلم البيان .

ثم لايفوت الزمخشرى أن يشير أيضا إلى أن علمى المعانى والبيان

---

(١) انظر مثلا فى تفسير قوله « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » وغير ذلك من الامثلة فى توخى النحو التى وردت فى الدلائل أيضا .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٢٣١ آية ١٠٢ سورة البقرة .

لا يكفيان وحدهما لفهم اعجاز القرآن بل لا بد من التفوق فى علم الأعراب. وفى موضع آخر يؤكد رأيه فى مسألة اعجاز القرآن فيقول « ذا دراية بأساليب النظم والنثر ... قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف وكيف ينظم ويوصف ، ويرى الزمخشرى أن اعجاز الكتاب إنما ينظر فيه فى الدرجة الأولى ، إلى أسلوبه ونظمه وتأليفه[1] » .

( ب ) ثم يقول الزمخشرى فى المحاورة التى يجريها عند تفسير قوله تعالى : « الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجزان يتعاهد فى مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها وماوقع به التحدى سليما من القادح فاذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل[2] .

( ج ) ومرة أخرى يقول فى تفسير الآية « ألم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » وقد يقال : أن قوله — ألم جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم المستقلة بنفسها ، وذلك الكتاب جملة ثانية ، ولاريب فيه ثالثة ، وهدى للمتقين رابعة ، وقد أصيب بترتيبها، مفصل البلاغة ،وموجب حسن النظم ، حيث جىء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق ، متآخية أخذا بعضها بعنق بعض فالثانية متحدة بالاولى مقتضية لهم وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة ... بيان ذلك أنه نبة أولا على أنه الكلام المتحدى به . ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال .. ثم يطرب الزمخشرى بهذا الأسلوب الفريد فى نظمه وجزالته ، فيشعر بفرح وسرور بالغين — بما كشفه ، فيقول: لم تخل كل واحدة من الأربع ، بعد أن رتبت هذا الترتيب

(١) مقدمة تفسير الكشاف .

(٢) تفسير الكشاف ج ١: ص ١٤٥ .

الانيق ، ونظمت هذا النظم السرى من نكتة ذات جزالة . ثم يستطرد في تعليل بلاغة الكلام بقوله أن المزية في الأولى الحذف ، وفي الثانية التعريف وفي الثالثة التقديم ، وفي الرابعة الحذف ويوضح المصدر موضع الوصف فيوضح ذلك بقوله :ففي الأولى الحذف — أى حذف المبتدأ — والرمز إلى الغرض ، أى أن المتحدى به معجز من الله ، بالطف وجه وارشقه ، وفي الثانية مافي التعريف من الفخامة ، وفي الثالثة مافي تقديم الريب على الظرف « أى أنه يفيد نفي الريب عنه بالكلية من غير تعرض لوجود ريب في غيره» وفي الرابعة الحذف ووضع المصدر والذى هو هدى « موضع الوصف الذى هو - هاد - وإيراده منكرا والايجاز في ذكر المتقين[1] » .

( د ) ثم يرى الزمخشرى : أن السر في جعل القرآن مفصلا هو تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض ، بذلك تتلاحظ المعانى ويتجاوب النظم ، إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع .. ثم يستطرد الزمخشرى في هذا المجال فيقول : في تفسير قوله تعالى : فأتوا بسورة من مثله » فان قلت : ومامثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل : قلت : معناه فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب ، وعلو الطبقة في حسن النظم ثم يحيل النظر إلى ناحية أخرى من بيان اعجاز القرآن : وهو أن النبى كان أميا وجاء بمثل هذا الكتاب الذى اعجز فصحاء العرب عن أن يأتوا بمثله ، فيقول : أو فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشرا عربيا أو أميا لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء فتحدى العرب أن يأتوا ولا يأتون بمثله ، لأن القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب ، ثم يتعرض لمسألة التحدى التى هى أيضا متصلة باعجاز القرآن النظمى ، ويقلب

(١) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٩٣، ٩٤ .

الآية ويفسرها على وجوهها المختلفة وبيان عجز القوم وانخذالهم عن الآتيان بمثلها ، وأن — الحجة قد بهرتهم ، ولم تبق لهم متشبثا غير قولهم « الله يشهد أنا لصادقون » ، وقولهم هذا تسجيل منهم على أنفسهم بتناهى العجز وسقوط القدرة ثم يقول الزمخشري : وفيه دليلان على اثبات صحة النبوة صحه كون المتحدى معجزاً ، والأخبار بانهم لم يفعلوا وهو غيب لا يعلمه الا الله ، ثم يدير الزمخشري هنا محاورات كثيرة حول مسائل الاعراب واللغة ، يقول : ان قلت : من أين لك أنه أخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة قلت : لأنهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه ، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال لاسيما والطاعنون فيه أكثف عددا من الذابين عنه ، فحين لم ينقل ، علم أنه أخبار بالغيب على ماهو به فكان معجزة(1) .

( ه ) ثم ينتقل الزمخشري فى مجال آخر من اعجاز القرآن ويشير إلى أن اعجاز القرآن يتوقف أولا على فصاحته ، وثانيا أمية النبى ، وثالثا اشتمال القرآن على الفروع والأصول والعلوم المختلفة ، ورابعا الأخبار بالغيوب ، يقول فى تفسير الآية: «قل لوشاء الله ماتلوته عليكم وماأدراكم(2) ... الخ » — يعنى أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وأحداثه أمرا عجيبا خارجا عن العادات وهو أن — يخرج رجل أمى لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ولا نشأ فى بلد فيه علماء فيقرأ عليكم كتابا فيصحا يبهر كل كلام فصيح ، ويعلوا على كل منثور ومنظوم ، مشحونا بعلوم من علوم الأصول والفروع وأخبار مما كان وما يكون ، ناطقا بالغيب

---

(1) تفسير الكشاف ج١: ص ١٨٤ الى ١٩٢ .

(2) آية ١٦ من سورة يونس .

التي لا يعلمها إلا الله[1] ..... » .

( و ) ومن استخراجات الزمخشري لبلاغة القرآن في تفسير الآية الكريمة « ياأسفى على يوسف » حيث يقول أن التجانس بين لفظي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعا غير متعمل فيملح ويبدع ونحوه « أثا قلتم إلى الأرض ارضيتم ، وهم ينهون عنه وينأون عنه ، يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ومن سبأ بنبأ ، ويسمى هذا تجنيس التعريف حيث تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف[2] .

والحق يقال أن الكشاف هو في مجمل أمره ، في بلاغة القرآن واعجازه ، كشاف ومفصل لما أجمله عبد القاهر الجرجاني . في كتابه دلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة ، فهو يسير على خطى عبد القاهر في جوهره ، ومنهجه ، مما قد لمسناه في تحليله لبلاغة بعض الآيات ، وعند تفسيره لقوله تعالى « وفي القصاص حياة ياأولى الألباب » وقد سلك الزمخشري في بيان جمال الأسلوب ، والنظم القرآني مسلك الجرجاني واتبع خطاه[3] .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٦٩ .

(٢) تفسير البحر المحيط — لابي حيان — ج ٥ ص ٣٣٩ . ، الكشاف ج ٢ ص ١٥٠ .

(٣) راجع دلائل الاعجاز — للجرجاني — ج ١ ص : ٥٠ ، ٥٧ ط المغرب والكشاف ج ١ ص ٣٠٣ حيث يتعرض الزمخشري لكتابة والتعريض أو التلويح وتأثر بآراء الجرجاني .

# الفصل الثالث

# الزمخشرى الأديب

كان الزمخشرى فى عصره ، أماما لامعا من أئمة الأدب ، وعلما من أعلامه وشيخا من شيوخه ، وكانت ثقافته الأدبية ثقافة واسعة ، ولاعجب فقد تتلمذ على أعلام عصره ، فى اللغة والأدب وغيرهما وقرأ وطالع كثيرا من مراجع الأدب وأصوله . واستفاد من رحلته ، وتجاربه ، وخبرته ، بالحياة استفادة كثيرة مما نمى روح الأدب وثقافته ، ووسع من مواهبه ، ومداركه ، ونوع من فنونه .

ومن ثم نجد الزمخشرى شاعرا وكاتبا وصاحب رسائل ومقامات ومؤلفات فى الأدب ، وشارحا لبعض صورة كشرحه للامية العرب .

ولذلك يقتضينا البحث أن ندرس الزمخشرى فى إيجاز من شتى جوانب الأدب وفنونه .

**الزمخشرى الشاعر :**

كان شعر الزمخشرى مظهرا جليلا ، من مظاهر مقدرته فى الأدب وتفوقه فيه وديوانه « ديوان الأدب » الذى يحتوى الكثير من شعره خير شاهدعلى ذلك وهو ديوان ضخم يحمل بين دفتيه ما أنجبته قريحة الزمخشرى من الشعر فى شتى الأغراض والموضوعات وفنون الشعر من مدح وتهنئة وشكر وعتاب وفخر ورثاء ووصف .

فاذا تفحص الباحث ، هذا الديوان لايستوقفه شىء جديد يسترعى النظر لأن الزمخشرى بعلمه وفضله الجم اتبع فى قرض الشعر الطريق الذى مشى فيه الشعراء من قبله ومن المعاصرين له حذا حذوهم وقلدهم فى أسلوبهم وأخذ أفكارهم ومضامينهم وأنه أقرب إلى القدماء من المحدثين .

ومن حيث أغراض الشعر يبرز المدح والرثاء كغرضين أساسيين من أغراض الشاعر فى شعره وتتسم بعض قصائده بطابع الحزن والألم الشديد والشكوى من صروف الدهر وذلك عندما يشكو الزمان وأهواله حيث يبدو طابع الحزن العميق المتأجج العاطفة المشتعل الحرارة بقوة الأحساس ونراه عندما يرثى انسانا عزيز عليه لا يقتصر على ذكر المزايا والأفضال فى المرثى ، وإنما يشير إلى الذكريات التى تربطه بالمرثى بصلات وثيقة مؤثرة ويغلب على مراثيه كذلك افراطه فى المحسنات البديعية ، ومن أمثلة ذلك بعض شعره فى رثاء استاذه أبى مضر : يقول :

وقائلة ماهـــذه الدرر التى
تساقطها عيناك سمطين سمطين
فقلت هو الدرر الذى قد حشا به
أبو مضر أذنى تساقط من عينى

فهو هنا يشبه المحسوس بالمعقول ، إلى مافى البيتين من حوار ومراعاة للنظير وتعليل وأجمال ثم تفصيل ومع هذا وأنت تقرأ شعره لا تجد المتعة واللذة فهو غالبا شعر جاف خال من العواطف والروح ، وربما كان هذا هو السبب الذى وقف بديوانه حتى الآن أن يبرز إلى الوجود وإلى هذا يشير « القفطى » فى كتابه أنباه الرواة وهو يتحدث عن شعره فيقول « كان الزمخشرى شعر كشعر النحاة[1] » يقصد أنه ليس فى شعره روح وعذوبة وذلك لأنه كان شعره ، شعر علماء فى أغلب الأمر وشعره فى المدح كثير ويقول الزمخشرى معللا كثرة مدائحه :

---

(١) أنباه الرواة للقفطى ج ٣ : ص ٢٦٧ .

إن قيل لى ما أكثر المدح التى
تعنى بها فجواب ذلك القائل
والشأن فى مدح أقول كثيرة
الشأن فى منح أنال قلائل(١)

وحينما يبتعد عن الحياة الصاخبة ويختار العزلة، عن المجتمع وهو يقيم بمكة، عزم كما يقول فى مقدمة مقاماته : ( أن — لايطأ بأخمصية عقبة السلطان ولا واصل بخدمة السلطان إذياله ) وأن يربأ بنفسه، ولسانه عن قرض الشعر، فيهم ورفع العقيرة فى المدح بين أيديهم، وأن يعف عن ارتزاق عطياتهم وافترض صلاتهم مرسوما وإدرارا وتسويقا ( ومن هذا النص يظهر حاجته الملحة إلى المدح لينال به وسائل الحياة، ولكن مايناله قليلا ضيئلا وأنه كان يقضى حاجاته بما تذود به أيدى الأمراء والسلاطين.

والأسلوب الذى سلكه الزمخشرى فى قرض الشعر، هو أسلوب القدماء حيث كان غالبا يلتزم أن يفتتح قصائده، بالنسيب الذى كان ديوان الشعراء من قديم وقد علل ابن أبى قتيبة السر فى ذلك بقوله :

« سمعت أهل العلم يقولون أن مقصد القصيد — إنما أبتدا فيها بذكر الديار والدمن والأثار، فشكى وبكى، وخاطب الربع واستوقف الرفيق يجعل ذلك سببا لذكر أهليها الظاعنين منها، إذ كان نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر .... ثم وصل بالنسيب فشكا شدة الشوق، وألم الوجد، والفراق، وفرط الصبابة ... لأن النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب .... وشكا النصب والسهر وسرى الليل

---

(١) ديوان الزمخشرى المخطوط ورقة : ٩٦

وانضاء الراحلة ، والبعير » ... ثم يقول : الشاعر المجيد من يسلك هذه المسالك[1] .

وهذا هو الأطار الذى سار عليه الزمخشرى فى شعره فنراه يبتدىء بالنسيب جريا على تقاليد القدماء فى نظم الشعر تنشيطا للسامع ورغبة فى اجتذابه إلى مايبغيه وقد كان هذا الضرب من الغزل شائعا فى العصر الجاهلى ولم يكونوا يلتزمون أن تكون هناك عاطفة صادقة نحو امرأة معينة ولذلك نراهم فرقوا بين هذا الغزل التقليدى والغزل الخالص فسموه نسيبا أو تشبيبا يقول أبن رشيق[2] : ( والنسيب والتغزل والتشبيب ، كلها بمعنى واحد ) الذى نقرؤه فى ديوان الزمخشران ، لم يتطبع بطابع الصدق لأنه لم يألف النساء ، ولم يتخلق بما يوافقهن وطبعى أن مثل هذا النسيب المتكلف ، لايترك فى نفس القارى أثرا لخلوه من الأحساس الصادق ومن ثم نرى الزمخشرى حين يذكر اسم المرأة فى نسيبه لا يقصد أمرأة بعينها ، إنما هو يشبب بالمرأة عامة ومنزلة الزمخشرى الدينية تؤكد أنه لا يمكن أن يكون صادقا فى غزله وعلى أى حال فان غزله لا يرقى إلى مستوى أصحاب العاطفة المتلهبة لافى عذوبة ألفاظه ولافى رقة معانيه ، ويمكننا أن نستخلص من هذا العرض السريع الخصائص التالية لشعر الزمخشرى .

( أ ) لم يكن فى شعره شىء من التجديد .

( ب ) قلد القدماء فى أركان القصيدة .

( جـ ) يحتوى شعره على الغزل والمديح والرثاء والنصح والوصف

( د ) استعمل المحسنات البديعية فى كثرة .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤ .

(٢) العمدة ـ لابن رشيق ج٢ : ص ١١٠ .

( ه ) أكثر من المدح ونحس فى بعض قصائده ألم الحرمان والحزن العميق وإليك صورا متعددة من شعره :

يقول الزمخشرى فى رثاء شيخه أبى مضر : —

أيا طالب الدنيا ويا تارك الأخرى
ستعلم بعد الموت أيهما أحرى

ألم يقرعوا بالحق سمعك . . قل . . بلى
وذكرت بالآيات لو تنفع الذكرى

أما وقر الطيش الذى فيك واعظ
كأنك فى أذنيك وقر ولا وقرا

أمن حجر صلد فؤادك قسوة
أم الله لم يودعك لبـــــا ولا حجرا

مازال موت المرء يخرب داره
وموت فريد العصر قد خرب العصراء الخ[1]

ويقول فى الغزل : —

أيا حبذا سعدى وحب مقامها
ويا حبذا أين استقلت خيامها

حياتى وموتى قرب سعدى وبعدها
وعزى وذلى وصلها وانصرامها

سلام عليها أين أمست وأصبحت
وأن كان لا يقرأ على سلامها[1]

وقال أيضا يخاطب الملك خوارزمشاه : —

---

(١) أنباه الرواة للقفطى — ج — ٣ — ص ٢٦٧ .

الملك لله أيها الملك
مادار إلا بأمره الفلك
لم يعط فى أرضه السلامة انسان
ولا فى سمائه ملك
لوقلت أين الملوك قبلى لم
يختلف اثنان أنهم هلكوا
أنظار وفى الهالكين معتبر
هل هلكوا بعد طول ماملكوا
قد سلكوا الأولون مدرجة
سيسلك الآخرون ماسلكوا
كم سفكوا من دم ولو فطنوا
لحال دنياهم لما سفكوا
قد تركوها ففيم حرصهم
على المساعى لاجل ماتركوا
يالابس الدهر ليس منهتكا
ثوبك هذا وأنت منهتك
ياعجبا منك أن حقك أن ..
تبكى دماء وشأنك الضحك
ياجبلا راسيا ثباتك فى
شدايد الدهر ليس يشترك[1]

---

(١) ديوان الزمخشرى ورقة ٩٤ :

ويقول أيضا فى الغزل وفى الاعتزال بالنفس : —

هلم نحى دار العامرية
وإن كانت تقل لها التحية
ونستمطر لها الاجفان حتى
تعود بصوب أدمعنا رؤيه
هى الدار التى عشنا زمانا
حياة فى مغانيها هنيه
وأيا ماقصارا لم يعبها
بشىء غير أن مرت وحيه
بها دارت لنا اخلاف لهو
حواليها غزار لا بكيه

فهل لى من أصائلها أصيل
وهل لى من عشاياها عشيه
وان أنسى ليالى بت
أسقى رحيقاً من رضاب العامرية
ليالى كنت فى صحبى صبيا
وسعدى فى صواحبها صبيه

ويجمعنى وإياها وصال
على أن أن الوصال مع الهقيه
فما ثلمت إذن دينى وأن لم
تزل كبدى لمقلتها رميه

قبيح لى إلى الفضل انتساب
والمام باحفال رديه
لفقت مروئتى بالدين لفا
فدينى والمروءة لى سجيه
نقى العرض من طاب دنى
وماللناس أعراض نقيه
وإن المن من نفر لئام
أمر لدى من طعم المنيه
يقل عطاؤهم والمن جسم
فلا كانوا ولا كان العطيه
ومادار المذلة لى بدار
أبت لى ذلك النفس الأبيه
بلعن الله أتركها وأمضى
باذن الله عنها والمشيه
سقت سعدى نجوم السعد ربا
وإن كانت بها نفسى شقية

**الزمخشرى الكاتب :**

كما كان الزمخشرى شاعرا ، كان كذلك ناثرا ، صاحب رسائل ومقامات تأثر بمذهب عصره فى أسلوب الكتابة وإتجاهها ونحا نحو معاصريه فى الحرص على السجع — الاهتمام به وإيثاره فى قصر لجمله : حينا وفى تطويل لها أحيانا أخر .

ويقول عنه ياقوت [١] « كان الزمخشري اماماً فى التفسير والنحو واللغة والأدب واسع العلم كبير العقل متفننا فى علوم شتى » ويقول الزمخشري: فى شعره من ديوانه المخطوط « ديوان الأدب » [٢].

وأنى فى خوارزم كعبة الأدب .

ويقول الوطواط ( م ٥٧٨ هـ ) ( وقد جرى بينى وبين الزمخشري فى حياته وأوقات راحاته مما يتعلق بفنون الأدب وأقسام علوم العرب مسائل أكثر من أن يحصى عددها ) [٣].

وقد طارت شهرة الزمخشري فى عصره ووصفه الأدباء والبلغاء بالبلاغة ونباهة الأسلوب ولقد عاش الزمخشري فى عصر أدبى مزدهر ، كان يرجع فى أصول البيان والأسلوب إلى بلاغة ابن العميد وعبد القاهر وسواهما من فحول الأدباء مع ميل إلى الصناعات اللفظية غير المتكلفة واجتهاد فى الطباق ، والمقابلة والجناس والتورية ، والمشاكلة ، وإمعان فى التعليل والتحليل ، والتفصيل وايثار للتشبيه والكناية والاستعارة البليغة وتفضيل للسجع والترصيع والتوقيع ، ولقد ظهرت هذه الخصائص كلها فى كتبه ورسائله ويمثل أسلوبه هنا فى رسالته إلى حافظ الاسكندرية — أبى الطاهر السلفى [٤] : حيث يقول : — ( ما مثلى مع أعلام العلماء إلا كمثل السها مع مصابيح السماء ، الجهام الصفر من الرهام ، مع الغوادى الغامرة للقيعان والآكام والسكيت المخلف مع خيل السباق والبغاث ، مع الطير العتاق

(١) معجم الادباء ، لياقوت ج ١٩ ص ١٢٦ ط فريد رفاعى .

(٢) ديوان الادب للزمخشري ورقة ٨ .

(٣) رسائل البلغاء ص ٣٧٨ وما بعدها نشر كرد على ط ١٣٦٥

(٤) وفيات الاعيان — ابن خلكان ج ١ : ص ٣٧ ، ٣٧ ط بولاق بمعجم الادباء — لياقوت — ج ١٩ ص ١٣٢ .

وما التلقيب بالعلامة إلا شبه الرقم والعلامة ، والعلم مدينة ، أحد بابيها الدراية والثانى الرواية وأنا فى كلا البابين ذو بضاعة مزجاة ، ظلى فيه اقلص من ظل حصاة ، أما الرواية فحديثة الميلاد ، قريبة الاسناد لم تستند إلى علماء نحارير ولا إلى أعلام مشاهير وأما الدراية فثمد لا يبلغ أفواها ويرض ما يبل شفاها ، ثم يستطرد ويقول : —

ولا يغرنكم قول فلان وفلان فى ... فان ذلك اغترارا منهم بالظاهر المموه وجهل بالباطل المشوه ، ولعل الذين غرهم منى ما رأوا من حسن النصح للمسلمين وبلوغ الشفقة على المستفيدين ، وقطع المطامع عنهم ، وافادة المبار والصنايع عليهم وعزة النفس والربء بها عن السفاسف الدنيـات ، والاقبال على خويصتى والأعراض عما لا يعنينى فجلت فى عيونهم وغلطوا فى ونسبونى إلى ما لست منه فى قبيل ولا دبير ، ولا أنا فيما أقول بها ضم لنفسى كما قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى قول — أبى بكر الصديق رضوان الله عليه ، وليتـكم ولست بخيركم ان المؤمن ليهضم نفسه ، وانما صدقت الفاحص عنى وعن كنه روايتى ودرايتى ومن أخذت عنه وما بلغ علمى وقصارى فضلى وأطلعته طلع أمرى وأفضيت اليه بخبيئة سرى ، والقيت اليه عجرى وبجرى وأعلمته ، نجمى وشجرى » .

حيث نجد خصائص عصره الأدبية سائدة فيها ، وأسلوب نظرائه غالبا عليه واهتمامه بالتقسيم والسجع والتوقيع كثيرا ، وأحيانا قليلا يترك السجع إلى المزاوجة والارسال حرصا منه على المعنى واظهاراً لعنايته به .

ويمثل نثره كذلك ، مقدماته فى كتبه حيث تتضح فيها خصائص العصر الأدبية فى الكتابة والترسل ، يقول الزمخشرى فى مقدمـة كتابه

( الأمثال )[1] : « وقد تصديت للانصباب إلى هذا المضمار ، وتصدى القاصد بذرعه ، والرابع على ظلمه فتدبرت شعب الفن الذى أنا كائن بصدده، وقائم بازائه ، فصادفت الشعبة التى هى أمثال العرب ، خليقة بالميل فى صفو الاعتناء بها ، والكدح فى تقويم منآدها واعطاء بداهة الوكد وعلالته اياها ، إلى استكشاف غوامضها والغوص على مشكلاتها ، ولاسيما من انتدب منهم لتدريس قوانين العربية واقراء الكتب الكبار .

فقيدت من أوابدها ما أعرض ، واقتنصت من شواردها ما أكثب ثم ارتبطتها فى قرن ترتيب حروف المعجم ارتباطا جنحت فيه إلى وطأ منهاج أبين من عمود الصبح غير متجانف للتطويل عن الايجاز ... الخ .

حيث نجده يجتهد غاية الاجتهاد فى تحلية أسلوبه بالسجع الطويل الفقرات ، فان فاته السجع فى أحيان قليلة ، لجأ إلى التوقيع والازدواج يحلى بهما جماله ويرصعها مع اجتهاده فى تصيد المعنى ودقته فى تجلية الغامض منه فى أوضح بيان وأفصح تركيب .

ونقرأ مقدمته لكتابه ( مقدمة الأدب ) فنجد صنعة بيانية دقيقة وسيرا على مذهب ابن العميد فى الكتابة وتعمد الحلى فى الأسلوب اللفظية والمعنوية وتفضيلا للسجع الطويل الفقرات ويقول الزمخشرى فى مقدمة هذا الكتاب: الحمد لله الذى فضل على جميع الألسنة لسان العرب ، كما فضل الكتاب المنزل على سائر الكتب والصلوات على النبى الأمى العربى وعلى آله أشرف العرب بعد النبى ولجلالة هذا اللسان وما جعل الله له من نباهة الشان وان الحاجة اليه ماسة ، فى الملة الاسلامية فى أنواع علومها وفنون آدابها ، كان

---

(١) كتاب المستقصى فى الامثال مخطوط بدار الكتب المصرية عن نسخة عام ١٠٠٨ هجرية .

المتعاطون لاتقانه والتبحر فيه معدودين فى علماء هذه الأمة المذكورين فى طبقات الأئمة ومن صنع الله تعالى ، لهذه الطبقة ان الملوك لم تمطر سحائبهم ، ولا فاضت أعطياتهم ومواهبهم على أحد فيضها على هؤلاء من أدبائهم وخطبائهم ، ومترسليهم وشعرائهم ، ولم يخل بعد انقضاء دولة العرب عصر من الأعصار من ملك فاضل جواد . يرغب فيهم ويصطنعهم .. الخ .

وإذا عدنا إلى ديوانه ، نقرا له مقدمته النثرية القصيرة التى يقول فيها:

قال عبد الله الفقير اليه — محمود بن عمر الزمخشرى رحمة الله عليه ، أبدأ بحمد الله على هدايته لأقوم السبل وأثنى عليه بالصلاة على خاتم الأنبياء والرسل ، فان الذكر مضمار لحمد الله ، فيه قدمة المجلى والصلاة على مصطفاه ، محمد قدوة المصلى وأتخذهما ذريعتى إلى من لا أشيم إلا خمائل جوده ولا أسيم إلا فى خمائل جوده ولا استجدى إلا من الأفقر اليه هو الأغنى وإلا من الملق بين يديه ، هو الخطر الأسنى وإياه أسأل تحت سجوف الظلام ، واليه أجأر فى ساعات القيام أن يقمصنى شعار التوبة النصوح . . الخ .

* * *

حيث نلاحظ اتحاد الخصائص البيانية فى شتى فصول الزمخشرى النثرية وكتاباته الأدبية ، التى كان ينهج فيها نهج المذهب الأدبى السائد فى عصره فى الكتابة والانشاء النثرى ، وهذه الخصائص تعود إلى ما سبق أن أوضحناه ، مما هو امتداد لمذهب ابن العميد فى النثر ، ومما يعد سمة عامة لأساليب النثر فى عصره حيث يتكىء الكاتب على الأسلوب ، والحلى البيانية والبديعية ويمعن فى الترصيع والتزيين والتوشية والصنعة امعانا كبيرا .

ومن العجب أن يتحد منهج الزمخشرى فى أسلوبه فى مختلف نماذجه حيث لا ترى فرقا كبيرا بين خصائص أسلوبه فى هذا النموذج الذى سبق ولا فى هذا الذى نذكره وهو مقدمته لكتابه « أعجب العجب » يقول الزمخشرى فى هذه المقدمة : « سبحانك اللهم وبحمدك معرب الافهام « بقيد الافهام ، ... هذه نكتة قذفتها خواطرى، وفائدة جردتها نواظرى وعقد توسط بين درر الجواهر وروض يبتسم بين الزهور النواضر، وسبك لم ينسج على منواله ، فيقال قد سبق اليه ، وزركش قد نظم بين اليواقيت، فكل عالم يعرج اليه ، غاص لها الخاطر فى بحر الأفكار فاستخرج دررها وتاه الناظر فى بكر الأفكار فاستحضر صورها ، من كل غريبة كل حديد النظر عن تقررها وملّ مزيد الفكر عن تدبرها ، نصبت فيه قريحة القرائح وتاهت فى ميادينه قانصة السوانح .. الخ » .

ولنقرأ للزمخشرى من أسلوبه فى النصائح الصغار ( أطواق الذهب ) حيث يقول : ( ما يخفض المرأ عدمه ويتمه ، إذا رفعه دينه وعلمه ، ولا يرفعه ماله وأهله إذا خفضه فجوره وجهله . الأدب هو الأب، بل هو للثأى أرأب والتقوى هى الأم، بل هى إلى اللبان أضم ، فاحرز نفسك فى حرزها، واشدد . يديك بغرزهما يسئك الله نعمة صيبة ويحيك حياة طيبة . ويقول كذلك : فى المقالة الثانية : ( يا بن آدم أعلك من صلصال كالفخار، وفيك ما لا يسعك من التيه والفخار ، تارة بالأب والجد وأخرى بالدولة والجد ما أولاك بأن تصعر خديك، ولا تفتخر بجديك، تبصر خايلى مم مركبك، وإلى م منقلبك ، فخفض من غلوائك ، وخل بعض خيلائك ... الخ ) .

فنجد أن الزمخشرى هنا يجتهد فى الترصيع ، ويؤثر السجع ولكن مع ميل إلى قصر الفقرات ومع التزام لما يلزم من حيث اختيار أكثر من حرف

فى آخر الفقرات المسجوعة . نفى المقالة الثانية نجد التشجيم بين فخار — وبالافتخار — لايقف عن الراء فى الكلمتين بل يتعداه إلى ماقبلها من الالف والخاء فى قوله : ـ خديك ـ وجديك ـ كذلك يلتزم مع الكاف الياء والدال قبلها ، وفى المقالة الأولى نجده فى الفقرتين الأوليين يقول : ـ بتمه ـ وعلمه ـ ، يلتزم مع الهاء حرفا واحدا قبلها وهو ( الميم ، وهذا المذهب وهو التزام مالا يلزم عده ابن المعتز فى كتابه البديع من ألوان البديع ،وقد ألتزمه من الشعراء أبو العلاء المعرى ، فى لزومياته ، وألتزمه فى النثر الكتاب المتأخرون ومن بينهم الأديب الزمخشرى .

ونقرأ الزمخشرى من مقاماته الأخرى فى غير اطواق الذهب وايكن مانختاره مقامة ( العزم ) حيث يقول فيها : « يا أبا القاسم ياضابط نشوات البغى ، ويامعطل صفايا عمره ، متوليا عن أمر المتولى لأمره ، ويامتثاقلا عما يجب فيه الانكماش ، ويا آمن كبوة ليس بعدها انتعاش، ويامن همه مبثوث فيما هو على ضده محثوث ، وقلبه صب مشوق إلى خلاف ماهو عليه مسوق ، ويامدلى بغرور الفتان ومكره ، ومستدرجا بدهائه ونكره ، فيما لايذهب إليه عاقل بفكره خفض قليلا من غلوائك، وأدل من معاصاتك لارعوائك ، وشمر عن ساق الجد فى ترك الهزل ، وإصدر فى تدبير أمرك عن الرأى الجزل لاتغرس إلا ماتلين غدا ايدك مثانيه ومعاطفه ويطعمك الحلو الطيب مجانيه ومقاطفه ، ولن يتم لك ذلك ألا إذا حفظت شربك مما يعافه الساقى والشارب ونفضت سربك ممايخافه السارى والسارب ....الخ .

ويقول فى مقامته التى سماها ( مقامة التقوى ) :

( يا أباالقاسم العمر قصير ، وإلى الله المصير ، فما هذا التقصير أن

زبرج الدنيا قد أضلتك ، وشيطان الشهوة قد استزلك ، لو كنت كما تدعى من أهل اللب والحجى لأتيت بما هو أحرى بك وأحجى ، إلا أن الأحجى بك أن تلوذ بالركن الأقوى ولا ركن أقوى من ركن التقوى ، الطرق شتى ، فاختر منها منهجا يهديك ، ولا تخط قدماك فى مضلة ترديك ، الجادة بينة والمحجة نيرة ، والحجة متضحة ، والشبهة مفتضحة ووجوه الدلالة وضاء ، والحنفية نقية بيضاء ، والحق قد رفعت ستوره وتبلج ، .... الخ .

ومن أسلوب المقامتين نعرف أن الزمخشرى سار على نهج معاصريه فى نظم المقامة من حيث الأسلوب والخصائص الفنية والحرص على التزام مالا يلزم ، والسجع ، ومحسنات البديع ، ويضمن مقاماته غالبا أغراضا دينية من حيث كان معاصره الحريرى ( ٤٤٦ / ٥١٦ ﻫ ) يجعل المقامة مشتملة على كل أغراض الشعر ، وفقرات المقامة عند الزمخشرى قصيرة غالبا قصر مقاماته الوعظية المشهورة (أطواق الذهب ) ، وبخلاف الحريرى لا يلتزم الزمخشرى فى مقاماته راوية وبطلا بل يبدؤها بأبى القاسم ، وهى كنيته . وكأنه يخاطب بها نفسه ، ومن ثم ألتزم الزمخشرى ، فيها توجيه النصح واسداءه لنفسه ، ففى مقامته الأولى يخاطب نفسه واصفا لها بأوصاف الغافل عن الآخرة المقبل على الدنيا ، ويقبل عليها وينصحها بشتى النصائح الخلقية والدينية التى تعبر عن قوة نزعته الدينية وتصور كذلك أخلاقه وسلوكه وشخصيته الاجتماعية ، وهكذا فى مقامته الثانية يوبخ النفس على ماهى مقبلة عليه من تقصير وافتتان بالدنيا وميل إلى وساوس اللذة وحث النفس على التقوى إلى آخر مانصح به نفسه ، من دعوتها إلى التزام الفضائل وتجنب كل ما يوبق النفس ويهلكها ، ونحن لا نحب أن نطيل هنا لأننا سنعرض المقامات فى بحث مستقل إنشاء الله .

**الذوق والادبى عند الزمخشرى :**

كان الزمخشرى مع امامته فى اللغة والأدب، شديد الاحساس بالجمال البيانى ذواقة للأساليب العربية، متمكنا فى فهم خصائص البلاغة وأصولها كان مكتمل الذوق الأدبى الذى يكون الأديب به تام الموهبة كامل الأداة عميق الشعور والفهم والموازنة بين تعبير وتعبير وأداء وأداء، ونظم ونظم.

والذوق يتجمع للاديب من ثقافات واسعة فى الأدب وفطرة أدبية ناضجة والتمييز والنقد، وموهبة مكتملة قوية الأحساس بجمال البيان والتأليف، ومهما أطال الانسان فى القراءة الأدبية وحفظ الكثير من أشعار العرب ومنثورها فانه لايمكن أن يسمى أديبا إلا إذا ساند ذلك كله ذوق أدبى مفطور على فهم أسلوب العرب وتذوقه ونقده، ومن ثم فاننا مع اعجابنا بثقافات الزمخشرى الأدبية نعجب كذلك بذوقه واحساسه بالجمال البيانى، والذوق عنده هو من مقومات شخصيته الأدبية، وهو الذى جعله متمكنا فى كل ماتناول من علوم العربية وآدابها ويدلنا على ذوقه الأدبى تفسيره الكشاف الذى اشتمل على كثير من الأمثلة الحية الناطقة بالكمال ذوق هذا العالم فى شتى علوم الأدب ونضج ثقافاته الأدبية الواسعة.

ومن مثل ذلك هذه الشواهد القليلة :

١ — قال الزمخشرى : وللجهل بمواقع « أنّ ، وإذا » — أى فى أسلوب العرب — يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب ألا ترى إلى عبدالرحمن بن حسان كيف أخطأ بهما الموقع فى قوله ' يخاطب بعض الأمراء ، وقد سأله حاجة فلم يقضها ثم شفع له فيها فقضاها :

ذممت ولم تحمد وأدركت حاجتى

تولى سواك أجرها واصطناعها

أبى لك كسب الحمد رأى مقصر
ونفس أضاق الله بالخير باعها
إذا هى حثته على الخير مرة
عصاها وإن همت بشر أطاعها[١]

٢ — يكثر الزمخشرى فى تفسيره ، من الموازنة بين أساليب القرآن وبين أسلوب العرب فى بيانها ، وذلك كلما اقتضى المقام هذه الموازنة واستدعى التحليل والترجيح والتفضيل وذلك للدلالة على بلاغة أسلوب القرآن ، ويقول الزمخشرى عند تفسيره الآية : « ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا » مستطردا عن المأمون أنه ليلة زفت إليه بوران ، بنت الحسن بن سهل وهو على بساط منسوج من ذهب ، وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ فنظر إليه ، منثورا ، على ذلك البساط فاستحسن المنظر وقال : لله در ، أبى نواس ، كأنه أبصر هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها
حصباء در على أرض من الذهب[٢]

ونقول . أنه على بلاغة بيت أبى نواس فان الصورة التى رسمها صورة قريبة إلى الذهن ، ممكنة الحصول على مرأى العين وليس أدل على وقوعها من بساط المأمون ، المنسوج من الذهب الذى رمى عليه باللؤلؤ المنثور ، إلا أن التشبيه فى الآية الكريمة وهو تشبيه الأطفال ، الذين

(١) الامالى — للقالى ج / ٢ ص ٢٢ — شارح الايضاح — الخفاجى ج / ٢ ص ٦٨ — البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٣ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ : ص ٢٩٩ — آية ١٩ من سورة الانسان .

اكتسوا مسحة من الجمال ، باللؤلؤ المنثور ، تشبيه غير مألوف وليس قريبا إلى الذهن ، وهو قلما يخطر ببال بليغ ، ثم هو أعظم دلالة على ماوهب هؤلاء الولدان من شباب وجمال وسحر .

وعندما استطرد الزمخشرى ، إلى مااستطرد إليه من قصة المأمون لايريد بذلك مجرد استطراد ، إنما يريد أن يوقفنا على صور أدبية عديدة تدور فى تلك الآية وبلاغتها وتشتق من جمالها وفصاحتها ، وكأنما ترك الزمخشرى حديث الموازنة ليدلنا على رفعة منزلة القرآن فى تعبيره ونظمه .

ومن مثل الموازنة الأدبية فى الكشاف ماذكره الزمخشرى فى الآية: « ولقد مكناهم فيما أن مكناكم فيه (١) » ، يقول : أن نافية إلا أن - أن أحسن فى اللفظ لما فى مجامعة - ما - مثلها - من التكرير المستبشع ومثله مجتنب ، ألا ترى أن الأصل فى « مهما » — ماما — فلبشاعة التكرار قلبوا الألف هاء ، ولقد غث أبو الطيب فى قوله ( لعمرك ماما بأن منك لضارب ) وماضره لواقتدى بعذوبة لفظ التنزيل .

ومما ذكره من الاشارة إلى الموازنة ، كذلك ماذكره من الموازنة بين الآية الكريمة « أنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر »(٢) وبين قول أبى العلاء المعرى :

حمراء ساطعة الذوائب فى الدجى
ترمى بكل شرارة كطراف

فشبهها بالطراف وهو بيت الأدم فى العظم والحمرة ، وكأنه قصد

---

(١) تفسير الكشاف ج / ٣ ص ١٢٤ الاية ٢٦ من سورة الاحقاف .

(٢) تفسير الكشاف ج / ٣ ص ٣٠٣ الاية ٣٢ ، ٣٣ من سورة المرسلات .

بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن ويتبجحه بما سول له من توهم الزيادة جاء فى صدر بيته بقوله « حمراء » توطئة لها ومناداة عليها وتنبيها للسامعين على مكانها ، ولقد عمى ، جمع الله له عمى الدارين عن قوله عز وعلا ( كأنه جمالات صفر ) فانه بمنزلة قوله : كبيت أحمر وعلى أن فى التشبيه بالقصر وهو الحصن،تشبيها من جهتين ، من جهة العظم ومن جهة الطول ، وفى التشبيه بالجمالات ، وهى القلوص ، تشبيه من ثلاث جهات : من جهة العظم والطول والصفرة ، فأبعد الله أغرابه طرافة وما نفخ شدقيه من استطرافه .

كذلك ماذكره فى الآية « أولئـــك الذين اشتروا الضلالة بالهدى[١] » حيث يقول : فان قلت : هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازا ، فى معنى الاستبدال فما معنى ذكر الربح والتجارة ، كأن ثم مبايعة على الحقيقة ؟ قلت : هذا من الصنعة البديعية التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقفى بأشكال وأخوات ، إذا تلاحقن لم تر كلاما أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقا ، وهو المجاز المرشح . .

٣ — يفيض الزمخشرى فى تحليل أساليب القرآن وبلاغته تحليلا أدبيا رائعا ، وذلك شاهد بذوقه الأدبى الرفيع ومن مثل ذلك ماذكر فى تفسير الآية « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » حيث يقول هذا كلام فصيح لما فيه من الغرابة ، وهو أن القصاص قتل وتفويت الحياة ، وقد جعل مكانا وظرفا للحياة وبعد اصابة محز البلاغة بتعريف

---

(١) تفسير الكشاف ج / ١ ص ٢٥٣ الآية ١٧٩ من سورة البقرة .

القصاص وتنكير الحياة .. الخ(١).

٤ — والزمخشرى لايتعصب للشعر القديم وحده بل أنه يساوى بين الشعر الحديث والقديم مادامًا يكتسيان بحلى البلاغة وخصائصها ، ويبعدان الخطأ عن الخطأ فى التعبير والبيان وذلك فى عصر كان البعض يتعصب للقديم وحده والبعض للجديد وحده ، إلا أن الزمخشرى نأى بنفسه عن أن يكون متعصبا للقديم على الجديد ولا للجديد على القديم ، وليس أدل على ذلك من أنه يستشهد فى تفسيرة بأشعار المحدثين كثيرا ، فيستشهد بشعر لأبى نواس :

ليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم فى واحد

ويستشهد بقول أبى النواس كذلك :

اسقنى حتى ترانى
حسنا عندى القبيح(٢)

ويستشهد بشعر له وهو :

يا من يرى مد البعوض جناحها
فى ظلمة الليل البهيم الاليل(٣)

وهو لايذكر اسمه ويكتفى بقوله وأنشدت لبعضهم ـ وكذلك يستشهد بشعر له حيث يقول : ولبعض المجاورين :

فمن يلق فى بعض القريات رحله    فأم القرى ملقى رحالى ومنتابى(٤)

(١) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٢٥٣ الاية ١٧٩ من سورة البقرة .
(٢) تفسير الكشاف ج : ٢ ص ١/٥ ، ٢٢١ .
(٣) تفسير الكشاف عند قوله تعالى « أن الله لايستحى أن يضرب مثلا .. الخ .
(٤) تفسير الكشاف آية ٢٦ سورة البقرة .

ويستشهد بشعر المتنبي وعضد الدولة وسواهما في تفسيره[1] وذلك كله دليل على أن منهج الزمخشري الأدبي كان لا يميل لعصبية على شعر المحدثين ولا لعصبية كذلك على شعر الأقدمين ، وإنما كان يقف في المنزلة الوسطى يخص باستحسانه وإيثاره كل ما أجاد قائله فيه .

* * *

(١) تفسير الكشاف ج ٣ : ص ٣٦٥ .

# الباب الثانى

# الاتجاهات اللغوية عند الزمخشرى

# الفصل الأول

## مقامات الزمخشري
## وإتجاهه اللغوى فيها

— ١ —

للزمخشري كتابه « المقامات » وهي مقامات مشهورة وعددها خمسون مقامة، وتتفاوت في القصر والطول، وأسلوبه فيها يجري على نهج أسلوب أصحاب المقامات من معاصريه وفي مقدمتهم الحريري صاحب المقامات الذائعة.

وله كذلك مقامات كثيرة سماها « أطواق الذهب » وكلامنا هنا يشمل، المقامات، والأطواق، التي هي من أنواع المقامة التي تمتاز بالقصر والايجاز الشديد.

ومن الجدير بالذكر أن مقامات الزمخشري تتسم بطابع ديني وعظي وتخلو من الحوار والعقدة ومن خصائص الفن القصصي في الأدب العربي، وسوف نتناول هنا الاتجاه اللغوي عند الزمخشري في مقاماته لأن ذلك يرشدنا إلى جوانب كثيرة في البحث.

— ٢ —

طبعت مقامات الزمخشري طبعات مختلفة مع شروح وتعليقات وتحتوي على المقامات التالية:

مقامة الراشد، مقامة التقوى، الرضوان، الارعواء، الزاد، الزهد الانابة، الحذر، الاعتبار، التسليم، الصمت، الطاعة، المنذرة، الاستقامة، الطيب، القناعة، التوقي، الظلف، العزلة، العفة، الندم، الولاية، الصلاح، الاخلاص، العمل، التوحيد، العبادة، التصبر، الخشية، اجتناب الظلمة، التهجد، الدعاء، التصديق، الشكر، الأسوة، النصح، المراقبة، الموت،

الفرقان ، النهى عن الهوى ، التماسك ، الشهامة ، الخمول ، العزم ، الصدق ، النحو ، العروض ، القوافى ، الديوان ، أيام العرب .

وهى خمسون مقامة — بعدد مقامات الحريرى — وجلها تدور كما ذكرنا حول الدين والأخلاق والفضائل ، وتمثل نهجه فى الحياة ، والمقامات الخمس الأخيرة وان تحدثت عن النحو والعروض ، والقوافى ، وأيام العرب والديوان ، فأنه ينحو بها نحوا دينيا ، ويضمنها اصطلاحات كثيرة ، وتوريات جميلة ، ولا شك أن هذه المقامات تمثل كما أسلفنا مذهب أبى القاسم الزمخشرى الأدبى تمام التمثيل ، من حيث الأسلوب ، والصياغة ، والتعبير الفنى ، كما تمثل طابعه اللغوى .

والمقامة فى اصطلاح علماء الأدب ، هى لون من ألوان القصة القصيرة أو فن من الانشاء البليغ المنمق ، يروى على لسان امرىء خيالى فى الغالب ، يحكى قصة وقعت فى لسان الأكثر بتخيلهم الكاتب بطائفة ويضع على ألسنتهم عبارات يتفصح فيها ما استطاع فيلتزم فيها السجع غالبا ويوشيها بحلى البديع ، واناقته ، ويودعها ما شاء من طرفة أدبية أو مسألة علمية أو ملحة فكاهية أو تصوير لحالة اجتماعية مع ما يتبع ذلك من وصف الأماكن والأشخاص ، والأخلاق ، والنفوس .

على أن المقامة عند الزمخشرى لا تشمل هذه الجوانب القصصية المعروفة عند البديع والحريرى واضرابهما ، كما سبق أن ذكرنا انه جعل طابعها طابعا وعظيا محضا وباعد بينها وبين الحوار والعقيدة وجعلها خطابا لنفسه فحسب

وفن المقامة على أية حالة نشأ ونما وازدهر على يدى البديع والهمذانى ( م ٣٩٨ هـ ) كما يذهب اليه أكثر العلماء وان قيل انه سبق بأحاديث

ومجالس قصصية لأبى بكر بن دريد ( م ٣٢١ هـ ) وبمقامات الامام اللغوى أحمد بن فارس ( م ٣٩٠ هـ ) .

وظهر بعد البديع كثيرون ممن كتبوا المقامات ومنهم / ابن باقيا البغدادى ( م ٤٨٥ هـ ) وأبو الهيجاء الأصفهانى ( م ٥٣٠ هـ ) وله مقامات ألفها ( عام ٤٩٠ هـ ) وابن نباته السعدى ( م عام ٤٠٥ ) وغيرهم إلى أن ظهر الحريرى بمقاماته المشهورة المأثورة وقد توفى عام ( ٥١٦ هـ ) .

ويعد الزمخشرى من كتاب المقامات المشهورين الذين عاصروا الحريرى ولكنه كتب مقاماته بعد أن كتب الحريرى مقاماته بمدة قليلة فقد ألف الزمخشرى بعض المقامات قبيل عام ٥١٢ هـ — وأكملها بعد هذا العام كما جاء فى خطبة مقاماته ، ويذكر الزمخشرى أن سبب انشائها أنه رأى فى منامه من يقول له : يا أبا القاسم أجل مكتوب وأمل مكذوب، فاستيقظ من منامه فزعا مما سمعه ، وأخذ يكتب ، مقامة جاء فيها هذه الكلمات وهى « مقامة الرضوان ، ثم كتب مقامات قلائل وتوقف حتى كان عام ٥١٢ هـ ، وهو عام العزلة فى حياته فأخذ ينشىء بقية مقاماته ، حتى أكملها خمسين مقامة يعظ فيها نفسه وينهاها ، ويلتزم فيها انتقاء اللفظ واحكام السجع ، وتفويف النسج وابداع النظم ، واختيار المعانى التى تؤدى غرضه ، وتوضح هدفه ، كما جاء فى مقدمة هذه المقامات .

— ٣ —

« أطواق الذهب » للامام الزمخشرى، هو أيضا لون ألوان المقامات، وسماه الزمخشرى « أطواق الذهب » فى المواعظ والخطب ( وفى مقدمته يشير الزمخشرى إلى أنه ألفه فى مكة حيث يقول : فى مناجاة الله :

« واصطنعتنى بالنقل إلى أحب بلادك اليك وأعزها وأكرمها عليك ،

وحليتني بدملج الفخر وسواره حين شرفتني بحج البيت وجوارك ، .... وأرغب اليك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ،.. لأنها وجدت فى حرمك المطهر ، وولدت فى حجر بيتك المستر » .

ومقامات « أطواق الذهب » التى سماها الزمخشرى « مقالات » وجعلها مائة مقالة تمتاز بقصرها ، وبأن موضوعها هو الوعظ والنصح والارشاد ، وليس لها بطل ولا راوية ، وليست كذلك من اللون القصصى وكأنها نقل لفن المقامات وتطوير أسامى لها ، ولا نظن ان احداً سبق الزمخشرى إلى مثل أسلوبها فى الوعظ ومن مثلها ما جاء فى المقالة الرابعة والثمانين حيث يقول : « يا مغرور لا عمل مبرور ، ويا شقى لا صدر نقى ، ويا غدير غدبرك كله كدر مثلك لا يرضى به أحد ـ فهل يرضى به الأحد الصمد ؟ وتمتاز كالمقامات بالسجع وقصر الفقرات وكثيرا ما يلتزم فيها ما لا يلزم من الحرف الذى قبل حرف السجع ، وتكثر فيها الصدمة البديعية من الطباق والمقابلة ، والجناس وما اليها ، وتبلغ فيها الصنعة الفنية غايتها ، اقرأ مثلا مقامته التاسعة والثمانين : « إلا أن حق الثناء لمن له حق الثناء ، ولا أعلى من رب العرش وأسنى ولا أحسن من أسمائه الحسنى ، فاستفرغ فى تمجيده طوقك واجتهد أن لا يكون ممجد فوقك » حيث تجد اجتهادا فى الجناس ، ومراعاة النظير والسجع ، وغيرها من ألوان البديع .

— ٤ —

ويبدو من الاتجاه اللغوى عند الزمخشرى فى مقاماته هذه وتلك عدة خصائص ، أهمها :

أولا ــ اجتهاده فى البعد بأسلوبه عن التعقيد ، والغموض والغرابة ، والوحشية ، وايثاره الألفاظ السمحة ، الكريمة المتميزة التى لا تضيق صدرا

بتنافر الحروف ، والخروج عن التأليف اللغوى ، أو النحوى ، ويبدو من هنا أن مذهب الزمخشرى كان ينأى عن الغموض فى مفردات اللغة ، وحشرها فى أسلوبه ، لأنه كان يريد الافهام ، والابانة ، وهو فى ذلك يخالف الحريرى كثيرا وقد يكون لاختلاف بيئة الرجلين أثر فى ذلك ، فالزمخشرى عاش فى بيئة خوارزم وما حواليها ، وأقام حينا بعد اكتماله اللغوى فى مكة والحريرى عاش زمنا بين الأعراب فى البصرة وباديتها وحول مشارف الصحراء المطلة على العراق وتبدو سماحة ألفاظ الزمخشرى فى « أطواق الذهب » أكثر مما تبدو فى المقامات ، حيث نجد فى الكثير الغالب وضوح الأسلوب وعدم غرابة الألفاظ وتميز المفردات ، كما يقول مثلا فى المقالة التى منها « ما أسعدك لو كنت فى سلامة الضمير » ، كسلامة الماء النمير ، ( وأيضا كما يقول فى المقالة السادسة والثمانين « ليتهم إذ لم يأمروا بالمعروف لم يتكبوه ، وإذ لم ينهوا عن المنكر لم يرتكبوه .

أما فى المقامات فيسير فى هذا المضمار وفى القليل تجىء ألفاظ تشبه ألفاظ الحريرى فى مقاماته وهى وان كانت فصيحة إلا انها تحتاج إلى الكشف عن معناها فى المعاجم ففى مقامة الموت مثلا نجد ألفاظ سهلة حيث يقول « يا أبا القاسم لقد صحبت طويلا رجالات قومك ، وكأنك رأيت فى خيالات نومك تلتقطهم أيدى المنون فرادى ومثنى ، وكأنهم لم يتدبروا دارا ولم يغنوا بمغنى .. الخ » الألفاظ الواضحة ، التى هى مثل لأكثر ألفاظ المقامات وأساليبها ، وفى مقامة الزاد يقول : يا أبا القاسم اترك الدنيا قبل أن تترك واتركها — أى ابغضها — قبل ان تتركك ، طلق القائلة بملء فيها : أنا غدارة ، غرارة ختالة ختارة ... » فنجد ألفاظا تعلو عن ألفاظ الأولى ، من حيث البعد عن الألف اللغوى القريب ، وفى مقامة

التوحيد يقول : « سحاب تنشئها القبول ، وتلقحها ، وتمر أخلافها الجنوب وتمسها ، وأرض مذللة لراكبها ، مقتلة الهشى فى مناكبها ) فنجد الأساليب بعض البعد عن الفنا اللغوى . وهكذا نجد الزمخشرى فى أغلب الأمر يحاول أن يقرب فى ألفاظه وأساليبه اللغوية من فهم عصره «اللغوى» وأن لا يبتعد كثيرا عنه ، وهو فى هذا يطوع اللغة ويسهلها ويقربها،لالسنة المتحدثين والناشئين ، وعجب هذا الرجل الفذ أن تكون غايته فى أسلوبه وبيانه وتعبيره ، هى هذه الغاية الكريمة .

ثانيا — جارى الزمخشرى عصره فى جعل البديع ، وألوانه أساسا للتعبير اللغوى عن أغراضه من الكلام ، وفى الحق أن أصحاب عصر الزمخشرى كانوا ينظرون إلى البديع نظريه لغوية حيوية فهو أساس من أسس التعبير والأسلوب ، ولم يقصر الزمخشرى من عصره فى هذهالسبل ، فقد حرص على أن تكون ألفاظه وأساليبه مصبوغة بصبغة بديعيةظاهرة ، لأن صنعة البديعية كانت ، ركنا من أركان الحيوية اللغوية ، فى عصره وعند الزمخشرى كذلك ، ويبدو أن الأدباء والعلماء كانوا يتجهون بأسلوبهم إلى أن يكون مادة تعلق بذهن الأدباء والمتأدبين ومنه يستمدون ثقافتهم ، فاتجاههم الأدبى واللغوى كان إلى حلقات الدراسة ومجلس العلم ، وإلى طلابه ، أكثر مما كان يهدف إلى فكرة المدارس الأدبية واللغوية ، وإذا قرأنا الزمخشرى من مقامة « الديوان » قوله : ياأباالقاسم أخلع من رقبتك ربقه المطامع ، واقتحامك عقبة صعبة المطالع ، إلا أنخلع هذه الربقة من الرقبة هى العقبة « وجدنا كيف يحرص الزمخشرى على الجناس ، والسجع ، والاستعارة حرصا شديدا ، وكيف يجعل من الفن البديعى أساسا لتعبيره اللغوى ، وكذلك عندما تقرأ من المقالة الرابعة

والثلاثين من « أطواق الذهب » قوله : « لاتقنع بالشرف التالد ، وهو الشرف للوالد ، واضمم إلى التالدطريفا ، حتى تكون بهما شريفا ،ولاتدل بشرف أبيك مالم تدل بشرف فيك ، أن مجد الأب ليس بمجد ، إذا كنت فى نفسك غير ذى مجد ، الفرق بين شرفى أبيك ونفسك كالفرق بين رزق يومك وامسك ، ورزق الأمس لايسد اليوم كبدا » نجد نفس الخصائص اللغوية فى أسلوب وتعبير الزمخشرى ، ومن حيث سلوك طريق البديع ، وجعله أساسا لمادته اللغوية مع صحب ذلك من بعده عن التكلف البديعى وقربه إلى الطبع واجتهاده فى تعبيد التعبير وترويضه ، حتى يجىء سهلا سلسا مقبولا غير ناب على الاذواق .

ثالثا — ولنفاذ الزمخشرى فى اللغة وعلومها مع تبحره فيها وتقدمه فى دراستها اتخذ من الاصطلاحات فى علوم العربية مادة لتعبيره اللغوى ، وذلك من حيث وجهة نظره ولاريب ، مما ينمى اللغة ويظهر تفوق الناطق بها ، ففى مقامته « النحو » يعبر بشتى اصطلاحات النحو ، عن اغراضه فى الزهد والموعظة ،وفى مقامة « العروض » كذلك يتخذ من اصطلاحات العروض مادة لغوية ثرية ، وكذلك صنع فى مقامة ( القوافى ) أما فى مقامة الديوان ، فقد ملأها بمصطلحات الدواوين والكتابة فى أعمال الدولة — مما يدل على أنه كان يحسن العمل فى الدواوين كما كان يحسن التأليف وغيره ، وذلك يدلنا دلالة واضحة على جانب من جوانب تجديد الزمخشرى اللغوى هذا التجديدالذى يرى أن يساوى باللفظ القوى الأصيل اللفظ المعرب الدخيل ،وأن يتخذ منهما معا مادة لغوية يثرى بها الأسلوب والأداء .

رابعا — يجتهد الزمخشرى فى التقريب اللغوى، والمزج بين لغة الأدب، ولغة الشعب التى هى لغة التخاطب، وأساس ذلك أن يرد الأديب لغة الأدب إلى قريب من لغة التخاطب، وأن يسمو بلغة التخاطب إلى حيث تقرب من لغة الأدب، ومظهر ذلك تعبيراته فى مقاماته، ففى مقامة « الظلف » نجده يقول : يا أبا القاسم ليت شعرى أين يذهب بك عن ثمرة علمك وأدبك، ضلة لمن رضى من ثمرة علمه بأن يشاد بذكره وينمو بأسمه إلى أن يقول وأقبل على العلم يبوس الأرض بين يديه وعلى الأدب يعتنقه ويلثم خديه بعدما كان يتطير منهما ويسمى التشاغل بهما حرمانا وحرفة، ويتمنى الجهل والنقص ويحسبهما سببى النعيم والترفه يقول بملأ فيه : بارك الله فى العلم والأدب، هما خير من كنوز الفضة والذهب، ثم يستمر فى أسلوبه حتى يقول : ومازالت البركة فى الحركة لقد صح قولهم الحركة ولود والسكون عاقر، وفى آخرها يقول : ولله عبد لم يطرق باب ملك ولم يطأ عتبته، ولم يلمح ببصره مرتبته، ولم يعرف حسابه ولا كتبته، ولم يصف قدميه، إلا بين يدى الملك الجبار، جابر ما كسرته الجبابرة، وكاسر ما جبرته الأكاسرة، فنجد فى هذا النص صدى كبير للغة التخاطب حتى فى عصرنا الراهن، من مثل قوله : « يبوس الأرض » بين يديه وقوله ( البركة فى الحركة « ثم نجد كذلك أساليبه الأخرى هنا تقرب من لغة الدراجة ولا تعتلى قمة التقيد والغرابة وفى مقامة ( الارعواء ) يقول « اكفف قليلا من غرب شطارتك » والشطارة هى هى كما نستعملها نحن فى تخاطبنا اليومى، ويقول فى مقامة « الاستقامة » والسحابة الصيفية مطرتها خفيفة — والمطرة — هى مما نستعملها كثيرا فى لغتنا الدارجة، إلى غير ذلك مما يدلنا على طريقته ومذهبه فى التقريب اللغوى بين لغة البيان ولغة الحياة .

خامسا — وفى مقامات الزمخشرى يكثر من الأقتباس اللغوى من القرآن والأحاديث وأمثال العرب . وذلك على أية حال مما يؤدى إلى غنى لغة الأديب وثرائها ففى مقامة ( المراقبة) يقول « ويحك أيها الخاسر البائر الذى انقضت ظهره الكبائر »وهو هنا يقتبس من الآية الكريمة(ووضعنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك )وفى مقامة ( الفرقان ) يقول « ياأباالقاسم، أجعل كتاب الله نجيك : هو حبل الله المتين وصراطه المستبين . . . حبل يعصم من اعتصم بمعاقلة ويقصم ظهر العادل عنه بجنادله . . . . الخ آخر هذه المقامة التى اقتبس الكثير من الأسلوب فيها من الحديث النبوى الشريف فى وصف بلاغة القرآن ، ( وفى مقامة النهى عن الهوى ) يقول : « يا أبا القاسم إن الذى خلقك فسواك ركب فيك عقلك وهواك... »وهو اقتباس من القرآن الكريم كذلك . . . ومقامته ( أيام العرب ) تشبه الرسالة الجدية لابن زيدون الأندلسى ، وهى حافلة بالاقتباس من أمثال العرب وأخبارها المشهورة وأيامها المأثورة وذكر العديد من الاعلام .

وفى المقالة السادسة والثلاثون من أطواق الذهب يقول « كب الله على مناصرة من زكى نفسه بمفاخره » والجملة الأولى مقتبسة من الحديث الشريف ، وكذلك يقول فى مقامة ( الشكر ) « وهداك النجدين » وهو نص أسلوب القرآن وكأنما يصف الزمخشرى أسلوبه اللغوى فى وصفه لبلاغة القرآن وأسلوبه حيث يقول : « ونظرت فى سلامة سبكة المستغرب وسلاسة مائه المستعذب ورصانة نظمة المرصف : ومتانة نسجه المفوف ، وغرابة كنايته ، ومجازه ، وندرة أشباعه وإيجازه وروعة إظهاره وأضماره وبهجة حذفه وتكراره وإصابة تعريفه وتنكيره ، وأفادة تقديمه

وتأخيره ودلالة إيضاحه وتصريحه، ودقة تعريفه وتلويحه « وحلاوة مباديه ومقاطعه وفصوله، ووصوله .... الخ[١] » .

وهذه موازنات بين مقامات الزمخشرى، وبين فصول ومقامات مأثورة لغيره من الأدباء :

**بين الزمخشرى والحريرى والمعرى :**

١ — للزمخشرى مقامة مشهورة عنوانها « مقامة فى النحو » كذلك للحريرى مقامة معروفة بعنوان « القطيعية » أكثر فيها من إصطلاحات النحو، وقد سبقهما أبو العلاء المعرى فى الفصول والغايات حيث أتى بكثير من اصطلاحات النحو فى فصوله التى سوف نذكر بعضا منها :

( أ ) يقول المعرى[٢] « أن الشيئين يتشابهان فينقلهما التشابه إلى الاتفاق، كان المكسورة المشددة اشبهت الأفعال فجاء بعدها اسمان، آخرهما كالفاعل وأولهما كالمفعول وكذلك ما قاربها من الأدوات، لاتجعلنى رب معتلا كواو يقوم ولامبدلا كواو موقن تبدل من الياء ولاأحب أن أكون زائدا مع الاستغناء كواو « جدول » و « عجوز » فاما واو عمرو فأعوذ بك رب الأشياء .... الخ .

(ب) ويقول الحريرى فى « القطيعية » ملغزا باصطلاحات النحو « ما كلمة هى أن شئتم حرف محبوب، أو اسم لما فيه حرف حلوب وأى اسم يتردد بين فرد حازم، وجمع ملازم، وأية هاء إذا ألتحقت اماطت الثقل، وأطلقت المعتقل، وأين تدخل السين فتعزل العامل، من غير أن

---

(١) مقامة الفرقان من مقامات الزمخشرى .

(٢) الفصول والغايات صفحة ١٤٢ .

تجامل ، ومامنصوب أبدا على الظرف ، لايخفضه سوى حرف ، وأى مضاف أخل من عرى الاضافة بعروة ، واختلف حكمه بين مساء وغدوة وما العامل يتصل آخره بأوله ، ويعمل معكوسه مثل عمله ، وأى عامل نائبه أرحب منه وكرا ، وأعظم مكرا ، وأكثر لله تعالى ذكرا[١] .

( ج ) ويقول الزمخشرى فى مقامته النحوية[٢] : « لايكونن ضميرك عن الهم الدينى ساليا ، كما لا يكون أفعل من الضمير خاليا وعوضه من تلك السلوة ذلك إلهم ، كما عوضت الميم من حرف النداء فى اللهم ، وقف لربك على العمل الصعب الشديد كما تقف بنو تميم على التشديد ، وأثبت على دين الحق الذى لايتبدل ولايحول ثبات الحركة البنائية التى لاتزول ، ولاتكن فى الترجيح بين مذهبين ، كالهمزة الواقعة بين بين ، فانظر إلى السود والبيض كيف تعتقب على ماتحت السماء اعتقاب العوامل المختلفة على الأسماء ، فانك لاترى شيئا إلا مستهدفا للحوادث والنوائب . كما ترى الاسم عرضة للخوافض والروافع والنواصب » .

ومن هذه النصوص الثلاثة نجد اتجاها واحدا يدور حول مصطلحات العلوم والألغاز بها وقد غالى فى هذا الجانب أبو العلاء المعرى أثناء صناعته للفصول والغايات غلوا بعيدا إذ نراه يحاول أن يرد كثيرا من أفكاره إلى علل أصحاب النحو والعروض ومصطلحاتهما ، وكأنما اعياه التفكير المستقيم الصحيح فهو يفزع إلى النحو والصرف ومايتصل بهما يحاول أن يفسر آراءه ، ومشاكله[٣] وقد يكون عذر المعرى فى

---

(١) مقامة « القطيعية » من ٢٤٠ من مقامات الحريرى ط الحسينية .

(٢) المقامة النحوية . من مقامات الحريرى .

(٣) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ـ الدكتور شوقى ضيف ص ٢١٠ .

ذلك أنه صاحب تفكير فلسفى وأسلوب منطقى عميق وأنه يحاول بهذا التفكير أن يبعد أفكاره عن الجماهير ممن عاصروه إذ لم يكن فى مأمن ، من عدوان هذه الجماهير وطغيانها بحجة اتهامه بالزندقة والالحاد وما إليهما فضلا عن خوفه كذلك من بطش الحاكمين الذين طالما كانوا ينتقمون من أصحاب التفكير الحر عندما يقرن اسمهم باسم الزندقة وما إليها .

أما الحريرى ، فقد كان مذهب التصنيع[1] هو غايته ووكده وكان كثيرا مايعتمد على الوشى الفنى وعلى الألغاز بالاصطلاحات ، فى أسلوبه، اظهارا لمقدرة أو اشهارا لموهبة ، أو تفخيما لمكانته بين أدباء عصره ، وكذلك فعل فى النص الذى نقلناه عنه ، فاعتمد على الألغاز يشهر به قدرته ومنزلته بين طبقته من أدباء عصره .

أما الزمخشرى ، فقد جاء بأسلوب الوعظ الدينى فى مقامته واستدل لحجج ، هذا الوعظ ومنطقه باصطلاحات النحو وأحكامه وعلله .

ولاشك أن المعرى كان رائدا لهما فى هذا المضمار وأنه كان أعمق فكرة ، وأبعد مذهبا .

٢ — وللمعرى كذلك فى الفصول والغايات ، أساليب عرض فيها لاصطلاحات فن العروض[2] واستدل بها وأخذ منها ، ومن ذلك قوله : « ومن كان فيه خير وشر ـ والشر عنده أكثر فهو فى الدول كالجزء الأول . أما خبنه فخفى وأما غيره فبين جلى . والله ساتر العيوب ، ومن

---

(١) النثر الفنى ومذاهبه ـ الدكتور شوقى ضيف ص ٢١٤ إلى ٢٢٠ .

(٢) الفصول والغايات ص ١٤٤ .

اعتدل أمراه من بطء وأزج ، كان كالجزأ الثالث من الهزج ، يدركه نقصان ، وأى الخالق عن ذلك يصان ، أحدهما خاف والآخر ذو انكشاف ، ومن وفقه خالق التوفيق كان كالجزء من الرجز ، لا يعلم إذا عجز ، أى نقص دخله هان على حس السامع فاحتمله . ووجدت الجزء الاخرم ، كمسىء فى غير دار ، غير أنه اسند إلى جدار ، فهو لذلك مبين الخرمات .

وقد شرح الدكتور شوقى ضيف فى كتابه « الفن ومذاهبه فى النثر » ماحوته الفصول والغايات من تعقيد أبى العلاء وطاقاته الجديدة فى الأغراب والتعمق فى تصعيب الأداء ومايذكره من أشياء لاتتصل بدوائر الفن من حيث هو إنما تتصل بعلوم اللغة وهذا هو معنى أن أبا العلاء عقد لغته فى نثره تعقيدا شديدا[1] .

وكذلك فعل الزمخشرى فى مقامته التى سماها « مقامة العروض » ومن فصوله فيها : « وإن وجد فى شعرك كسر أو زحاف ، أو وقع بين مصاريه خلاف ويلك وإن كنت من أهل الفضل والحزم ، فلا تهتم بنقصان الخرم وزيادة الخزم ، ولاتفكر فى الاثلم والاثرم والأخرب والأخرم » .

ومن هذا نجده يتتبع مذهب أبى العلاء ويسير على نهجه مع كثير من العناية بالتعداد والسرد ، ولاشك أن المعرى كان أستاذه ورائده فى هذا المضمار ، وكذلك يفعل الزمخشرى فى مقامته الأخرى التى سماها مقامة القوافى على نحو من التصنيع والتطريز .

---

(١) النثر الفنى — الدكتور شوقى ضيف ص ٢١١ وراجع مذهب التعقيد فى الفصول والغايات فى نفس المرجع ص ٢٠٣ إلى ٢١٣ .

# الفصل الثاني

# أساس البلاغه
# والاتجاه اللغوى السائد فيه

هذا المعجم اللغوى الذى ألفه العلامة جار الله أبو القاسم الزمخشرى ينطق بشخصية هذا الامام الجليل العلمية ويكشف عن مواهبه الفذة التى وعت شتى علوم العربية ودراستها ، ولهذا المعجم شهرة فائقة لجدة موضوعه وطرافة أسلوبه ، وحسن عرضه وتبويبه وجمعه اللغة والبلاغة فى اطار واحد، فهو إذ يتحدث عن اللغة يضم شتى المعانى الحقيقية والمجازية والاستعمالات الجديدة المادة نفسها ، ويشرح الزمخشرى فى مقدمة « أساس البلاغة » أهمية هذا الكتاب العلمية فيقول — بعد الافتتاح والتنويه بالقرآن الكريم واعجازه : — « كتاب أساس البلاغة كتاب لم تزل عيون الأفاضل نحوه روامق ، وألسنتهم بتمنيه نواطق فليت له العربية وما فصح من لغاتها، وملح من بلاغاتها ، وما سمع من الاعراب فى بواديها ، ومن خطباء الحلل فى نواديها ، ومن قراضبة نجد فى أكلائها ومراتعها ، ومن سماسرة تهامة فى أسواقها ومجامعها ، وما تراجزت به السقاة على أفواه قلبها ، وتساجعت به الرعاة على شفاه علبها ، وما تقارضته شعراء قيس وتميم فى ساعات المماتنة ، وما تزاملت به سفراء ثقيف وهذيل فى أيام المفاتنة ، وما طولع فى بطون الكتب ومتون الدفاتر من روائع ألفاظ مفتنة ، وجوامع كلم فى أحشائها مجتنة ، ومن خصائص هذا الكتاب تخير روائع ما وقع فى عبارات المبدعين، وانطوى تحت استعمالات المفلقين ، أو ما جاز وقوعه فيها ، وانطواؤه تحتها من التراكيب التى تملح وتحسن ، ولا تنقبض عنها الألسن ، ومنها التوقيف على مناهج التركيب والتأليف وتعريف مدارج الترتيب والترصيف، بسوق الكلمات متناسقة لا مرسلة بددا ، ومتناظمة لا طرائق قددا ، مع

الاستكثار من نوابغ الكلم الهادية إلى مراشد حر المنطق الدالة على منطق مفلق ، ومنها تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح بأفراد المجاز عن الحقيقة والكناية عن التصريح .. الخ » .

والزمخشرى بهذا يبين لنا أهم خصائص الكتاب وميزاته التى كان من أجلها أثرا نفيسا قيما لم يسلك سبيله فيه أحد من السالفين ، وأهم ميزة له هى تفريقه بين الحقيقة والمجاز فى استعمالات الكلمة ومدلولاتها كما صرح بذلك الزمخشرى نفسه ، ويبدأ الزمخشرى فى كتابه ببيان المعانى الحقيقية للكلمة ثم يردف ذلك ببيان الاستعمالات المجازية لها وكانت الاستعمالات المجازية مقصودة للزمخشرى فى « الأساس » قصده إلى المعانى الحقيقية ، لأن فهمها سبيل إلى فهم بلاغة القرآن ، لاختلاف الناس فى عصر الزمخشرى ، فى فهم المعانى المجازية للالفاظ والأساليب ، وخاصة فى بيئة بعيدة عن موطن العربية كخوارزم .

وينظر بعض الباحثين إلى الأساس نظرتهم إلى معجم أدبى [1] أكثر منه باعتباره معجما لغويا ، فقد جمع الزمخشرى فيه الكثير من التعابير الحقيقية والمجازية وأكثر التعابير الأدبية ، كانت فى الأقسام المجازية وأقلها كانت فى جانب الحقيقة . ويعنى الزمخشرى بالعبارات البليغة فى كتبه كثيرا ومن بينها الكشاف والفائق والمستقصى والكلم النوابغ . ومع ذلك فاننا ننظر إلى الأساس أولا باعتباره معجما لغويا يتحدث عن معانى المفردات والتراكيب ، والجانب الأدبى منه ليس مقصودا لذاته انما المقصود الأول هو شرح المعانى اللغوية ، فالجانب اللغوى من الأساس هو الذى يعنى الباحثين والقارئين ، وهو الهدف من تأليف الأساس وإذا كانت

---

(١) راجع صفحة ٦٦٩ ، ٦٧٢ من كتاب المعجم العربى للدكتور نصار ج ٢ .

المعاجم اللغوية كلها تخدم هذا الهدف فالأساس من بينهـا تعظم أهميته وقد يقال أن الأساس معجم بلاغى [1] إلا أن الجانب البلاغى كالجانب الأدبى يجىء فى المنزلة التالية من منهج الكتاب اللغوى .

وكثيراً ما يأتى الزمخشرى بالمعنى المجازى مسبوقا بكلمة «ومن المجاز» وقد يأتى بها مسبوقة بكلمة « ومن المستعار » [2] أو بكلمة « ومن الكناية » [3] والتعابير الثلاثة مترادفة ، والمراد من الأخيرين ما هو بمعنى المجاز : استعارة أو تمثيلا على سبيل الاستعارة أو مجازا لغويا .

والحقيقة بمعنى الكلمة المستعملة فيما وضعت له ، أو استعمالها فى المعنى الموضوعة له يقابلها المجاز ، وهو الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له أو استعمالها فى غير المعنى الموضوعة له ، والزمخشرى لا يريد المجاز خاصة بذلك ، إنما يريد به ما يشمل الكناية كما فى مادة « ا ، ب ، ى » حين عد من المجاز مثل قولهم « أبو العمامة للكبير العمامة » ومثل كلمة « أوابد الشعر » وهى كناية عن الأبيات الرائعة منه وكثير من المجازات التى يذكر الزمخشرى نعدها حقيقة لغوية لشهرتها فى المعنى المستعملة فيه مثل قولهم « أبّنت فلانا » ففى الأساس ما فى مادة « ا ، ب ، ن » ومن المجاز ابّنه إذا مدحه وعد محاسنه وقد غلب فى مدح النادب تقول « لم يزل يقرظ أحياكم ويؤبن موتاكم ».

وقد يأتى الزمخشرى بالاستعمالات المجازية مسبوقة بلفظة « ومن المجاز والكناية [4] » والعطف هنا حرف عطف مرادف .

(١) راجع صفحة ٦٥٤ ، ٦٥٦ من المصدر السابق ... — ح ٢ .

(٢) أنظر مواد : عجز ، وعد ، عذم ، عرف ... الخ .

(٣) أنظر مواد : أخر ، جمع ، سوأ ، صدف ... الخ

(٤) راجع مادة : « ن ، ج ، و » حيث يقول الزمخشرى فيها : ومن المجاز والكناية : انك من حيث ذلك الأمر بنجوة اذا كان بعيدا منه بريئا سالما ... الخ .

ومن مثل المواد التى ذكر الزمخشرى معانيها الحقيقية ، ثم المجازية كلمة ( أ ب د ) حيث يقول : لاأفعله أبد الآباد ، وأبد الأبيد وأبد الآبدين ، وتقول : رزقك الله عمرا طويل الآباد ، وكذلك بعيد الآماد ، وأبدت الدواب ... ، وتأبدت ، توحشت وهى أوابد ومتأبدات قيد الأوابد وهى نفر الوحوش وقد تأبد المنزل ، : سكنته الأوابد ، وتأبد فلان / توحش وطيور أوابد خلاف للقواطم ، ومن المجاز : فلان مولع بأوابد الكلام وهى غرائبه ، وبأوابد الشعر وهى التى لاتشكل جودة ' قال الفرزدق :

لن تدركوا كرمى بلوم أبيكم
وأوابدى بتنحل الأشعار

وقال النابغة :

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها
يهدى إلى أوابد الأشعار

ويذكر الزمخشرى كذلك فى مادة « أبى » الاستعمالات الحقيقية ثم المجازية لها ويقول : أبى الله إلا أن يكون كذا . ويأبى على وتأبى : امتنع ' وهو آبى الضيم وأبى الضيم : له نفس أبية وفيه عبية . ونوق أواب : يأبين الفحل ، وأصابه اباء بالضم إذا كان يأبى الطعام . تقول : فلان أن شهد الطعان فالحمية والأباء ، وأن حضر الطعام فالحمية والأباء ومن المجاز : لا أبالك ولا أبالغيرك ، ولا أبالشائنك يقولونه فى الحث ، حتى أمر بعضهم لجفائه بقوله : أمطر علينا الغيث لاأبا لكا . ويقال لعمر أبيك ولعمر أبى سواك . قال الكميت :

أنى لعمر أبى سوا
ك من الصنائع والذخائر

وهو أبو الأضياف ، ومن أبو مثواك وهو أبو الرؤبس وأبو العمامة لكبير الرأس والعمامة .

وقد عرض بعض الباحثين للأساس ورأى أن تحديده للمجاز لم يكن واضحا كل الوضوح . إذ أن الاصطلاح على معنى المجاز لم يكن فى عهد جار الله مستقرا تمام الاستقرار[1] . وفى رأيى أن هذا الرأى خطأ واضح لا يحتمل الصواب فان عبدالقاهر الجرجانى الذى كان يعيش فى القرن الخامس الهجرى والذى توفى سنة ٤٧١ هجرية أى قبل وفاة الزمخشرى بنحو ٦٧ عاما كان قد فرغ من تحديد اصطلاحات البلاغة ومعنى المجاز العقلى واللغوى ومعنى الاستعارة والكناية فى كتابيه المشهورين الأسرار والدلائل ، وقد أوضحنا عندما تكلمنا عن الكشاف أن الزمخشرى اتبع آراءه البلاغية واحتذى حذوه ومنهجه فى الفصاحة والبيان والبلاغة ، التى كانت اصطلاحاتها قد حددت تحديدا واضحا . وإذا كان الزمخشرى يجعل المجاز والمستعار والكناية مصطلحات مترادفة مع ما بينها عند عبد القاهر من فروق فان ذلك لا يحمل معنى عدم استقرار هذه المصطلحات على شىء واحد لعدة أمور :

١ — لأن الزمخشرى عبر بها فى أساسه مريدا منها معانيها اللغوية، لا مصطلحاتها البلاغية . ولا خلاف بينها من جانب اللغة على وجه التقريب.

٢ — ولأن من غير المعقول أن يتحدث الزمخشرى عن المجاز فى الكلمة دون أن يحدد فى نفسه معنى المجاز وإن أراد منه المعنى اللغوى.

---

(١) راجع مقدمة الخولى للاساس ــ صفحة : ز .

٣ — ولأن الزمخشرى قد حدد معانى هذا المصطلحات تحديدا واضحا فى الكشاف، وقد ألف الكشاف قبل أساس البلاغة[١].

٤ — ولأن الزمخشرى قد أتى بعد عبد القاهر واشتغل فى البلاغة وفى الميدان العلمى ولا يمكن أن يكون لم يطلع على آراء عبد القاهر فى البلاغة التى حدد فيها معنى المجاز تحديدا كاملا.

أننا هنا لا نعتذر عن الزمخشرى بهذه الدعوى[٢] التى يعوزها القوة والصدق والمنطق. ولكن نقول أنه إذا كان قد استعمل المجاز فى «أساسه» بمعنى أوسع نطاقا فان ذلك لأنه لم يكن يعكف على تأليف بلاغى، بل على معجم لغوى، وفرق كبير بين الأمرين، على أن الأساس مع ذلك يعد معجما بلاغيا يتحدث عن إستعمالات الكلمة فى حقيقتها ومجازها. وعن أسنادها الحقيقى والعقلى وعن دلالات الأسلوب الحقيقية وغيرها، وهذه ميزة أخرى رائعة من ميزات الأساس التى أسلفنا الحديث عنها إذ لم يسبقه إلى ذلك معجم بلاغى. بالمعنى الذى أشرنا إليه، وإن سبقه محاولات بدائية كانت هى الأساس فى نشأة البلاغة العربية. كما سبقه كذلك جهود ترمى إلى تذليل الوضع اللغوى لطالب البلاغة فما نجده متمثلا فى «أدب الكاتب» لابن قتيبه وفى مثل تأليف الثعالبى فى «الكنايات» وفى اختيارات كثيرة من تراكيب البلاغات.

* * *

(١) انظر مادة: «ح ف ر» فى الاساس حيث يقول وقد ذكرت حقيقة الكلمة فى الكشاف عن حقائق التزيل.

(٢) وهى ادعاء عدم وضوح تحديد المجاز.

— ٢ —

ويجمل الخولى فى مقدمته الاساس من مميزات الاساس إلى مايذكر فى صدر ميزاته من التمييز بين المعانى الحقيقية والمجازية للكلمة — مايرشد إليه من أثر الاستعمال فى حياة الكلمة وتعيين معناها وتحديد دلالتها ومايشير إليه من ايحاء الكلمة ووقعها على نفس سامعها وهاتان الميزتان راجعتان إلى ماتخيره الزمخشرى فى أساسه من إستعمالات البلغاء والمبدعين المفلقين ومن التراكيب التى تملح وتحسن كما يقول هو .

والذى يهمنى هو أن أشير إلى أن كتاب الأساس يعد أول معجم تاريخى للألفاظ العربية ففى الغالب يختار مؤلفه من الاستعمالات المجازية للكلمة ، ممايقع فى كلام المحدثين وشعرهم ، وقد رأينا أنه فى الشعر استشهد بشعر المتنبى وقد يكون فى الشواهد الشعرية التى ذكرنا دون أن ينسبها إلى قائلها ماينسب إلى شعراء يجىء عصرهم بعد المتنبى .

وفى النثر يستشهد بكلام المولدين وإستعمالاتهم كثيرا وقد يأتى هو بأمثلة نثرية للمعانى المجازية من كلامه وأدبه كما لاحظنا فيما سبق ، ولانجد فى معاجم اللغة المؤلفة قبل الزمخشرى وبعده استعمالات أو شواهد المحدثين ولاالمولدين وإنما يستشهد أصحابها بشعر الجاهليين والإسلاميين والمخضرمين وآخر من يستشهد به هو ابن هرمة الشاعر المشهور .

فاذا كان الزمخشرى يعد كلام المحدثين والمولدين البلغاء حجة فى الشاهد اللغوى ويذكر كثيرا من كلامهم إلى عصره فذلك لاشك وثيقة لغوية فريدة تعطينا كثيرا من الدلالات على التطور التاريخى للألفاظ العربية هذا هو الاساس لبعض المعاجم الحديثة التى ألفها المستشرقون

ومنها معجم « فيشر » الألمانى الذى يتعهده بالنشر المجمع اللغوى بالقاهرة ، ويبدو أن منهج الزمخشرى كان هو اللبنة الأولى لهذا المعجم التاريخى ، مما يجعل للاساس ميزة السبق والابتكار والتجديد اللغوى ، وقد رأينا أن الزمخشرى صدره رحب فى الاعتداد برأى البلغاء ، ورواة اللغة ، فقد جعل كما سبق أن ذكرنا كلامهم وقولهم بمنزلة روايتهم عن الشعراء الجاهليين والإسلاميين ونجده هنا يجعل كلام المحدثين والمولدين البلغاء — طبعا — ممن ليسوا من رواة اللغة والادب حجة فى الاستشهاد على التجوز فى الألفاظ العربية ولهذا كله أهمية كبرى فى تاريخ البحث اللغوى ، ولابد أن لنشأة الزمخشرى ولبعده عن مواطن اللغة العربية الأولى ولرحابة صدره وسعة أفقه أثراً كبيرا فيما وصل إليه الزمخشرى من هذا التجديد اللغوى ولاندرى كيف قوبل ذلك من معاصريه من علماء اللغة والأدب ولعله أثار ضده النقاد والعلماء المحافظين فى اللغة فذلك مما لم يسجله لنا تاريخ البحث اللغوى فى عصر الزمخشرى ولا بعد عصره .

ويذكر الزمخشرى فى مادة « أ ب ن » واستعمالاتها على ماسلف أن أشرنا إليه ، ثم يقول : « من المجاز » : أبنه إذا مدحه وعدمحاسنه ، وقد غلب فى المدح للنادب ، تقول : لم يزل يقرظ احياكم ويؤبن موتاكم. « وهذه الجملة التى جعلها الزمخشرى مثلا يظهر به الاستعمال المجازى المادة يبدو عليها أنها من كلام الزمخشرى نفسه أو من كلام غيره ممن كان يعاصره ففيها حرص على السجع مع التكلف الفنى فيه وفيها تغليب للضرورة حيث قال « أحياكم » دون « أحياءكم » ، ويبدو أن الكثير من الأمثلة التى استشهد بها الزمخشرى مصنوعة أى ليست من إستعمالات القدماء ، ولاهما أثر عنهم وروى لهم بل من استعمالات المتأخرين ممن

عاشوا قريبا من عصر الزمخشرى ، أو فى عصره ، أو من استعمالات الزمخشرى نفسه . ولعله يشير إلى ذلك من طرف خفى بقوله فى مقدمة الأساس « ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع فى عبارات المبدعين وانطوى تحت إستعمالات المفلقين ، أو ماجاز وقوعه فيها ، وانطواؤه تحتها من التراكيب التى تملح وتحسن . والذى يجوز وقوعه فى عبارات المبدعين هو ما كان من كلام الزمخشرى نفسه غالبا مما يقتفى فيه سنن التركيب العربى وطريقة فصاحته[1] ، ويشير إلى ذلك أمين الخولى فى مقدمته للاساس فيقول : « يعطينا الزمخشرى مواد لمعرفة إستعمال الكلمات حتى القرن السادس الهجرى وينير الطريق لمن يحاول تأريخ تلك الدلالات تأريخا يعرف أهميته من يتصدى للدرس الأدبى ، ويرى ضرورة تحديد الدلالات للألفاظ فى النصوص الأدبية فى عصورها المختلفة حتى يمكن فهم تلك النصوص ، فهما نفسيا دقيقا جديدا جديرا بمستوى الدرس الأدبى الذى يلائم المستوى الثقافى اليوم ، وأثر الاستعمال فى حياة الكلمات ، وتاريخ تدرج الدلالات مما لا تكفى فيه تلك الاشارة العابرة » .

— ٣ —

والمعاجم اللغوية تاريخ طويل كله جهاد مشرف لعلمائنا الأوائل ، ويجب أن نعد الجهود البدائية الأولى لرواة اللغة الأساس الأول لنشأة المعاجم اللغوية التى مرت بمراحل كثيرة لاغنى لنا عن أن نلم بها إلماما موجزا :

---

(١) انظر مادة : ت ر ب فى أساس البلاغة حيث يقول : ووطئت كل تربة فى أرض العرب فوجدت تربة أطيب الترب وهى واد على مسيرة أربع ليال من الطائف ورأيت ناسا من أهلها ، وكان عندنا بمكة التربى المؤتى بعض مزاميز آل داود ، وانظر أيضا مادة : ب و ب .

١ — فى العصر الأموى بدأ رواة اللغة يطوفون بالعرب فى صميم الجزيرة العربية يستمعون إلى بلاغاتهم ولهجاتهم ولغاتهم وأسمارهم ، ويتخذون من كل ذلك مادة الرواية والتثقيف والسمر وكان ذلك من أوائل الجمع لمواد اللغة وطرائفها وقد ضاعف من هذه الحركة كثرة المولدين واختلاط الدماء واللكنة التى أصابت الألسنة .

٢ — وفى أوائل العصر العباسى زاد اختلاط العرب بالموالى وأصبح العربى فضلا عن المولدين والموالى يجهلون معانى كثيرة من الألفاظ ويجهلون كذلك كثيرا من مفردات اللغة ومن ثم بدأ بعض علماء اللغة يكتبون رسائل قصارا فى موضوعات لغوية مختلفة ومن بينها رسالة الكسائى ( م ١٩٢ هجرية ) عنوانها : « ماتلحن فيه العامة » وتبعه فى التأليف فى هذا ، الجانب من اللحن السجستانى ( م ٢٥٥ هجرية ) والدينورى (م ٢٩٠ هجرية ) وسواهم ولعل الكتاب المسمى « غريب القرآن » المنسوب لابن عباس هو أقدم كتاب يتحدث عن مفردات اللغة ويبدو أنه ليس من تأليف ابن عباس بل روايات عنه . وقد ألف بعده فى غريب القرآن : أبان الجريرى ( م ١٤١ هجرية )[١] كما ألف آخرون فى غريب الحديث ومن بينهم الكندى ( م ٢١٤ هجرية ) وبهذا يتبين لنا أن الحفاظ على القرآن الكريم والحديث الشريف كان من أهم أسباب التدوين اللغوى فضلا عن أسباب أخرى كثيرة مثل الحفاظ على اللغة وتيسير فهمها .

ومن هاتين المرحلتين : مرحلة الجمع والرواية وهى المرحلة الأولى ،

---

(١) وألف أبو عمرو بن العلاء ( م ١٥٧ هـ ) والشيبانى والاصمعى ( م ٢١٦ هـ ) وابن الاعرابى ( م ٢٣١ هـ ) رسائل لغوية قصيرة فى موضوعات مختلفة ومن بينها رسائل عن الحيوان والخيل وخلق الانسان وأخرى عن البلدان والمواضع .

ومرحلة التأليف للرسائل اللغوية القصيرة وهى المرحلة الثانية نشأت فكرة كتابة المعجم اللغوى(١) .

٣ — وأول معجم لغوى هو معجم الخليل بن أحمد ( م ١٠٠ — ١٧٥ هجرية ) وقد سماه كتاب العين إذ أن مخرجها من أقصى الحلق وقد رتب الكلمات اللغوية بحسب مخارجها ، فبدأ بالعين فالحاء فالهاء وبعدها : خ . غ . ق . ك . ج . ش . ص . ض . س . ط . ت . د . ذ . ر . ث . ز . ل . ن . ف ب . م . و . ى . أ . وقد سمى الخليل ما كتبه عن كل حرف من هذه الحروف كتابا ، فالكتاب الأول من العين هو كتاب العين والثانى هو كتاب « الحاء » وهكذا ...

ولاشك أن هذا التأليف المعجمى أمر جديد على اللغة العربية سبق إليه هذا العالم الجليل ' الخليل بن أحمد ، وعد من ابتكاره ، وإن كان يذهب بعض الكتاب إلى أنه تأثر فيه بالمعاجم المنسوبة إلى العراق كالمعاجم المنسوبة إلى البابليين والآشوريين . ولا يوجد دليل على معرفة الخليل بأمر هذه المعاجم القديمة ، وترتيب الحروف على المخارج ليس فى اللغات القديمة التى عرفها الشرق الأدنى قبل الاسلام ، وتذكر دائرة المعارف الاسلامية فى مادة « خليل » أن اللغة السنسكريتية كانت ترتب حروفها على نظام مخارجها وفى عصر الخليل كان المسلمون يحكمون أجزاء

---

(١) نجد كلمة « المعجم » فى البخارى فى باب عنوانه : « باب تسمية من سمى من أهل بدر فى الجامع الذى وضعه أبو عبد الله على حروف المعجم » . والجامع أحد كتب البخارى وأبو عبد الله هو البخارى . وأول كتاب أطلق عليه اسم المعجم هو معجم الصحابة لاحمد بن على التميمى الموصلى ( م ٣٠٧ هـ ) وتأليف المعاجم كان معروفا عند الامم القديمة مثل الاشوريين والصينيين واليونان . قد سبق العرب إلى وضع المعاجم الكاملة ، راجع صفحة ٣٨، ٣٩، ٤٠ مقدمة الصحاح تأليف العطار .

من الهند ، وكان الهنود يتصلون بالمسلمين فى أنحاء العالم الاسلامى ومن ثم قيل ان الخليل أخذ عنهم هذا الترتيب وأن كان هذا فرضا ظنيا لم يقم عليه دليل (١) .

وقد احتذى علماء اللغة معجم الخليل فألفوا معاجم لغوية مختلفة المناهج والترتيب فطائفة من المعاجم رتبت بحسب الحرف الأخير للكلمات وطائفة أخرى رتبت بحسب الأحرف الأولى وبذلك أصبح لدينا عدة مناهج فى ترتيب المعجم اللغوى،الترتيب بحسب مخارج الحروف — الترتيب بحسب الحرف الأخير ... — الترتيب بحسب الحرف الأول للكلمات وهناك ترتيب آخر هو ترتيب الكلمات بحسب عدد حروفها ، كما فعل ابن دريد فى الجمهرة فمع سلوكه طريقه الخليل بدأ بالثنائى ثم الثلاثى ثم الرباعى ثم ملحق الرباعى ثم الخماسى والسداسى ومايلحق بهما ويتخذ ابن سيده فى المخصص وأبو عبيد فى الغريب المصنف طريقة أخرى ترتيب الكلمات حسب المعانى والموضوعات .

ومن المعاجم كتاب « الجيم » لأبى عمر الشيبانى وكتاب الجمهرة لابن دريد ( م ٣٢١ هـ ) وكتاب البارع لأبى على القالى ( م ٣٥٦ هـ ) وكتاب التهذيب للازهرى ( م ٣٧٠ هـ ) والصحاح للجوهرى ( م فى حدود ٤٠٠ هـ ) وطريقة الترتيب بحسب المخارج نجدها عند الخليل فى « العين » وعند الأزهرى فى « التهذيب » وعند ابن عباد فى « المحيط » وعند القالى فى « البارع » وطريقة الترتيب اللغوى بحسب المعانى والموضوعات نجدها

---

(١) راجع الكلام على معجم الخليل فى كتاب المعجم العربى للدكتور حسين نصار ط دار الكتاب العربى سنة ١٩٥٦ ،ومقدمة الصحاح تأليف أحمد عبد الغفور عطار ط دار الكتاب العربى بمصر .

عند القاسم بن سلام ( م ٢٢٣ هـ ) فى كتابه « الغريب المصنف » وكذلك كما ذكر من قبل عند ابن سيده فى « المخصص » وعبد الفتاح الصعيدى وحسين يوسف موسى ، من المعاصرين فى كتابهما « الافصاح » . وطريقة الترتيب بحسب الحرف الأخير نجدها عند الجوهرى فى « الصحاح » والفيروزبادى فى « القاموس » وابن منظور فى « اللسان » وغيرهما .

وقد سبق إلى هذه الطريقة بشكل بدائى اسحق الفارابى ( م ٣٥٠ هـ ) فى كتابه « ديوان الأدب » وطريقة الترتيب بحسب الحرف الأول نجدها عند البرمكى والزمخشرى ومختار الصحاح وأكثر المعاجم الحديثة وبذلك تتبين لنا منزلة « أساس البلاغة » بين معاجم اللغة العربية وأهميته فى الوقت نفسه ، إلى ما ذكرنا من ميزاته الأخرى العديدة التى فصلنا الكلام فيها [١] .

— ٤ —

والنظر دائما عند أصحاب المعاجم إلى الحروف الأصول للكلمة ودائما يردون الكلمة إلى أصولها الثلاثيـــة وهذا ما يفعله الزمخشرى فأغلب ما ذكره هو من الكلمات الثلاثية وقد يعود إلى الأصل الرباعى مثل كلمة « بأ بأ » و « ظ ب ظ ب » . وكلمة « سف سق » ويقول الدكتور حسين نصار عن الأساس وترتيبه أنه قسم الكتاب إلى أبواب بحسب الحرف الأول وقسم الأبواب إلى فصول بحسب الحرف الثانى من حروف اللفظ الأصلية :

« والأبواب تنقسم إلى فصول بحسب الحرف الثانى من حروف اللفظ الأصلية ، فيشمل باب الهمزة مثلا على الفصول التالية بترتيبها فى المعجم :

---

(١) راجع المعجم العربى للدكتور حسين نصار .

« الهمزة مع الباء فالهمزة مع التاء فالهمزة مع الجيم إلى آخر الحروف ، مع تقديم الواو أيضا على الهاء . ولم يسم المؤلف هذه الفصول « فصولا » وإنما اكتفى بذكر العنوان وحده ، مثل الهمزة مع الباء ، أو الهمزة مع الثاء ، أو ما شاكل ذلك وأعطيتها عنوان الفصول ليتسر تصورها ، ولئلا تختلط الأقسام ، وينقسم كل فصل إلى مواد مرتبة بحسب الحرف الثالث منها ان كانت ثلاثية ، أو الثالث فالرابع ان كانت رباعية ، أو الثالث فالرابع فالخامس ان كانت خماسية ، وهو لا يفرق بين الأبنية المختلفة فيجعل لكل منها بابا خاصا ، ولكنه يوردها مجتمعة ، كل منها فى الموضع الذى تؤهله له حروفه ، فنرى فى فصل « الهمزة مع الباء » مثلا المواد التالية : ا ب ب، أ ب د ، أ ب ر ، أب س ، أ ب ش ، أ ب ض ، أ ب ط ، أ ب ق ، أ ب هـ ، أ ب و ، أ ب ى. فيقدم الهاء على الواو فى ترتيب المواد ، بخلاف عادته فى ترتيب الفصول ، والأبواب . وسبب ذلك إرادته التمييز بين الواوى واليائى واحترازه من اختلاطهما إذا تجاورا ، فلما زال ذلك الالتباس فى ترتيب المواد عدل عن عادته إلى الترتيب المألوف وكانت هذه خطة المدرسة السابقة فى معاجمها . ويرى الناظر إلى المواد المذكورة نقصا فى الحروف ، فأب يليها مباشرة أبد وهذه بعدها أبر ، وهكذا ، فالمواد الساقطة بين هذه المواد أغفلها المؤلف عمدا لأنها لا تدخل فى مواده ـ ولا تنسجم مع الفكرة العامة التى بنى عليها معجمه ، أو لأن بعضها مهمل لم يرد فى العربية .

على هذه الصورة تطرد جميع الأبواب ، والفصول والمواد (١) .

---

(١) راجع المعجم العربى ونشأته وتطوره — للدكتور حسين نصار . ج / ٢ ص : ٦٥٨ طبعة ١٩٥٦ .

— ٥ —

ويجب أن نعد من ميزات الأساس أنه من أوائل المعجمات اللغوية التى ترتب الكلمات العربية بحسب الحرف الأول فيها لا بحسب الحرف الأخير لها ، وأغلب أصحاب المعاجم الذين سبقوه كانوا يحرصون على ترتيب الكلمات بحسب الحروف الأخيرة وقد تجلت فى هذه الناحية شخصية الزمخشرى فى معجمه إذ كان من السباقين فى هذه الناحية اللهم إلا ما سبقه من محاولات بدائية كذلك لأصحاب الرسائل اللغوية القصيرة وإلا ما سبقه من جهود الراغب الأصفهانى فى « غريب القرآن » الذى جمعه ورتبه ترتيبا، كذلك بحسب الحرف الأول للالفاظ ، وسوف نوازن بين « الأساس وكتاب الراغب » « المفردات فى غريب القرآن » .

على أنه من الانصاف أن نقول أن رائد هذا المنهج اللغوى فى ترتيبه الكلمات اللغوية بحسب أوائلها هو أبو عمرو الشيبانى ( م ٢٠٦ هـ ) اللغوى المشهور ولكنه لم يراع فى الترتيب إلا الحرف الأول فقط أما الحرف الثانى فلم ينظر اليه وذلك فى رسائله اللغوية مثل « الابل وخلق الانسان » و « كتاب الجيم ». ثم جاء بعده محمد بن تميم البرمكى اللغوى ( م بعد ٣٩٧هـ) وقد رتب معجم « الصحاح » — للجوهرى بعد ذلك بحسب الحرف الأول، ويعد بعض الباحثين البرمكى أول من ابتدع هذا النظام ، وان الزمخشرى فى « أساس البلاغة » قد اتبعه فيه واشتهر بترتيب الزمخشرى حتى ظنه الباحثون مبتكر هذه الطريقة ، ومن قبله كان الشيبانى يرتب الكلمات بحسب الحرف الأول الهجائى ، أما البرمكى فكان يلتزم الحرف الأول والثانى والثالث والرابع [1] .

(١) راجع مقدمة الصحاح — لأحمد عطار — ص ٨٩ ، ٩٠ طبعة دار الكتاب العربى

وهنا لا ننسى فى مجال الترتيب بحسب الحرف الأول أصحاب الرسائل اللغوية القصيرة التى كانت تكتب فى موضوع معين . ومن ثم وجدنا الزمخشرى يرتب « الأساس » أبوابا بحسب حروف المعجم من الهمزة إلى الياء مع تقديم باب الواو على باب الهاء ويجعل الباب الواحد مرتبا ترتيبا خاصا بملاحظة ترتيب الحرف الثانى ، فالكلمات المبدوءة بحرف الباء مثلا يبدأ فيها بالكلمات التى يكون الحرف الثانى فيها همزة ثم الكلمات التى يكون الحرف الثانى باء . فتاء ، فثاء ، فجيما ، ... الخ .

— ٦ —

وقد وجه إلى الأساس بعض المآخذ القليلة التى لا بأس من الاشارة اليها ، ومن بينها :

١ — أتى بأقوال كثيرة وعبارات عدة ولم يشر إلى قائليها حتى يعرف أهميتها فى البحث اللغوى والبلاغى وفى التطور التاريخى للالفاظ وهذا لا يعد مأخذا على وجه الحقيقة لأن قصد الزمخشرى كان منصبا على الناحية البلاغية من الجمل وليس على قائليها .

٢ — اضطراب الترتيب واستشهد لهذا بأنه وضع المضاعف الثنائى من الهمزة مع الياء « أى » فى مقدمة الفصل وحقه أن يؤخره بحسب منهجه الذى سار عليه .

٣ — ومن مثل الاضطراب فى الأساس ادخال المواد الرباعية فى الثلاثية كما أدخل حدبر فى « حدب » و « حدرج » فى « حدر » و « حشرج » فى « حشر » و « سمحق » فى « سمح » و « سموع » فى « سمد » و « عجرف » فى « عجر » و « كرفس » فى « كرف » وغيرها وهذا ليس عيبا اطلاقا إذ أن الزمخشرى اجتهد فى الرجوع بالكلمة إلى

أصلها الثلاثى بقدر الامكان ، ورجوعه بالرباعى إلى أصل ثلاثى ممـا يمدح ولا يذم .

٤ — الاضطراب فى تحديد المجاز [١] يقول الدكتور نصار فى ذلك وقد تبع ذلك الاضطراب فى تقسيم الحقيقة والمجاز ، الاضطراب فى وضع كثير من العبارات إذ وضع العبارات الحقيقية فى الأقسام المجازية والأمثال بعضها يوضع فى الحقيقى وبعضها الآخر فى المجازى دون فرق جوهرى فى النوعين ، وهذا أمر أهم ما نأخذه على الأساس لأنه الدعامة التى أقام عليها المؤلف كتابه [٢] وقد ذكر أمثلة هذا فى كلامه فى موضع آخر [٣].

أما وضع العبارات الحقيقية فى الأقسام المجازية فلم يحدد الدكتور لهـا مثالا حتى نناقشه فيه بعينه كما سبق أن ناقشنا الأستاذ الخولى فيما ذهب إليه، من أن الزمخشرى يضع المجاز فى مواضع الحقيقة .

وأما الأمثال التى ذكرها — وذكر أن بعضها قد ذكر فى الحقيقـة وبعضها ذكر فى المجاز [٤] ، فقد مثل لها بأن الزمخشرى قال فى القسم المجـازى من « بيض » : وفى مثل كانت بيضة العقر للمرة الأخيرة . وفى مثل : سدّ ابن بيض الطريق وهذا الصنيع من الزمخشرى لا نقد فيه لأن الأمثال أو الاستعارة التمثيلية انما توضع فى باب المجاز ولم يذكر الدكتور نصار الأمثال التى وضعت فى موضع الحقيقة حتى نناقشه فيها وقد لاحظ الدكتور نصار أن الزمخشرى ذكر المعانى المجازية وقسمها أقساما ثلاثة : « مجاز وكناية واستعارة » دون أن يفصل بين المجاز والـكناية ولا بينهما وبين الاستعارة ، بل كانت العناوين الثلاثة مترادفة لمعنى المجاز [٥] ، وهذا

---

(١) راجع المعجم العربى ج / ٢ ص ٦٦١ .

(٢) و (٣) و (٤) و (٥) المعجم العربى ج / ٢ ص ٦٦٦ ، ٥٦٥ وما بعدها .

ليس بعيب وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك وقررناه ثم يناقض الدكتور نفسه بعد قليل فيقول أن الزمخشرى قسم المادة الواحدة إلى ثلاثة أقسام حقيقى ومجازى وكنائى (١) ، ومعنى ذلك أنها ليست كلها بمعنى واحد كما قرره آنفا .

ثم يقول الدكتور نصار نقلا عن غيره وهو الدكتور ناصف : « يبدو الزمخشرى غير آخذ بتقسيمات كثيرة فالتشبيه مجاز ، والمجاز اللغوى تمثيل ، والاستعارة التمثيلية تمثيل ، والكنايات تختلط بالمجاز الحكمى ، وكان الدكتور يفهم بأن الاستعارة التمثيلية لا يسمى تمثيلا وهو هنا يناقض نفسه بما قرر من أن الزمخشرى يريد بهذه الاصطلاحات مدلولها الأعم وهو التجوز أو الخروج عن الحقيقة ـ ويقول أنه نشر الكنايات بين المواد المختلفة (٢) .

وكان يريد الدكتور أن يجعل الزمخشرى للكناية قسما خاصا فيقول: ومن المجاز كذا ... ثم يقول ومن الكناية كذا ... وهذا سهو واضح فى فهم الزمخشرى وقبل قليل قرر الدكتور نصار أن الاصطلاحات الثلاثة مترادفة بمعنى المجاز (٣) ، وكذلك يذكر الدكتور ناصف أن الاستعارة يسميها الزمخشرى مثلا .: وفى موضع آخر ، تمثلا ... وفى موضع ثالث : تخييلا ... وفى موضع رابع مجازا ، أما أنها تسمى مثلا ، فأى خطأ فى ذلك ونحن نعرف أن التمثيل ( أى الاستعارة التمثيلية ) قسم من أقسام الاستعارة، وأما أنه يسميها ( تمثلا ) فالمراد به على وجه الصحة التمثيل ، وهو اصطلاح

---

(١) المعجم العربى ج / ٢ ص ٦٦٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٦٣ .

(٣) المصدر السابق ج / ٢ ص ٦٦١ .

جديد يدل على دقة فهم الزمخشرى البلاغى وأما أنها تسمى مجازا فان ذلك رجوع بها إلى أصلها الأعم وهو المجاز وذلك كله لا وجه لمؤاخـذة الزمخشرى فيـه وقد ذكرنا أنه على أى حال لا يريد فى الأساس بهـذه الاصطلاحات معانيها البلاغية انما يريد المعنى الأعم للمجـاز فهذه كلهـا تحمل على الترادف .

وقد نقد الأستاذ امين الخولى كتاب « الأساس » معتمـدا الموازنة بينه وبين ما فهمه من صنيع ابن حجر فى كتابه « غراس الأساس [1] »، الذى جمع فيه المجازات التى ذكرها الزمخشرى فى « أساس البلاغة » فرأى الأستاذ الخولى أن ابن حجر فى كتابه يخالف الزمخشرى فى بعض ما ذكره من مجازات فيسقط منها ما لا يراه كذلك، ففى مادة « أ ت ب » يقول الزمخشرى : « ومن المجاز : هذا غلام قد تأتب السلاح أى لبسه وتأتب القوس إذا أخرج منكبيه من حمالة القوس فصارت على كتفيه » ويسقط ابن حجر هذه المادة كلها من المجاز ، فكأنه يعتبر استعمالها حقيقة كما يقرر فى مقدمته لـكتابه إذ يقول : « فمن لم يجد فى هذا المختصر شيئـا ليجزم بأنه وضع على سبيل الحقيقة [2] ويذكر الأستاذ الخولى فى مادة « أ . ت . ى » مصرحا بأن الزمخشرى لم يبين شيئا من معانيها على أنه من المجاز فى حين أن ابن حجر استخلص من الأساس بعض مجازاتها ، ورأى الخولى صحيح لو كان الزمخشرى حقيقة قد أهمل المعانى المجازية لهذه المادة ، أما تركه للفظ « ومن المجاز » فهذا لا يعطينا دلالة مؤكدة

---

(١) راجع النسخة الخطية للـكتاب فى مكتبة طلعت أحد فروع دار الـكتب المصرية « ٣٦٣ لغة » .

(٢) راجع مقدمة أمين الخولى لأساس البلاغة .

على أن الزمخشرى لا يرى فى استعمالاتها شيئا من المجاز ، والحقيقة أن الزمخشرى أتى باستعمالات الكلمة وفيها الحقيقة والمجاز ، وجاء ابن حجر فذكر الاستعمالات المجازية فقط للكلمة دون أن يصرح بشىء عن الأساس ولا عن مدلول الكلمة عند الزمخشرى ، أهى عنده حقيقة أم مجاز ؟ أم تجمع الحقيقة والمجاز معا ؟ وظن الأستاذ الخولى أن بين الزمخشرى وابن حجر تعارضا لأن الأول لم يصرح بكلمة « ومن المجاز » ، فتكون المادة عند الزمخشرى — على فهم الأستاذ الخولى — كلها من الحقيقة ، ولأن الثانى ذكر المعانى المجازية فحسب مع أن الكثير من الاستعمالات المجازية للكلمة التى ذكرها ابن حجر مأخوذ من الأساس وهذا يكفينا فى معرفة أن اسقاط الزمخشرى للفظة « ومن المجار » أحيانا لا يعطينا حكما كليا بأن جميع استعمالات الكلمة حقيقة .

— ٧ —

وقد اختصر محمد بن عبد الرؤوف المناوى ( م ٩٣١ هـ ) كتاب الأساس ورتبه على نظام الجوهرى — أى بحسب الحرف الأخير للكلمات وسماه « أحكام الأساس » .

ولا شك أن الزمخشرى قد اعتمد على معاجم اللغة كلها فى تأليف الأساس وخاصة « العين » و « الجمهرة » الذى يأخذ عنهما بعض التفسيرات اللغوية المفردات [١] .

والزمخشرى يرجع فى كتابه إلى لغويين وأدباء ونقاد ورواة ويستشهد

---

( ١ ) ومن أمثلة ذلك : راجع مادة — هـ ق ع — فى العين والجمهرة وكتاب المعجم العربى للدكتور نصار ج / ٢ صفحة ٦٦١ .

فى مادة « ح ، ج ، ر » بتفسير لغوى للجـــاحظ [١] ، ويستدل فى مادة « غ ، ل ، ف » بقول لابن دريد ، ويستشهد كذلك بأشعار الجاهليين والاسلاميين، والمخضرمين، فيستشهد بشعر لابن هرمة ، وهو من مخضرمى الدولتين ، ويستشهد كذلك بشعر لعمارة بن عقيل ( م ٢٤٠ هـ ) [٢] ، وبشعر المتنبى [٣] ، وبأشعار كثير من المحدثين .

وهناك أمر بالغ الأهمية فى البحث اللغوى عن الأساس ، وهو معرفة ما إذا كان هناك صلة علمية بين الأساس والمفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ، وأقول: أن كتاب المفردات فى غريب القرآن للشيخ أبى القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب الأصفهانى الذى كان يعيش فى أوائل المائة الخامسة الهجرية ، يدل على ما لهذا الامام الجليل من ذهن واع ، وفؤاد ذكى ، وعلم غزير ، ويقول : فخر الدين الرازى عنه فى كتابه « تأسيس التقديس » فى علم الأصول ان الراغب قد راعى فى كتابه المناسبات التى بين الألفاظ المستعارات والمشتقات والمعانى الأصليات [٤] .

وكتاب المفردات يتحدث عن مفردات القرآن وغريبه التى جمعها ورتبها ترتيبا خاصا ، بحسب الحرف الأول لهذه المفردات ، ويقول الراغب فى صدر كتابه أنه قد استوفى فى كتابه مفردات ألفاظ القرآن على حروف التهجى وعلى ترتيب حروف المعجم معتبرا فيه أوائل حروفه الأصلية دون الزوائد والاشارة إلى المناسبات التى بين الألفاظ المستعارات منها والمشتقات [٥]

---

(١) ويستشهد برواياته الأدبية كذلك ، راجع مادة : ط ، ع ، م .

(٢) راجع مادة : س ، ل ، ع .

(٣) راجع مادة : س ، ع ، ط .

(٤) راجع كشف الظنون وصفحة ٨٧٥ من المفردات ط مصطفى الحلبى .

(٥) مفردات الراغب ص ٤ ط الحلبى .

وترتيبه لألفاظ القرآن الكريم بحسب حروف المعجم بالنظر للحرف الأول لاشك أنه مسبوق بعمل أصحاب الرسائل اللغوية القصيرة وبعمل « الشيبانى » و « البرمكى » مما أشرنا إليه سابقا ، ويكون هو فى سلسلة ترتيب الذين رتبوا الالفاظ اللغوية بالنظر للحرف الأول بترتيب حروف المعجم بعد هؤلاء جميعا وقبل الزمخشرى على اية حال ، وقد يكون الزمخشرى قد احتذاه وسار على منهجه فى هذا الترتيب ، إن لم يكن قد أطلع على صنيع من تقدموا الراغب « كالشيبانى » و « البرمكى » ، ومعرفة ما إذا كان الزمخشرى قد قلده فى الصنيع اللغوى فى الألفاظ التى ذكرها أمر صعب كل الصعوبة فان الزمخشرى لم يشر إلى هذا الامام فى أساسه ، والمواد اللغوية المشتركة فى الكتابين ليس بينها تشابه ملحوظ ، على أن التشابه القليل فى متون اللغة لايدل على تأثر أو احتذاء ، لأن من شأن التفسيرات اللغوية للألفاظ أن تتشابه . ومع ذلك فاننا نضع أمام القارىء أية مادة من « المفردات » لنعرف خصائصه ولنرى أن كانت هى الخصائص التى سار عليها الزمخشرى أم لا ؟ يقول الراغب فى مادة « فوز » : الظفر بالخير مع حصول السلامة ، قال : « ذلك هو الفوز الكبير » ، « فاز فوزا عظيما » ، « ذلك هو الفوز المبين » ، وفى آخر : « العظيم » « وأولئك هم الفائزون » ، والمفازه قيل سميت تفاؤلا وسميت بذلك إذا وصل بها الفوز فان القفر كما يكون سببا للهلاك فقد يكون سببا للفوز فيسمى بكل واحد منهما حسبما يتصور منه ويعرض فيه ، وقال : بعضهم سميت مفازة من قولهم : فوز الرجل إذا هلك . فان لم يكن فوز بمعنى هلك صحيحا فذلك راجع إلى الفوز ، تصورا لمن مات بأنه نجا من حبالة الدنيا ، فالموت وإن كان من وجه هلكا ، فمن وجه فوز ، ولذلك قيل

ماأحد إلا والموت خير له ، هذا إذا اعتبر بحال الدنيا ، فاذا مااعتبر بحال الآخرة فيما يصل إليه من النعيم فهو الفوز الكبير ، « فمن زحزح عن النار ، وأدخل الجنة فقد فاز » ،وقوله: « فلاتحسبنهم بمفازة من العذاب » فهى مصدر فاز . والاسم الفوز ،أى لا تحسبنهم يفوزون ويتخلصون من العذاب ، وقوله : أن المتقين مفازا أى فوزا أى مكان فوز ، ثم فسر فقال : حدائق وأعنابا الآية فقوله : « ولئن أصابكم فضل » إلى قوله : « فوزا عظيما » ، أى أنهم يحرصون على أغراض الدنيا ويعدون ماينالونه من الغنيمة فوزا عظيما .

فنجد أنه فى هذه المادة مثلا يحدد المعانى اللغوية للكلمة التى وردت فى القرآن الكريم تحديدا واضحا ويذكر بعض المعانى المجازية لها كالمفازة للصحراء دون أن يشير إلى مايعده حقيقة ولا إلى مايعده مجازا من إستعمالات الكلمة ،ودون أن يتخطى اللفظ إلى التراكيب والاستعمالات، وقد عاش الراغب فى عصر لم تكن كلمتا الحقيقة والمجاز قد ذاعتا وحدد معنى كل منهما ،ومع أنه يذكر فى المقدمة أنه يشير فى مفرداته إلى « المناسبات التى بين الألفاظ المستعارات منها والمشتقات[1] » ، ويذكر عنه الرازى ذلك فيقول: «وقد راعى المناسبات التى بين الألفاظ المستعارات والمشتقات والمعانى الأصليات[2] » فان مؤلف الكتاب لم يوضح ذلك التوضيح كله ولم يصرح به التصريح المبين لمغزاه وهذا ليس كله من منهج الزمخشرى فى شىء ، وإذا وازنا بين كتابة الرجلان وإن دار حول موضوع واحد فى معان قد تتقارب فان عمل كل من الرجلين مستقل عن الآخر ، وهذا مايقوله الزمخشرى فى هذه المادة[3] « طوبى لمن فاز

(١) المفردات ص : ٤ . (٢) المفردات ص : ٥٧٨ .

(١) أساس البلاغة مادة : « ف ، و ، ز » ط دار الكتب .

بالثواب وفاز من العقاب أى ظفر ونجا » . وهو بمفازة من العذاب أى بمنجاة منه ، وخربوا الفازات أى الفساطيط . وتقول : تلك الفازة ، فيها المفازة ، أى المَفلحَة . ومن المجاز : المفازة للفلاة : سميت باسم المَنجاة على سبيل التفاؤل . وفوز المسافر : ركب المفازة ومضى فيها . قال حسان:

لله در رافع أنى اهتدى

فوز من قراقر إلى سوى

فوز بإبله ، وفوز الرجل : مات فصار فى مفازة ما بين الدنيا والآخرة من البرزخ الممدود ، أو لأن المفازة صارت اسما للمهلكة فأخذ منها فوز بمعنى هلك . وفاز سهمه ، وخرج له سهم فائز إذا غلب . وفاز بفائزة أى بشىء يسره ويصيب به الفوز . وتقول : فاز فلان بفائزة هينة وأجيز بجائزة سنية .

وإذا أخذنا كذلك مادة مثل « غطش » فى « المفردات » وفى « الأساس » استطعنا أن نوازن بين ما كتب فيها ، يذكر الراغب فى مادة ( غ ، ط ، ش ) فيقول : اغطش ليلها أى اجعله مظلما ، وأصله من الاغطش وهو الذى فى عينه شبه عمش . ومن ذلك قيل فلاة غطشى لا يهتدى فيها ، والتغاطش التعامى عن الشىء .

وأما الزمخشرى فيذكر هذه المادة بقوله : أتيته غبشا وغطشا وهو السدف وقد أغطش الليل ، وأغطشه الله ، ( وأغطش ليلها ) . وفلاة غطشى عمية المسالك — قال الأعشى :

وبهماء بالليل غطشى الفلا

ة يؤنسنى صوت فيادها

وتقول : ركبت فلاة غطشى ، ونحن كرما لها عطشى ، ومررت به فتغاطش — أى تغافل — قال كثير :

تغـاطش شكوانا اليهـا ولا تمى

مع البخل أحنـاء الحديث المرجم

ومن هذا نلاحظ أنه مع بعض التشابه القليل بين ما كتبا فى المادة إلا أن الزمخشرى لم يحتذ الراغب فى صنيعه .

وإذا أخذنا مادة « فوض » كذلك فى الكتابين ، نجد أن الزمخشرى يأخذ فى مجمل الأمر نفس عبـارة الراغب ، يقول الراغب فى هـذه المـادة « أفوض أمرى إلى الله: أرده اليه ، وأصله من قولهم: مالهم فوضى بينهم. قال الشاعر

« طعامهم فوضى : فضا فى رحالهم » ، ومنه شركة المفاوضة ويقول الزمخشرى فيها : « وأفوض أمرى إلى الله » وفاوضته فى أمرى جاريتـه وكانت بيننا مفاوضات ومخاوضات . وبنو فلان فوضى مختلطون لا أمير عليهم . قال :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جهـالهم سادوا

وما لهم مختلط بينهم : مختلط من أراد منهم شيئا أخذه ، قال:

طعـامهم فوضى فضـا فى رحالهم

ولا يحسنون السر إلا تنـاديا

أى مختلط واسع لا يخبأون منه شيئا بل يتداعون اليه ، ومنه : شركة المفاوضة وهى المساواة والمخالطة . وتفاوض الشريكان : تساويا .

فنجد الزمخشري يذكر ما ذكره الراغب من الآية : « والاستدلال على معنى المادة بقولهم : شركة المفاوضة ، وذكر كذلك قولهم : ما لهم فوضى بينهم . وهذا فى أعم مدلولاته يدل على تأثر الزمخشرى بالراغب إلى حد ما فى هذه المادة . وإذا بحثنا مادة « الفاء » كلها فى الكتابين نجد ان الراغب يذكر المواد الآتية : —

فتح — فتر — فتق — فتل — فتن — فتى — فتأ — فجم — فجر — فرد — فرش — فرض — فرع — فرغ — فرق — فره — فرى — فجا — فخر — فدى — فرر — فرت — فرث — فرج — فرح .

وأما الزمخشرى فيذكر منها : فأد — فأر — فأس — فأفأ — فأو — فتأ — فقت — فت — فتح — فتخ — فتر — فتش — فتق — فتك — فتل — فتى — فتأ — فثر — فجأ — فجج — فجم — فجو — فحث — فحج — فحش — فحص — فحل — فحم — فحو : ومواد كثيرة أخرى هى أوسع نطاقا مما ذكره الراغب ، من استعراضات المادة نجد أن الزمخشرى لم ينهج نهج الراغب فى المادة اللغوية ويدل ذلك على أن الزمخشرى لم يتخذ من مفردات الراغب وحده ، أصلا يحتذيه فى أساسه ، وخلاصة ذلك كله أن الراغب وان سبق الزمخشرى فى ترتيب الكلمات اللغوية بحسب الحروف الأولى الهجائية ، إلا أنه لم ينظر فى ترتيب الكلمات إلى ما عدا الحرف الأول ، من الثانى وما بعده ، وقد كان صنيع الزمخشرى أكثر احكاما واجادة من صنيع الراغب فالمواد عنده مرتبة بحسب الحرف الهجائى وكل باب من أبواب هذه المادة مثل « باب الباء » أو « الثاء »

أو « التاء » ، ترتيب الكلمات فيها بحسب الحرف الثانى ، ونجد الزمخشرى يذكر المعانى الحقيقية للكلمة ثم الاستعمالات المجازية لها ، وأما الراغب فلم ينظر إلى ذلك ، وفى جملة الأمر نجد أن عمل كل من الرجلين على العموم مستقل عن عمل الآخر .

* * *

# الفصل الثالث

## الاتجاه اللغوى عند الزمخشرى
## فى تفسيره « الكشاف »

## الاتجاه اللغوى عند الزمخشرى فى تفسيره :

— ١ —

هنا نتحدث عن « الكشاف » من حيث الاتجاه اللغوى السائد فيه، وحين نتحدث عن الكشاف نتحدث عن أخلد آثار الزمخشرى وأعظمها أصالة ومنزلة علمية ، ونتحدث كذلك بهذه المناسبة عن الجانب الاعتزالى فيه .

ولقد بدأ الزمخشرى فى تأليفه كتابه « الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » عام ٥٢٦ هـ بمكة المكرمة وانتهى من تأليفه عام ٥٢٨ هـ ، ففى نسخة وجدت مكتوبة من هذا التفسير عليها بخط المؤلف ما نصه « وهذه هى نسخة الأصل الأولى التى نقلت من السواد ، وهى أم الكشاف الحرمية المباركة المتمسح بها المحقوقة أن تستنزل بها بركات السماء ويستمطر بها فى السنة الشهباء ، فرغت منها يد المنصف تجاه الكعبة فى جناح داره السليمانية التى على باب أجياد » الموسومة بمدرسة العلامة ضحوة يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر من عام ثمانية وعشرين وخمسمائة[1] .

والزمخشرى نفسه يحدثنا فى مقدمة تفسير الكشاف أنه أخذ منه عامين وبعض العام ، حيث يقول : « وفق الله وسدد وفرغ منه فى مقدار مدة خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه وكان يقدر تمامه فى أكثر من ثلاثين سنة[2] » . وهو يحدثنا أيضا عن الظروف التى ألف فيها هذا الكتاب

(١) تفسير الكشاف ج/٣ ص ٣٧١ ط ١٩٥١ الحلبى .
(٢) وخلافة أبى بكر سنتان وأربعة أشهر .

فيقول : « ولقد رأيت أخواننا من الأفاضل فى الفئة الناجية العدلية ، الجامعين بين علوم العربية والأصول الدينية كلما رجعوا إلىّ فى تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا فى الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك حتى اجتمعوا مقترحين أن أملى عليهم ( الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل[1] ) ، ومن هذا الكلام يظهر أن شروعه فى تدريس التفسير كان سابقا على تأليف هذا الكتاب وأنه كان مرجعا فى التفسير لدى علماء المعتزلة الذين جمعوا بين الأدب ، وعلم الدين ، وأنهم اقترحوا عليه أن يملى عليهم تفسير القرآن كله ويسميه « الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » ولاشك أن الذين اقترحوا عليه هذا الاقتراح الضخم أرادوا بذلك أن يفسروا القرآن على مبادئهم الاعتزالية التى تحتوى على المعانى المحتملة لنصوص القرآن الكريم . فهو يشكو فى مقدمته من تقاصر همم الرجال أن يقوموا بهذا العمل الشاق فيقول : « والذى حدانى على الاستعفاء مع علمى أنهم طلبوا ما الاجابة إليه علىّ واجبة لأن الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان رثاثة أحواله وركاكة رجاله وتقاصر هممهم عن أدنى هذا العلم[2] » :

ومن أجل هذا الرجاء والأصرار على الطالب أخذ الزمخشرى فى تحقيق أمل اخوانه وكتابة تفسير لمعانى القرآن وبلاغته ، وكان ذلك فى رحلته الثانية إلى مكة المكرمة وقد أكثر أولا فى تفسيره من التفصيل وبسط الكثير من الحقائق التى يؤيد بها مذهبه فى العدل وبسط أسباب

---

(١) تفسير الكشاف ج/١ ص ١٥ ط ١٩٥١ .

(٢) تفسير الكشاف ج/١ ص ١٦ ط ١٩٥١ .

بلاغة آيات الذكر الحكيم، وأملى عليهم مسائل فى الفواتح وطائفة من الكلام فى حقائق سورة البقرة، وجاء ماأملاه — كما يقول هو نفسه — كلاما مبسوطا كثير السؤال والجواب طويل الذيول والأذناب[1].

ولكنه عاد فلاحظ حاجة الناس فى جميع البلدان إلى مثل هذا التفسير، وأراد أن لا يصرفهم عن بسط مسائل الاعتزال والافاضة فيها فعاد إلى طريقة أخصر من الأولى، مع ضمان التكثير من الفوائد والفحص عن السرائر[2] وذلك حرصا منه على عموم النفع به، وإقبال الناس عليه بالإضافة إلى رغبته فى ارضاء الأمير الشريف سليل الدوحة الحسنية «أبى الحسن على ابن حمزة بن وهاس» الذى نوه به فى مقدمة التفسير، وأشاد بمناقبه وجعل ذكر اسمه فيها بمثابة اهداء الكتاب إليه «ولاشك أن هذا الأمير لم يكن معتزليا».

والصبغة الاعتزالية فى الكتاب جعلت صاحب «روضات الجنات» يذهب إلى تسجيل رأى الغزالى فى الكشاف وطعنه عليه، لأن الغزالى لم يكن يراه فى جانب المعتزلة، يقول مؤلف روضات الجنات[3]: لما صنف الزمخشرى تفسيره الكشاف جاء به للامام الغزالى ليمده بالعناية واللطف والمجلس عنده وذكر له سبب زيارته قال له الغزالى كيف فسرت (إياك نستعين) فقال أن تقديم المفعول يفيد الانحصار، فقال له إذن أنت من علماء القشر فرجع الزمخشرى نادما على مافعل، ولاشك أن هذه الرواية ظاهرة الانتحال إذأن الغزالى مات عام٥٠٥هـ، والزمخشرى ألف تفسيره عام ٥٢٨ هـ.

---

(١) تفسير الكشاف ج/١ صفحة ١٧. (٢) نفس المصدر ج/١ ص ١٨.

(٣) روضات الجنات — للخونسارى — ص ٥٦٢ ط طهران.

وكان الزمخشري يشيد بتفسيره وينوه بعمله في ثناياه، وقد كان على حق في ذلك[١] لأن تفسيره الكشاف يعد نموذجا ومثلا واضحا لمقدرته العلمية والثقافية ، إذ أنه عصارة كده وجهده وثقافته التي اكتسبها خلال ستين عاما من العمر صرفها في طلب العلم ففي هذا التفسير نرى الزمخشري بكل ثقافته وصوره ، العلمية : ففيه صورة الزمخشري المحدث والفقيه والأصولي والكلامي ، والمنطقي ، ويبين فيه الزمخشري الأديب النحوي اللغوي المرهف الحس الذواق لجمال النصوص القرآنية من جميع نواحيها ، ومن أراد أن ينظر ويطلع إلى الصورة الحقيقية التي تمثل وتعكس جميع جوانب حياة الزمخشري الثقافية فلينظر إلى تفسير الكشاف ، والذي يهمنا الآن أن نكشف عن جوانب هذا التفسير لاسيما الجانب اللغوي ، والاعتزالي حيث ذلل اللغة وأخضعها لنصرة مذهبه الاعتزالي ، ومن ثم فسوف نبدأ ببيان الاتجاه اللغوي عند الزمخشري في تفسيره ، ثم نبحث بعد ذلك عن مصادر الكشاف ونبين مكانته بين كتب التفسير بالرواية والتفسير بالرأي ، ثم نشير إلى منزلة الزمخشري بين طبقات المفسرين ونذكر ما ألف على الكشاف من شروح وحواش ، ثم نشير إلى أهم ما كتب حول الكشاف من آراء ، وأخيراً نختم البحث ببيان صبغته الاعتزالية التي هي ظاهرة من أهم ظواهر هذا التفسير وهذه الدراسات وإن كانت لاتتصل بالاتجاه اللغوي عند الزمخشري اتصالا مباشرا إلا أنها ولاشك تتصل بها اتصالا قريبا « وأن كان غير مباشر » .

---

(١) راجع تفسير الكشاف ج/٢ ص٢٣٢ ، ج/١ ص ٩٣ ، ٢٥٦ .

— ٢ —

**الاتجاه اللغوى عند الزمخشرى فى تفسيره :**

تجلت ثقافة الزمخشرى العربية والدينية فى تفسيره الكشاف الذى يعد دائرة معارف عربية واسعة الذيوع والشهرة ، فلقد عرض الزمخشرى فيه للغة والنحو والتصريف والاشتقاق والقياس والقراءات والبلاغة وغيرها من علوم العربية فى مناسبة حديثة عن الآيات القرآنية فى سعة بسط وقوة عرض وعظمة دراية بالمأثور والمام بالمنقول ، وأضاف إلى كل ذلك ذوقه وشخصيته فى التفسير والشرح والبيان ، ولاضير فى أن نستطرد فى تحليل الاتجاه اللغوى عند الزمخشرى فى كشافه :

**معانى اللغة فى الكشاف :**

١ — يعرض الزمخشرى فى كل آية وموضع للألفاظ اللغوية بالتفسير والشرح ملما بشتى فروع الكلمة وأصولها وبما قاربها أو شابهها من الألفاظ .

يفسر مثلا الرحمن والرحيم فيقول « الرحمن فعلان من رحم كغضبان وسكران من غضب وسكر وكذلك الرحيم فعيل منه كريض وسقيم من مرض وسقم ، وفى الرحمن من المبالغة ماليس فى الرحيم ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا ويقولون أن الزيادة فى البناء لزيادة المعنى وقال الزجاج فى الغضبان هو المتملىء غضبا ومما طن على أذنى من ملح العرب أنهم يسمون مركبا من مراكبهم بالشقدف وهو مركب خفيف ليس فى ثقل محامل العراق فقلت فى الطائف لرجل منهم ما اسم هذا المحمل أردت المحمل العراقى فقال أليس ذاك اسمه الشقذف قلت بلى فقال هذا

اسمه الشقنداف فزاد فى بناء الاسم لزيادة المعنى . .. الخ[١] .

ويقول فى تفسير قوله تعالى « المفلحون » الفائز بالبغية كأنه الذى انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه والمفلج بالجيم مثله ومنه قوله المطلقة استفلحى بأمرك بالحاء والجيم والتركيب دال على معنى الشق والفتح وكذلك أخواته فى الفاء والعين نحو فلق . وفلذ ، وفلى[٢] ، ويقول فى تفسير « الحمد» مشيرا إلى نظائره فى المعنى : الحمد والمدح أخوان وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها تقول : حمدت الرجل على أنعامه وحمدته على حسبه وشجاعته . وأما الشكر فعلى النعمة خاصة وهو بالقلب واللسان والجوارح ، قال :

أفادكم النعماء منى ثلاثة

يدى ولسانى والضمير المحجبا

والحمد باللسان وحده فهو أحدى شعب الشكر ، ومنه قوله عليه السلام : الحمد رأس الشكر ، ماشكر الله عبد لم يحمده وإنما جعله رأس الشكر ، لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها اشيع لها وأدل على مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب ومافى عمل الجوارح من الاحتمال بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذى يفصح عن كل خفى ، ويجلى كل مشتبه ، والحمد نقيضه الذم ، والشكر نقيضه الكفران[٣] .

ويقول فى المعنى اللغوى لكلمة ( سجى ) : سكن وركد ظلامه ، وقيل ليلة ساجية ساكنة الريح ، وقيل معناه سكون الناس

---

(١) الكشاف ج/١ س ٣٤،٣٥ .

(٢) الكشاف ج/١ س ١٤ .

(٣) تفسير الكشاف ج/١ س ٣٨، ٣٩ .

والأصوات فيه ، وسجا البحر سكنت أمواجه وطرف ساج : ساكن فاتر (١) .

ومن هذا نجد شدة استقصائه المعانى اللغوية الالفاظ وتحريه فى تحديد المعنى اللغوى تحديدا واضحا .

٢ — يعرض الزمخشرى المعنى المجازى للكلمة عرضا دقيقا واسعا يقول فى معنى « يوم الدين » ويوم الدين يوم الجزاء ومنه قولهم: كما تدين تدان ، وبيت الحماسة :

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

فان قلت : ما هذه الاضافة قلت : هى اضافة الفاعل إلى الظرف على طريقة الاتساع فجرى مجرى المفعول به كقولهم « يا سارق الليلة أهل الدار » والمعنى على الظرفية ومعناه مالك الأمر كله فى يوم الدين كقوله : لمن الملك ؟ (٢) والاتساع فى الظرف أن لا يقدر « فى » توسعا فينصب نصب المفعول به كقوله « ويوم شهدناه » أو يضاف اليه على وتيرته كمالك يوم الدين وسارق الليلة حيث جعل اليوم مملوكا والليلة مسروقة ، ويريد الزمخشرى بهذا الاتساع : أن يكون فى التوسع فى الاضافة مجاز عقلى وهو بذلك يشرح لنا شيئا المعنى المجاز العقلى فى الاضافة ويقول الزمخشرى فى معنى قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » :

جعلوا لتمكنهم منه واعراضه لهم كأنه فى أيديهم — فاذا تركوه

---

(١) تفسير الكشاف ج / ٣ ص ٣٤٤

(٢) تفسير الكشاف ج / ١ ص ٤٦

إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوها به ولأن الدين القيم هو فطرة الله التى فطر الناس عليها فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة . ثم يستطرد الزمخشرى فى هذا المعنى فيقول : « كيف اسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها ؟ ( قلت ) من الاسناد المجازى ، وهو أن يسند الفعل إلى شىء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشترين . فان قلت : هل يصح ربح عبدك وخسرت جاريتك على الاسناد المجازى ؟ قلت : نعم إذا دلت الحال وكذلك الشرط فى صحة رأيت أسدا وأنت تريد المقدام ان لم تقم الحال دالة لم يصح . فان قلت : هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازا فى معنى الاستبدال فما معنى ذكر الربح والتجارة كأن ثم مبايعة على الحقيقة ( قلت ) : هذا من الصنعة البديعية التى تبلغ المجاز الذروة العليا وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاما أحسن منه ديباجة وأكثر بهاء ورونقا وهو المجاز المرشح ونحو ذلك قول العرب فى البليد ، « كأن أذنى قلبه خطلا » وان جعلوه كالحمار ورشحوا ذلك دوما لتحقيق البلادة فادعوا لقلبه أذنين وادعو لهما الخطل ليمثلوا البلادة تمثيلا يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معاينة ، ثم يأخذ فى تبسيط هذا الكلام فيقول : لما ذكر سبحانه وتعالى الشراء تبعه ما يشاكله ويؤاخيه وما يكمل ويتم بانضمامه اليه تمثيلا لخسارهم وتصوير الحقيقة (١) .

وهو بذلك يشرح لنا المعنى المجازى فى قوله تعالى « اشتروا الضلالة » والتجوز العقلى فى قوله تعالى « فما ربحت تجارتهم » وما يتصل بذلك من متممات المجاز ومؤكداته وهو فى هذا الشرح يفيض فى التحليل والتفصيل والتعمق فى ايضاح المعنى وتبيينه .

---

(١) تفسير الكشاف ج / ١ ص ١٤٦ ، ١٤٩ ط الحلبى .

ويقول فى تفسير قوله تعـالى : « إنا عرضنـا الأمانة على السموات والأرض والجبـال فأبين أن يحملنهـا وأشفقن منها وحملهـا الانسان » ما خلاصته : عرض الأمانة على الجمادات وإباؤها واشفاقها مجـاز وأما حمل الأمانة فمن قولك : فلان حامل للامانة ومحتمل لها . ثم يفيض فى شرح التمثيل فى الآية ويأتى بنظائر هذا التمثيل ليقيسه بها (١) .

ويقول فى قوله تعالى « ولما سكت عن موسى الغضب » هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وجر برأس أخيك اليك فترك النطق بذلك وقطع الاغراء ولم يستحسن هذه الـكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبيل شعب البلاغة وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة ، ولمـا سكن عن موسى الغضب لا تجد النفس عندها شيئا من تلك الهمزة وطرفا من تلك الروعـة وقرىء ولما سكت واسكت ، أى اسكتـه الله أو أخوه باعتـذاره اليـه . والمعنى ولما طفىء غضبه (٢) .

٣ — ولا شك أن الالمام بالمعنى اللغوى للـكلمة أو بالمعنى المجازى فى ذاته هو من مقومات الفهم اللغوى للفظ ، كما أن فهم الاسناد المجازى فى الأساليب يعد خير توضيح للمعنى وتفسير له وذلك مما يرجع ولا ريب إلى الشرح والتفسير اللغوى للـكلمة أو الجملة أو الاسناد .

**القراءات فى الكشاف :**

ان الزمخشرى فى تفسيره يفيض فى بيان القراءات ووجوهها واختلاف معـانى الأسلوب القرآنى نتيجـة لهـا ، يقول الزمخشرى فى قوله تعـالى

---

(١) تفسير الـكشاف ج / ٢ س ٥٥٢ — ٥٥١

(٢) تفسير الـكشاف ج / ١ س ٥٧٩ — ٥٨٠

« ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » : قرىء بالفتح ثم قرىء بضم التاء « أى لا تتزوجوهن أو لا تزوجوهن » (١) . ويقول فى قوله تعالى « ويمدهم فى طغيانهم قراءة بن كثير وابن محيصن « ويمدهم » وقراءة نافع واخوانهم : « ويمدونهم » ... الخ (٢) .

ويقول فى قوله تعالى « ثم أرسلنا رسلنا تترى » الألف للتأنيث لأن الرسل جماعة وقرى تترى بالتنوين والتاء بدل من الواو كما فى « تولج » أى متوازيين واحدا بعد واحد (٣) .

ويقول فى قوله تعالى « ايان يبعثون بل ادّارك علمهم » ما نصه : ايان بمعنى متى ولو سمى به لكان فعالا من آن يئين ولا يصرف وقرىء ايان بكسرة الهمزة وقرىء بل أدرك . بل أدْرك . بل إدّراك . بل تدارك . بل أأدّرك بهمزتين . بل آأدرك بألف بينهما . بَلَ أدرك ، بالتخفيف والنقل بل أدرك بفتح اللام وتشديد الدال، وأصله بل أدرك على الاستفهام. بلى أدرك بلى أأدرك أم تدارك فهذه ثنتا عشرة قراءة ، وادارك أصله تدارك فأدغمت التاء فى الدال ، وأدّرك افتعل، ومعنى أدراك علمهم انتهى وتكامل ، وادّرك تتابع واستحكم (٤) ، وقوله تعالى « وصالح المؤمنين » هو واحد أريد به الجمع ويجوز أن يكون أصله صالحو المؤمنين بالواو فكتب بغير واو ، على اللفظ لأن لفظ الواحد والجمع فيه واحد (٥) ، وهكذا يفيض

---

(١) تفسير الكشاف ج / ١ ص ٢٧٣

(٢) تفسير الكشاف ج / ٢ ص ١٤٤

(٣) تفسير الكشاف ج / ٢ ص ٣٦٢

(٤) تفسير الكشاف ج / ٢ ص ٤٥٨

(٥) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٤٦

الزمخشري في بيان القراءات وشرحها وتحليل المعنى اللغوي المبني عليها ، ويؤثر من القراءات ما يتضمن معنى بليغا كما قال في قوله تعالى : « ولى نعجة واحدة » قراءة بن مسعود ولى نعجة أنثى — ويقال أمرأة للانثى الحسناء الجميلة، والمعنى وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتثنيها [١] ونجد الزمخشري أحيانا يستشهد بالقراءات المختلفة لتقرير اعتقاده الاعتزالي كما في تفسيره الآية ( ٤٨ من سورة البقرة ) وآية ( ١٨ من سورة آل عمران ) وغير ذلك من الوجوه.

فهو دائما يلتمس شيئا يرجح به جانب المعنى ويدع جانب الظاهر فنجده يقول في قوله تعالى « فشربوا منه إلا قليلا » وقرأ أبي والأعمش إلا قليل بالرفع ، وهذا من ميلهم مع المعنى والاعراض عن جانب اللفظ وهو باب جليل من علم العربية [٢] وانظر في تفسير البحر المحيط تعليق أبي حيان على قراءات الزمخشري وكيف أن الزمخشري يطعن كثيرا في نقل القراء وقراءاتهم [٣] .

### الاعراب ووجوه النحو في الكشاف : —

لا ينسى الزمخشري في تفسيره ثقافته النحوية التي كان إماما فيها فنجده يكثر من بيان الاعراب ووجوه النحو ويفيض في هذا المضمار ومن مثل ذلك ما كتبه في قوله تعالى « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى » حيث يقول : « يوم منصوب بتذهل وضمير ترونها الزلزلة ، وقرىء تذهل كل مرضعة

---

(١) تفسير الكشاف ج / ٣ ص ١١

(٢) تفسير الكشاف ج / ١ ص ٢٨٩

(٣) تفسير البحر المحيط — لأبي حيان — ج / ٥ ص ٢٤٨ — ٤٢٨ ، ج / ٢ ص ١٥٨

على البناء المفعول ، وتذهل كل مرضعة أى تذهلها الزلزلة وترى بالضم من أريتك قائما أو رأيتك قائما والناس منصوب ومرفوع والنصب ظاهر ومن رفع جعل الناس اسم ترى وأنت على تأويل الجماعة ... الخ (١).

فالزمخشرى حينما يتعرض لاعراب الآية : يحاور ويتمحل ويلف ويدور حتى يضع يده على ما يروم ومن أمثلة ذلك الكثيرة ، كلامه فى إعراب الآية الكريمة « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون ». والصابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف، والنية به التأخير عما فى حيز أن من اسمها وخبرها كأنه قيل ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصابئون كذلك وأنشد سيبويه شاهدا له :

وإلا فاعلموا أنا وأنتم
بغاة ما بقينا فى شقاق

أى فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك . فان قلت هلا زعمت أن ارتفاعه للعطف على المحل لأن واسمها ، قلت : لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر ، لا تقول ان زيدا وعمرو منطلقان . فان قلت : لم لا يصح والنية به التأخير فكأنك قلت ان زيدا منطلق وعمرو ، قلت : لأنى إذا رفعته عطفا على محل ان واسمها والعامل فى محلهما هو الابتداء ، فيجب أن يكون هو العامل فى الخبر لأن الابتداء ينتظم الجزأين فى عمله كما تنتظمها ان فى عملها فلو رفعت الصابئون المنوى به التأخير بالابتداء وقد رفعت الخبر بان لأعملت فيهما رافعين مختلفين . فان قلت : فقوله والصابئون معطوف فلابد له من معطوف عليه فما هو ؟ قلت : هو مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله إن الذين آمنو .. الخ . ولا محل لها كما لا محل التى عطفت عليها.

---

(١) تفسير الكشاف ج / ٢ ص ٣٤٠ ، ٣٤١

فان قلت : ما التقديم والتأخير إلا لفائدة فما فائدة هذا التقديم ؟ قلت : فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الايمان والعمل الصالح فما الظن بغيرهم [1] .. الخ .

والزمخشرى كثيرا ما يسخر النحو فى خدمة الاعتزال فعندما يرى أن ظاهر الآية : « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رحمة ورهبانية ابتدعوها » تخالف حرية الارادة فأعرب رهبانية على أنها منصوبة بفعل مضمر يفسره الظاهر مع تقديره ( وابتدعوا رهبانية ) ولم يجز العطف على ما قبلها لأنه لا يجوز عندهم عطفها على جعلنا ووصفها بقوله تعالى ( ابتدعوها ) لأن ما يجعله هو تعالى لا يبتدعونه هم ثم يرجع مرة أخرى ويقول ويجوز أن يكون رهبانية معطوفة على ما قبلها وتكون وابتدعوها صفة لها فى محل النصب ( أى وجعلنا قلوبهم فيها رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم بمعنى وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية [2] فيقف فى إعراب الآيات كى يقرر مذهبه الكلامى فيأتى مرة أخرى إلى معنى أداة العطف ( الواو ) يقول فى الآية « هو الأول ، والآخر والظاهر والباطن » فان قلت : فما معنى الواو ؟ قلت : الواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والأخروية والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولين ومجموع الصفتين الأخريين ، فهو مستمر الوجود فى جميع الأوقات الماضية والآتية فهى فى جميعها ظاهر وباطن جامع المظهور بالأدلة والخفاء فلا يدرك بالحواس وفى هذا حجة على من جوز إدراكه فى الآخرة بالحاسة [3] فكل هذه

(١) تفسير الكشاف ج / ١ ص ٤٧٤

(٢) تفسير الكشاف ج / ٣ص ٢٠٤

(٣) تفسير الكشاف ج / ٣ ص ٢٠٠ آية ٣ سورة الحديد

التعسفات والتمحلات لأجل أن يقرر بأن الله لايدرك بالحواس الظاهرة .

ولأجل أن يقرر عقيدة الاعتزال بأن مراد الرب كمراد العبد منه مايقع ومنه مايمتنع فيقول فى الآية « ولعلكم تشكرون » أن لعل هنا بمعنى الارادة أى إرادة أن تشكروا[١] وفى الآية « هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض[٢] » دليل آخر على دقة الزمخشرى فى التماسه الوجوه النحــــوية التى يسخرها لتقرير الرأى الاعتزالى فى مسألة حرية الارادة ، يقول : فان قلت : مامحل يرزقكم قلت : يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعته صفة لخالق وأن لايكون له محل إذا رفعت محل من خالق باضمار يرزقكم وأوقعت يرزقكم تفسيرا له أو جعلته كلاما مبتدأ بعد قوله هل من خالق غير الله ، فان قلت : هل فيه دليل على أن الخالق لايطلق على غير الله تعالى : قلت : نعم ، أن جعلت يرزقكم كلاما مبتدأ وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير فقد تقيد فيهما بالرزق من السماء والأرض وخرج من الاطلاق فكيف يستشهد به على اختصاصه بالإطلاق والرزق من السماء المطر ومن الأرض النبات[٣] . فنرى كيف ترك الوجه الثالث الذى لايتفق ومعتقده وجاء بالوجهين الآخرين إثباتا وتقريرا لرأيه بأن هناك خالقاً غير الله وهو الانسان الذى يخلق أفعاله .

فاذا ماتتبعنا الزمخشرى فى تفسيره عالما نحويا فهو عندما يتعرض للقرآن من الوجهة الاعرابية لاينساق وراء صناعته النحوية كسائر النحويين فينصرف ويبعد عن جانب المعنى ويأخذ بالظاهر ، بل نراه يجعل كل همه

---

(١) تفسير الكشاف ج/١ ص ٣١٦ آية ٥٢ سورة البقرة .

(٢) سورة الفاطر آية ٣ .

(٣) الكشاف ج/٢ ص ٥٧٠ .

*حيثما كان هناك تقديرا أعرابى أن يعالج الأحكام النحوية ويبين مقاصد*
النحو من الناحية التى تستخدم فيها وتخدم تفسير القرآن وتنسق معانيه يقول
فى الآية « يتربصن ثلاثة قروء[1] فان قلت : فعلام انتصب ثلاثة قروء ؟
قلت على أنه مفعول به كقولك المحتكر يتربص الغلاء أى يتربص مضى
ثلاثة قروء أو على أنه ظرف أن يتربصن مدة ثلاثة قروء ، فان قلت : لم جاء
المميز على جمع الكثرة دون القلة التى هى الاقراء ؟ قلت : يتسعون فى ذلك
فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما فى الجمعية ألا ترى
إلى قوله بأنفسهن ، وماهى ألا نفوس كثيرة ولعل القروء كانت أكثر
إستعمالا فى جمع قرء من الأقراء فأوثر عليه تنزيلا لقليل الاستعمال منزلة
المهمل . فيكون مثل قولهم : ثلاثة شموع[2] ، فاذا مارأى الزمخشرى أن
الحكم الأعرابى مخل بالمعنى رفضه ففى آية « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا
ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »[3] يقول والمنصوبان أعنى بين ذلك
قواما جائز أن يكونا خبرين معا وأن يجعل « بين ذلك » لغوا «وقواما»
مستقرا وأن يكون الظرف خبرا « وقواما » حالا مؤكدة ، وأجاز الفراء
أن يكون « بين ذلك » اسم كان على أنه مبنى لاضافته إلى غير متمكن
كقوله :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت

وهو من جهة الأعراب لابأس به ولكن المعنى ليس بقوى لأن ما بين
الأسراف والتقتير قوام لامحالة فليس فى الخبر الذى هو معتمد الفائدة

---

(١) سورة البقرة ٢٢٨ .
(٢) تفسير الكشاف ج/١ص٢٧٧ « البقرة » .
(٣) الفرقان ٦٧ .

فائدة[1] .

على أن الكشاف مظهر لثقافات الزمخشرى العديدة التى أحاطت بشتى علوم العربية أصولا وفروعا ففيه صورة واضحة لثقافته البيانية وفيه كذلك صورة لثقافاته فى التصريف والاشتقاق وما يليها من شتى علوم اللغة مما لا داعى فى هذا الفصل لزيادة الأطناب فيه .

**أصول لغوية فى الكشاف :**

١ — يحتوى الكشاف على مجمل الأصول اللغوية والعربية العامة التى اشتهر بالنبوغ فيها وتفوق فى دراساتها تفوقا ظاهرا وقد سبق أن ذكرنا عناية الزمخشرى فى تفسيره باللغة، والقراءات ، والنحو ، ووجوه الأعراب، ونضيف إلى ذلك أن الزمخشرى وضع فى تفسيره أهم الأصول البلاغية العربية عندما عرض لتفسير بعض الآيات التى هى من قبيل المجاز أو الاستعارة أو الكناية ، أو التى تشتمل على وجوه مختلفة ، من التقديم ، أو التأخير ، والحذف أو الزيادة ، والتعريف أو التنكير ، وغير ذلك من وجوه بلاغة الكلام وألوان فصاحته وما يشتمل عليه من محسن لفظى أو معنوى كالطباق والجناس مثلا وتفسير الكشاف من حيث اشتماله على على أصول البلاغة العربية والكثير من فروعها فى دقة تحليله وعمق تفصيله، وسعة احاطته ، وجمال عرضه ، وذكاء تطبيقه ، يكاد يعد فريدا فى بابه .

والزمخشرى كثير من الاصطلاحات التى تعد من أهم اصطلاحات البلاغة العربية ،وهو يفيض فى بلاغة الاستعارة والتمثيل والكناية والتشبيه، وفى بلاغة مختلف أساليب الكلام ، وكثيرا ما يذكر التخييل ،فى الآيات التى تجىء من قبيله ، يقول فى قوله تعالى : « والأرض جميعا قبضته يوم

(١) تفسير الكشاف ج/٢ ص ٤١٥ .

القيامة والسموات مطويات بيمينه » : أن الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعة ، تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله ، لاغير من ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقية ، أو جهة مجاز .. .. إلى أن يقول : ولا ترى بابا فى علم البيان أدق ، ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون ، على تعاطى تأويل المشتبهات ، من كلام الله تعالى ، وكلام الأنبياء ، فان أكثره وعليته تخييلات ، قد زلت فيها الأقدام ، قديما[1] .. الخ . وهو يريد بالتخييل هنا التمثيل على سبيل الاستعارة، والمراد ماجاء على غير سبيل الحقيقة بل على ضرب من التجوز والتأويل وهو يتكلم عن التخييل فى آيات أخر كثيرا ، وإنما ذكرنا التخييل على سبيل المثل لبعض الاصطلاحات البيانية التى يأتى بها الزمخشرى فى كشافه . ويقول الزمخشرى فى هذه الاصطلاحات البلاغية أنها ألفاظ مستحدثة لم يتعارفها الناس فى ذلك العهد — أى عهد الوضع ، اللغوى — وإنما أحدثوها بعد[2] .

أن صاحب الكشاف فى عرضه لبلاغة الآيات القرآنية ووجوه اعجازها ولما احتوت عليه من ضروب البيان يعد جليل القدر وعظيم المنزلة ، بين علماء التفسير والبلاغة .

٢ — ويكثر الزمخشرى فى كشافه من الاستشهاد ببلاغة القرآن الكريم بشعر المحدثين وكلامهم، مؤكدا أن المحدث وأن كان لا يستشهد

---

(١) تفسير الكشاف ج/٣ ص ٤٠، ٤١ وكذا فى نسخة الكشاف والظاهر « غلبته» أو أغلبه .

(٢) تفسير الكشاف ج / ١ ص ١٦٢ .

بشعره فى اللغة إلا أنه عربى اللسان ومايقوله بمنزلة مايرويه[1] ويكثر من الاستشهاد كذلك بقول الحسن البصرى فى اللغة والتفسير[2] ، وبغيره من الاسلاميين والمحدثين . ويستشهد كذلك بشعر للحريرى وكلام أعرابية مستجدية بمكة[3] .

٣ — يميل الزمخشرى فى تفسيره إلى ترجيح الاستعمال المستفيض الذى هو بمنزلة الخبر المتواتر ، على القياس ونص عبارته : ولكن استعمال المستفيض الذى هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات[4] . وحيث لا يشتهر الاستعمال المستفيض يستشهد الزمخشرى بالقياس ، كما فى كلامه على الرحمن حيث استدل باستعمالات العرب على أن الزيادة فى بناء الاسم هى ازيادة المعنى[5] .

٤ — ومن الجدير بالذكر أن الزمخشرى يطلق على المجاز فى اللغة « اتساعا » كما فى تفسيره لقوله تعالى : « ويجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق » حيث يقول : أن رأس الأصبع هو الذى يجعل فى الأذن ، فهلا قيل أناملهم ؟ ويجيب عن ذلك بأن هذا من الاتساعات فى اللغة التى لا يكاد يحصرها الحاصر ، ويسمى المجاز العقلى اتساعا كذلك .

٥ — والفلسفة اللغوية ظاهرة فى الكشاف ظهورا جليا ، حيث نجد

---

(١) الكشاف ج / ١ ص ٣ ، ٤٣ ، ١٧٠

(٢) راجع استشهاده مثلا فى معنى « الدولة » الكشاف ج / ٣ صفحة ٢١٥ ، ٢٥٧ وفى تفسير كلمة هماز .

(٣) الكشاف ج/٣ ص١٦٤ ، ١٠٣ ، ٢٩٩ ، ٢٩٤ .

(٤) تفسير الكشاف ج/٢ ص ١٧٧ ، ج/١ ص٤ج .

(٥) الكشاف ج/١ ص ٣٤ ، ١٦٧ ، ٤٥ .

الزمخشرى يحاول رد الفروع اللغوية إلى أصولها والمتشابهات إلى أصل واحد اويحاول أن يجعل بين الأصول المختلفة وجوه صلة وتناسب ، وذلك ماسوف نفصله فى الباب الثالث من هذا القسم عند الكلام على المبادىء العامة اللغوية عند الزمخشرى .

٦ — ومن أمثله ذوقه اللغوى الدقيق واحساسه بالفرق بين لفظه ولفظة ، ماعرض له فى كلامه على لفظه سلسبيل يقول : لسلاسة انحدارها فى الحلق وسهولة مساغها ' يعنى أنها فى طعم الزنجبيل وليس فيها لذعة ' ولكن نقيض اللذع ، وهو السلاسة يقال شراب ' سلسل ' وسلسال ، وسلسبيل ، فقد زيدت الباء فى التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ودلت على غاية السلاسة ، قال الزجاج : السلسبيل فى اللغة صفة لما كان فى غاية السلاسة[1] .

٧ — ويتعرض الزمخشرى فى تفسيره لوضع كثير من أصول الدراسات اللغوية والبلاغة فنجده يتحدث عن موسيقى اللفظ ويتعرض الموازنة اللغوية بين لفظة وأخرى ويشير إلى ماتوحى به اللفظة من تأثير وهزة ' ويتعرض للنقد اللغوى للكلمة ، ويذكر ماجرى فيها من الاتساع وغير ذلك من وجوه الاتجاهات اللغوية للمفردات .

وأخيرا فان هذه هى أهم ملامح الاتجاهات اللغوية عند الزمخشرى فى تفسيره الكشاف ولاضير علينا إذا كنا استطردنا فى هذا الموضع إلى الحديث عن كل مايتصل بالكشاف من دراسات وبحوث ، ومن الجدير بالتنويه أن الباب الثالث الخاص بالحديث عن تفصيل الكلام على الاتجاهات اللغوية عند الزمخشرى ، سوف يكمل جوانب هذا البحث ويوضح أهم خصائص الاتجاهات اللغوية عند هذا الأمام الجليل .

---

(١) تفسير الكشاف ج/ ٣ ص ٢٩٨ .

— ٣ —

**مصادر الكشاف :**

وكتاب الكشاف — الذى يعد من أهم كتب التفسير وأصوله ، حافل بالعديد من الآراء والمصادر التى أعتمد الزمخشرى عليها ورجع فى تفسيره اليها واستدل بآرائها حينا ونقدها حينا آخر وأضاف اليها اضافات حينا ثالثا . ونلحظ أن الزمخشرى فى أغلب الأمر ينقل الرأى ولا يشير إلى مرجعه ويستدل بالدليل ولا يذكر من أى كتاب أخذه .

ومن أجل اعطاء صورة واضحة عن « الكشاف » رأيت أن أشير إلى أهم مصادره التى أمكننى الابانة عنها ولا شك فى معرفة هذه المصادر ما يوضح لنا الكثير من ثقافات الزمخشرى واتجاهه الفكرى مما ومدى تأثره بالمفسرين الذين استقى منهم وأخذ عنهم .

**١ — مصادر اللغة :**

( ا ) كتاب سيبويه ( م ١٨٩ هـ ) : يستشهد بأقواله فى مواضع عديدة [١] .

(ب) اصلاح المنطق لابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ يذكره وينقده نقدا لاذعا [٢] .

( جـ ) الكامل للمبرد ( المتوفى ٢٨٥ هـ ) [٣] .

( د ) كتاب المتمم فى الخط والتهجى لدرستويه المتوفى ٣٧٤ هـ [٤] .

---

(١) تفسير الكشاف : ١١٧ ـ ١٧١ ـ ٦٧ / ١ ، ٨٥ / ٣ ، ٢٩٦ ـ ١٩٢ ـ ٢٩/٢ ، وتفسير البحر المحيط لابى حيان ـ ح ٦ ص ٩٨

(٢) تفسير الكشاف : ٢٨٢ ـ ٤٤٥ / ح ١

(٣) » » ٢٧٦ ـ ١٤٠ / جـ ٢ ، ٢٥١ / جـ ١

(٤) » » ٧٤ / جـ ١

( ﻫ ) كتاب الحجة لأبى على الفارسى المتوفى ٣٧٧ ﻫ [١] .

( و ) كتاب الحلبيات لأبى على الفارسى [٢] .

( ز ) كتاب التمام لابن جنى المتوفى ٣٩٢ ﻫ [٣] .

( ح ) كتاب المحتسب لابن جنى [٤] .

( ط ) كتاب الاقليد وهو كتاب فى اللغة الأدب لم نتعرف على مؤلفه [٥] .

( ى ) التبيان لأبى الفتح الهمدانى [٦] .

ونقل الزمخشرى كذلك عن كثير منهم يونس والكسائى [٧] ، والخليل ، — وأستاذ الفراء — معاذ بن مسلم الهراء [٨] كما نقل عن الاصمعى [٩] ، وأبى على الفارسى وابن جنى والجوهرى .

٢ — مصادر الادب :

( أ ) الحيوان للجاحظ [١٠] .

(ب) كتب التاريخ — لا يأتى بأسمائها [١١] .

---

(١) تفسير الكشاف ٦٢ / جـ ١
(٢) » » ٢٦٠ / جـ ١
(٣) » » ٢٧٦ / جـ ٢
(٤) » » ٢٩١ / جـ ٢
(٥) » » ٣٠٥ / جـ ٣
(٦) » » ١٣ / جـ ٣
(٧) » » ٢٧٧ / جـ ٢
(٨) » » ٢٨٨ ـ ٢٨٧ / جـ ٢ ، ٤٨ / جـ ١
(٩) » » ١٥ / جـ ٣
(١٠) » » ٤٤٩ / جـ ٢ ، ١٦٠ / جـ ١
(١١) » » ٥١٣ / جـ ٣

( ج ) ديوان الزمخشرى [١] .

( د ) نوابغ الكلم — للزمخشرى [٢] .

( هـ ) النصائح الصغار — للزمخشرى [٣] .

( و ) شافى العى من كلام الشافعى للزمخشرى [٤] .

( ز ) حماسة أبى تمام [٥] .

( ح ) ( استغفروا واستغفرى ) لأبى العلاء المعرى [٦] .

وينقل أيضا عن عبد الله بن المقفع [٧] ، وابن المعتز [٨] ، كما نقل عن أبى على الفارسى [٩] والجوهرى [١٠] ، وابن جنى [١١] .

٣ — **مصادر الفقه والحديث:**

( أ ) يشذ ويندر أن يذكر الزمخشرى فى تأليفه الكشاف مصادر الحديث والسبب يرجع إلى أنه حامل لاجازة الرواية فكان ينقلها من غير سند استنادا على روايته ، وان أشار إلى سنن أبى داود [١٢] .

---

(١) تفسير الكشاف ٢٦٠ / جـ ١
(٢) » » ٢٩٧ / جـ ١
(٣) » » ٣٦٨ / جـ ١
(٤) » » ٣٧٦ / جـ ١
(٥) » » ٤٣٠ / جـ ٢
(٦) » » ٤٦٦ / جـ ١
(٧) » » ٤٥٠ / جـ ٢
(٨) » » ٣١٤ / جـ ٢
(٩) » » ٣١٢ / جـ ٢
(١٠) » » ١٠ / جـ ١
(١١) » » ١٢٧ / جـ ٢
(١٢) » » ١٣٤ / جـ ٢

(ب) وأما مصادر الفقه عنده غالبا فهم أبو حنيفة والشافعى ويسند الأقوال اليهم ونراه أيضا يسند الأقوال أحيانا إلى الفقهاء بقول مطلق[1] .

٤ — **مصادر القراءات :**

( أ ) يعتمد فى قرءاته على استنباطاته حينا وعلى أقوال الصحابة والتابعين حينا آخر ويعتمد أيضا على المصاحف التالية : —

(ب) مصحف عبد الله بن مسعود[2] .

( ج ) مصاحف أهل الحجاز والشام[3] .

( د ) مصحف أبى بن كعب[4] .

وغيرها من القراءات والمصاحف كعاصم ونافع وعامر .

٥ — **مصادر التفسير :**

يرجع الزمخشرى فى تفسيره إلى مصادر عديدة مثل : —

( أ ) تفسير ( مجاهد ) المتوفى سنة ١٠٤ أو ١٠٣ هـ[5] .

(ب) تفسير عمر بن عبيد المعتزلى المتوفى سنة ١٤٤ هـ[6] .

( ج ) تفسير قتادة[7] .

( د ) كتاب نظم القرآن للجاحظ[8] .

( هـ ) تفسير أبى بكر الاصم المعتزلى المتوفى سنة ٢٣٥ هـ[9]

---

(١) تفسير الكشاف ٣٣٠ / ج ٢

(٢) « « ٢٧٨ / ج ٢

(٣) « « ٥٠ / ج ٢

(٤) « « ٢٩٥ / ج ٢

(٥) « « ٦ ، ١٣ ، ١٤ ، ٨٥ / ج ٣ — ٥٨٢ ، ٥٩١ ، ٢٨٤ / ج ٢

(٦) « « نشير اليه فيما بعد

(٧) « « ٤٢٣ ، ٤٢٢ / ج٢

(٨) « « المقدمة

(٩) « « ٥٧ / ج ٢

( و ) تفسير ( معانى القرآن ) للزجاج المتوفى ٣١١ هـ [1] .

( ز ) تفسير الرمانى — المتوفى سنة ٣٨٢ هـ [2] .

( ح ) تفسير التهذيب للحاكم أبى المحسن الجشى المعتزلى المتوفى ٤٩٤ هـ [3]

(ى) تفاسير وأقوال الصحابة كابن عباس وعلى ابن أبى طالب والحسن البصرى وابن مسعود وغيرهم [4] .

( ك ) وهناك تفاسير أخرى للخوارج والجبرة والرافضة والمتصوفة والحشوية [5] .

* * *

وهذه موازنة موجزة بين معانى القرآن للزجاج وبين الكشاف الزمخشرى :

١ — للزجاج ( م ٣١١ هـ ) تفسير اسمه « معانى القرآن » وهو فى أربعة أجزاء والموجود منه الجزء الرابع فقط وقد صوره معهد المخطوطات بالجامعة العربية ، ويقع فى « ٢٠٩ » ورقة وهو عن نسخه بخط القرن السادس الهجرى وقد كتبت بخط جميل فى قطع متوسط . ويبتدىء هذا الجزء بتفسير سورة يس وينتهى بآخر سورة التين .

ويمتاز هذا التفسير بصبغته اللغوية الواضحة، وقد أفاد منه الزمخشرى

---

(١) تفسير الكشاف ٦ ، ١٣ ، ١٤ ، ٨٥ / حـ ٣ ، ٥٨٢ ، ٥٩١ ، ٢٨٤ / حـ٢

(٢) « « تقتنى دار الكتب المصرية جزءا من أجزاء هذا التفسير تحت رقم ( ٢٧٦٢٧ ب ) وينصب جهد المؤلف فى الدفاع عن المعتزلة وآرائهم وتذليل اللغة لهذا الغرض .

(٣) « « ص ٤٢٣ — ٤٢٢ / حـ ٢

(٤) كشاف ص ٢١٠ — ٢٦٧ / ج ٢

(٥) « ص ٢١٠ ، ١٤٦ / ج ٢

فى الجانب اللغوى كثيرا ، وقد أشار اليه فى مواضع مختلفة حيث يعتمد عليه فى آرائه ويستدل به ولا ضير فى أن ننقل عنه بعض النصوص لنوازن بينها وبين آراء الزمخشرى فى الكشاف . ومن ذلك نجد أن الخصائص اللغوية المتفسيرين واحدة وأن الاتجاه فيهما متقارب ، وذلك مما يجعل الزمخشرى انه قد نظر إلى معانى القرآن للزجاج وأفاد منه حين جعله مصدرا من مصادره .

ويقول الزجاج فى تفسير « معانى القرآن » فى الآية « وجعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون » قرىء فى ايمانهم وقرىء فى أيديهم . والمعنى عند من قرأ فى أعناقهم ومن قرأ فى ايمانهم أو قرأ فى أيديهم — معنى واحد وذلك أن الغل لا يكون فى العنق دون اليد ولا فى اليد دون العنق ، والمعنى انا جعلنا فى أعناقهم وفى ايمانهم أغلالا وقوله فهى إلى الأذقان . فهى كناية عن الأيدى لا عن العنق لأن الغل يجعل فى اليد تلى الذقن والعنق .

قوله فهم مقمحون المقمح الرافع رأسه الغاض بصره وقيل للكانونين شهر قماح لأن الابل إذا وردت الماء ترفع رؤوسها لشدة البرد فلذلك قيل لهما شهر قماح وإنما ذكرت الأعناق ولم تذكر الأيدى ايجازا واختصارا لأن الغل يتضمن اليد والعنق ومن قرأ فى ايمانهم فهو أيضا يدل على العنق ومثل هذا قول الشاعر : — وهما المثقب العبدى :

وما أدرى إذا يممت أرضا
أريد الخير أيهما يلينى
أألخير الذى أنا أبتغيه
أم الشر الذى لا يأتلينى

وإنما ذكر الخير وحده ثم قال أيهما يأتيني ، لأنه قد علم الانسان أن الخير والشر معرضان له لايدرى إذا أمل أرضا أيلقاه خير أم شر ، ومثل هذا من كتاب الله تعالى « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر » ولم يقل تقيكم البرد لأن ماتقى الحر تقى البرد[1] .

والزمخشرى حينما يفسر نفس الآية ينظر إلى تفسير الزجاج فيقول : « ثم » مثل تصميمهم على الكفر وأنه لاسبيل إلى أرعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين فى أنهم لايلتفتون إلى الحق . ولا يعطفون ولاأعناقهم نحوه يطأطئون رؤوسهم له وكالحاصلين بين سدين لايبصرون أقدامهم ولاماخلفهم فى أن لاتأمل ولاتبصر وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله .

فان قلت مامعنى قوله ( فهى إلى الأذقان ) ؟ قلت : معناه فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها وذلك أن طوق الغل الذى فى عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادرا من الحلقة إلى الذقن فلا تخليه يطأطىء رأسه ويوطىء قذاله فلا يزال مقمحا . والمقمح الذى يرفع رأسه ويغض بصره يقال قمح البعير فهو قامح إذا روى فرفع رأسه ومنه شهر قماح لأن الأبل ترفع رؤوسها عن الماء لبرده فيها وهما الكانونان . ومنه اقتحمت السويق . فان قلت : فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدى وزعم أن الغل لما كان جامعا لليد والعنق وبذلك يسمى جامعة كأن ذكر الأعناق دالا على ذكر الأيدى . قلت : الوجه ماذكرت لك والدليل عليه قوله ( فهم مقمحون ) ألا ترى كيف جعل الأقماح نتيجة قوله : ( إلى الأذقان ) ولو كان الضمير للأيدى ، لم يكن معنى التسبب فى

---

(١) معانى القرآن — للزجاج مخطوط الجامعة العربية .

الأقماح ظاهرا ، على أن هذا ـ الأضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذى يدعوه المعنى نفسه إلى الباطن الذى يجفو عنه ترك للحق الابلج إلى الباطل اللجلج ، فان قلت : قرأ ابن عباس ـ رضى ـ فى أيديهم وابن مسعود فى إيمانهم فهل يجوز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدى أو للايمان : قلت : يأبى ذلك وأن ذهب الأضمار المتعسف ظهور كون الضمير للأغلال وسداد المعنى عليه كما ذكرت[1].

٢ — يقول الزجاج مفسرا قوله تعالى : حتى توارت بالحجاب سورة ( ص ) ... يعنى الشمس ولم يجر لها ذكر وهذا لأحسبهم أعطوا الفكر فيه حقه لأن فى الآية دليلا يدل على الشمس وهو قوله . ( إذ عرض عليه بالعشى الصافنات ) فى معنى إذ عرض عليه بعد زوال الشمس حتى توارت بالحجاب ولا يجوز الاضمار إلا أن يجرى ذكر ، ودليل الذكر بمنزلة الذكر . ( سورة ص ) .

والزمخشرى نراه ينظر إلى قول الزجاج فيقول : « والتوارى بالحجاب مجاز فى غروب الشمس عن توارى الملك أو المخبأة بحجابها . والذى دل على أن الضمير للشمس مرور ذكر ( العشى ) ولأن المضمر من جرى ذكر أو دليل ذكر[2] ، ولاشك أن المدلول اللغوى واحد فى التفسيرين .

٣ — ويقول الزمخشرى فى تفسير قوله ( الصافنات ) : الصافن الذى فى قوله :

ألف الصفون فما يزال كأنه
مما يقوم على الثلاث كسيرا

---

(١) تفسير الكشاف ٥٨٢ / ٢

(٢) تفسير الكشاف ج : ٣/١٤ .

وقيل الذى يقوم على طرف سنبك يدا ورجل هو المتخيم والصافن الذى يجمع بين يديه(١).

وقد نظر إلى قول الزجاج حيث يقول فيها : « قال أهل اللغة وأهل التفسير أيضا الصافن القائم الذى يثنى يديه او أحدى رجليه يعنى حتى يقف على سنبكه وهو طرف الحافر .

قال الشاعر :

ألف الصفون فما يزال كأنه

مما يقوم على الثلاث كسيرا(٢)

٤ — والزمخشرى يطمئن قلبه إلى المعانى اللغوية فى تفسير الزجاج إذ يقول الزجاج فى الآية ( إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى ، والأشراق(٣)) : الأشراق طلوع الشمس واضائتها يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا اضاءت وقد قيل أن شرقت وأشرقت بمعنى واحد والأول أكثر(٤) .

فيعمد الزمخشرى إلى هذا التفسير اللغوى فيقول : ( ووقت الأشراق هو حين تشرق الشمس أى تضىء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها ، يقال شرقت الشمس ولم تشرق(٥) .

٥ — قال الزمخشرى فى قراءة قوله تعالى « أنلزمكموها » : حكى

---

(١) تفسير الكشاف : ١٣ /٣ .

(٢) معانى القرآن : سورة ص ورقه ٩ .

(٣) تفسير الكشاف : / ١٨ ص ج ٣ .

(٤) معانى القرآن : ورقة ١٩ .

(٥) تفسير الكشاف : ٦/٣ .

عن أبي عمر واسكان الميم ووجهه أن الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة فظنها الراوى سكونا والاسكان الصريح لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين لأن الحركة الأعرابية لايسوغ طرحها إلا فى ضرور الشعر انتهى وأخذ الزمخشرى هذا الكلام من الزجاج قال الزجاج أجمع النحويون البصريون على أنه لايجوز اسكان حركة الأعراب إلا فى ضرورة الشعر فأما ماروى عن أبى عمرو فلم يضبطه عنه القراء وروى عنه سيبويه أنه كان يخف الحركة ويختلسها وهذا هو الحق وإنما يجوز الإسكان فى الشعر ثم يعلق أبو حيان على كلام الزمخشرى بقوله « والزمخشرى على عادته فى تجهيل القراء وهم أجل من أن يلتبس عليهم الاختلاس بالسكون ، وقد أشار[١] أبوحيان فى تفسيره البحر المحيط إلى الموارد التى استفادالزمخشرى من الزجاج[٢] .

ومن هذه النصوص المختلفة نعرف أن معانى القرآن للزجاج الذى أشار إليه الزمخشرى فى الكشاف كان — من غير ريب — من أهم مصادره وأجل مراجعه وأن الزمخشرى قد أفاد منه فى الاتجاه اللغوى ، فى تفسيره الكشاف كثيرا . ويتضح ذلك جليا من استقصاء التفسيرات التى كتبها هذان الامامان فى الآيات الواحدة .

* * *

وننتقل إلى ناحية أخرى فى البحث وهى الموازنة بين أراء الزمخشرى والرمانى[٣] من تفسيريهما وأن كان تفسير الرمانى مفقودا إلا أن الطوسى

---

(١) تفسير البحر المحيط ــ لأبى حيان ــ ج ٥ ص ٢١٧

(٢) نفس المصدر ج ٥ ص ٢٢٥

(٣) وانظر أيضا كتاب ــ النكت فى اعجاز القرآن ــ للرمانى ص ٨١، ٨٢ والكشاف ج١/٢٧٣ حيث نجد أراء الرمانى البلاغية منعكسة فى تفسير الكشاف .

يشير إليه كثيرا ، فتفسير الطوسى[1] يمكن أن يكون حلقة اتصال بين تفسير الزمخشرى والرمانى .

أما تفسير جزء عم المنسوبة مخطوطته إلى الرمانى ، وهى محفوظة بدار الكتب المصرية — قسم المكتبة التيمورية — ففى رأيى أن هذه المخطوطة ليست صحيحة النسبة إلى الرمانى نفسه ، إذ أنها مكتوب عليها بخط حديث: هذا تفسير الرمانى ، ويرجح أن تكون هذه الكتابة الحديثة بقلم المرحوم تيمور باشا .

وقد صور معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية قسما من تفسير الرمانى عن نسخة عثر عليها فى المسجد الأقصى وكتب عليها بخط حديث اسم على بن عيسى الرمانى ،أما خط هذه النسخة فجميل ومشكول وتاريخ نسخها يرجع إلى القرن السادس الهجرى وتقع فى ( ١٥٠ ) ورقة من القطع المتوسط وهى ناقصة من الأول والآخر ، وتحمل رقم ( ١٦ — ٤٩٠ ) ، وللأسف ليس فى هذه المصورة تفسير جزء ( عم ) ، إذ تبتدىء هذه المصورة بتفسير قوله تعالى من سورة إبراهيم : يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ . وتنتهى بتفسير الآية ٣٥ من سورة الكهف وهو قوله تعالى : « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا » .

وهذه المصورة صحيحة النسبة إلى الرمانى بعكس تفسير جزء عم المنسوب إليه ، وهناك دليل قاطع على أن تفسير « جزء عم » ليس للرمانى وهو أن تفسير هذا الجزء هو صورة طبق الأصل من تفسير الكشاف ، إذ

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى المشهور بشيخ الطائفه عند الامامية ( م ٤٦٠ هـ ١٠٦٨م ) له مؤلفات كثيرة ومنها تفسيره الكبير « التبيان » .

نرى أكثر العبارات منقولة بالحرف الواحد منه اللهم إلا فى مواد قليلة ، فاذا سلمنا جدلا بأن هذا التفسير حقا هو تفسير الرمانى يكون معنى ذلك أن الأمام الزمخشرى انتحل تفسير الرمانى ونسبه إلى نفسه ، وأعتقد أن هذا يتنافى مع مانعرفه من الظروف التى كانت تحوط بالزمخشرى من ناحية منافسيه ومخالفيه فى الرأى . على أن نسبة هذا الجزء من التفسير للرمانى لايعتمد على أى سند على مقطوع به ، ومجرد كتابة اسم الرمانى عليه ليس مبررا ولامجوزا علميا لهذا الانتساب ويبدو أن بعض الباحثين قد وقع فى هذا الخطأ وأخذ يقارن بين جزء عم هذا وبين تفسير الكشاف وأخذ يستنتج استنتاجات يعوزها الدليل ... نعم الشىء الوحيد الذى لايمكننا أن نشك فيه هو أن الزمخشرى أطلع وأستفاد كثيرا من تفسير الرمانى ولاسيما من الجوانب اللغوية .

ومن ذلك نخلص إلى نتيجة قطعية وهى أن تفسير « جزء عم » هذا ليس صحيح النسبة للرمانى . ويرجح أن بعض الناسخين قد نسخ صورا لهذا الجزء من الكشاف ثم نحله إلى الرمانى ، على أن تفسير هذا الجزء يتسم بسمة معاداة الاعتزال ونحن نعرف أن الرمانى كان معتزليا ، مما يستحيل معه نسبته إليه ولورجعنا إلى مصورة الجامعة العربية لعرفنا منها، حين نجيل النظر فيها أن صبغة تفسير الرمانى هى صبغة اعتزالية واضحة فهو ينتهز تفسيره لبعض الآيات ، ليحملها على الدلالة على تأييد أراء جماعة المعتزلة ، وفوق ذلك فهو يولى الجانب اللغوى فى تفسيره عناية كبيرة ، يقول الرمانى فى تفسير قوله تعالى : «ليجزى الله كل نفس ما كسبت ، أن الله سريع الحساب ، هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا إنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب » مانصه : قد يقال ماالجزاء ؟ الجواب

مقابلة العمل بما يقتضيه من خير أو شر فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ثم يستطرد المفسر الرمانى المعتزلى ، إلى الجانب الاعتزالى حيث يريد أن يتخذ من تفسير هذه الآيات حجة على مذهبه الاعتزالى ، فيقول : ويقال كم حجة فى الآية على مخالفى الحق الجواب : ثلاث حجج :

الأولى : حجة على المجبرة فى الارادة لأنها تدل على إرادته من جميع المكلفين أن يعلموا إنما هو إله واحد وهم « السنة » يزعمون أنه أراد من النصارى أن يثلثوا ومن الزنادقة أن يقولوا بالتثنية .

الثانية : حجة عليهم فى أن معصية الله لم يردها .

الثالثة : حجة على أصحاب المعارف أنه قد أراد من يتذكرون دلائل القرآن التى تدلهم على أنه واحد وقد تضمنت الاتيان بيان عما يوجبه الجزاء على الأعمال من الأخذ بالحزم وطلب الثقة فيما يعمل عليه من الفعل والاجتهاد فى طاعة الله جل وعز لأنها سبب النجاة من العقاب والفوز بالثواب[1].

ومن التفاسير الشيعية التى نهج الزمخشرى على نهجها ومن المرجح أنه اطلع عليها تفسير ( التبيان ) لمحمد بن حسن الطوسى أحد أقطاب الأمامية الاثنى العشرية المتوفى ( ٤٦٠ هـ ) ، وهذا[2] التفسير يحتوى على أراء اللغويين والمتكلمين والمفسرين وهو تفسير أدبى لغوى أكثر من أن يكون تفسيرا بالرواية ولاسيما أن المؤلف كان شيعيا والشيعة والمعتزلة يلتقيان فى كثير من الآراء الكلامية . ولاكمال البحث نقدم نماذج من « التبيان » لنوازن بينها وبين الكشاف : لتتضح الصورة التى نريد بيانها،

---

(١) راجع تفسير آية ٥٠ ، ٥١ من سورة إبراهيم من تفسير الرمانى المصورة .

(٢) ج ٢ص ٤١٨٩ ، ٢١ : الكشاف .

والتى يتضح منها تقارب الآراء والأفكار بين : « التبيان » و « الكشاف » : —

١ — يقول الطوسى فى تفسير قوله تعالى[1] : « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل » قيل فى معناه قولان : أحدهما أن اتخاذك بنى إسرائيل عبيدا قد أحبط ذلك وأن كانت نعمة على . الثانى أنك لما ظلمت بنى إسرائيل ولم تظلمنى اعتددت بها نعمة على وقيل قول ثالث : أنه لا يوثق بأنها نعمة منك مع ظلمك بنى إسرائيل فى تعبيدهم وفى كل ذلك دلالة وحجة عليه وتقريع له ويجوز فى أن النصب بمعنى تعبيدك بنى إسرائيل والرفع بالرد على النعمة أى وتلك نعمة على تعبيدك بنى إسرائيل وتركك اياى غير عبد والتعبيد اتخاذ الانسان أو غيره عبدا تقول عبدته وأعبدته بمعنى واحد — قال الشاعر :

علام يعبدنى قومى وقد كثرت
وفيهم أباعر ماشاءوا وعبدان

وقال الحسن : أراد ، أن أخذت أموال بنى إسرائيل واتخذتهم عبيدا فانفقت على من أموالهم ، فأراد أن لا يسوغه ماأمتن به عليه[2] .

فنرى الزمخشرى فى هذا المقام يذكر هذا بمعناه ويذكر الأقوال ويستشهد بالبيت ولكن بأسلوب مبسط ومنمق فيقول : كر على امتنانه بالتربيه فأبطله من أصله واستأصله من سنخه وأبى أن يسمى نعمته إلا نقمة حيث بين أن حقيقة أنعامه عليه تعبيد بنى إسرائيل لأن تعبيدهم وقصدهم بذبح أبنائهم هو السبب فى حصوله عنده وتربيته فكانه امتن عليه بتعبيد

---

(١) سورة الشعراء ، آية ٢٢ .

(٢) تفسير التبيان — للطوسى طبعة طهران ج ٢ ص : ٣٦١ .

قومه وتعبيدهم تذليلهم واتخاذهم عبيدا يقال عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبدا ، قال الشاعر : ـ

علام يعبدنى قومى وقد كثرت
فيهم أباعر ماشاءوا وعبدان

فان قلت إذا : جواب وجزاء معا والكلام وقع جوابا لفرعون فكيف وقع جزاء قلت : قول فرعون وفعلت فعلتك فيه معنى أنك جازيت نعمتى بما فعلت فقال له موسى : نعم ، فعلتها مجازيا لك تسليما لقوله لأن نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء . فان قلت تلك أشارة إلى ماذا وإن عبدت ما محلها من الأعراب قلت : تلك أشارة أى خصلة شنعاء مبهمة لا يدرى ما هى إلا بتفسيرها ومحل إن عبدت الرفع عطف بيان لتلك .... والمعنى تعبيدك بنى إسرائيل نعمة تمنها على . وقال الزجاج : ويجوز أن يكون أن فى موضع نصب(١) .

٢ — ويقول الطوسى كذلك فى تفسير قوله تعالى : « أنا رسول رب العالمين » وإنما قال رسول على التوحيد وهو الاثنين لأن المعنى كل واحد منا رسول رب العالمين وقد يكون الرسول فى معنى الجمع قال الهذلى :

ألكنى إليها وخير الرسول
لها أعلمهم بنواحى الخبر

أى وخير الرسل . وقيل : أنه فى موضع الرسالة فكما يقع المصدر موضع الصفة كذلك تقع الصفة موضع المصدر الارسال جعل الشىء ماضيا فى الأمر ومثله الأطلاق والبعث وأنشد فى ذلك يقول : ـ

---

(١) تفسير التبيان ـ الطوسى ج ٢ ص ٢٦٠ .

لقد كذب الواشون مابحت عندهم
بسر ولا أرسلتهم برسول

أى برسالة[1] ، والزمخشرى يأتى بنفس الكلام بشىء من التغيير ، ويعالج نفس المعالجة النحوية التى عالجها الطوسى ويستشهد بنفس البيت الذى استشهد به صاحب التبيان ، ويقول : —

هلا ثنى الرسول كما ثنى فى قوله تعالى ( أنا رسولا ربك ) قلت : الرسول يكون بمعنى الرسل و بمعنى الرسالة فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يك بد من تثنيه وجعل ههنا بمعنى الرسالة فجازت التسوية فيه إذا وصف به الواحد والتثنية والجمع كما يفعل بالصفة بالمصادر نحو صوم وزور . قال :

ألكنى إليها وخير الرسو
ل أعلمهم بنواحى الخبر[2]

٣ — ويقول الطوسى فى قوله تعالى : « فظلت أعناقهم لها خاضعين » قيل المراد بالأعناق الرؤساء وقيل فى وجه جمع الأعناق بالياء والنون مع أنها لاتعقل وهذا الجمع يختص بما يعقل وفيه أربعة أقوال : —

الأول : فظل أصحاب الأعناق لها خاضعين وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه لدلالة الكلام عليه .

الثانى : أنه أراد بالأعناق الرؤساء والجماعات كما يقال جاء عنق من الناس أى جماعة .

الثالث : أن يكون على الأقحام ، قال أبو عبيده والمبرد خاضعين من صفة الهاء والميم فى قوله أعناقهم كما قال الشاعر جرير :

(١) تفسير التبيان للطوسى : ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٢) تفسير الكشاف : ج ٢ ص ٤٢١ .

أرى مر السنين أخذن منى
كما أخذ السرار من الهلال

فعلى هذا يكون ترك الأعناق وأخبر عنها الهاء والميم وتقديره فظلوا خاضعين لها .

الرابع : انها ذكرت بصيغة ما يعقل لما نسب اليها ما يكون من العقلاء قال الشاعر :

عرزتها والديك يدعو صاحبه
إذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا (١)

وهذا هو نهج الزمخشرى فى هذا الصدد فيقول : فان قلت : كيف صح مجىء خاضعين خبرا عن الأعناق ؟ قلت أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فاقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله كقوله « ذهبت أهل اليمامة » كأن الأهل غير مذكور ، أو لما وصفت بالخضوع الذى هو للعقلاء قيل خاضعين ... وقيل أعناق الناس : رؤساؤهم ومقدمهم شبهوا بالأعناق كما قيل لهم هم الرؤوس والنواصى والصدور وقال : فى محفل من نواحى الناس مشهود وقيل جماعات الناس يقال جاءنا عنق من الناس لفوج منهم .

٤ — ويصرح الطوسى فى ديباجة تفسيره « التبيان » فى ذكر علل قيامه بهذا التصنيف بقوله : فان الذى حملنى على الشرع فى عمل هذا الكتاب انى لم أجد أحدا من أصحابنا قديما وحديثا من عمل كتابا يحتوى على تفسير جميع القرآن ويشتمل على فنون معانيه ، وانما سلك جماعة منهم فى جمع ما رواه ونقله وانتهى اليه فى الكتب المروية فى الحديث . ولم يتعرض

(١) تفسير الكشاف : ج ٢ ص ٤١٨

أحد منهم لاستيفاء ذلك وتفسير ما يحتاج اليه . فوجدت من شرع فى تفسير القرآن من علماء الأمة بين مطيل فى جميع معانيه واستيعاب ما قيل فيه من فنونه كالطبرى وغيره ... وبين مقصر اقتصر على ذكر غريبه ومعانى ألفاظه وسلك الباقون المتوسطون فى ذلك مسالك وتركوا ما لا معرفة لهم به فان الزجاج والفراء وما أشبههما من النحويين أفرغوا وسعهم فيما يتعلق بالاعراب والتصريف ومفضل بن سلمة وغيره استكثروا من علم اللغة واشتقاق الألفاظ والمتكلمون كأبى على الجبائى وغيره صرفوا همتهم إلى ما يتعلق بالمعانى الكلامية ، ومنهم من أضاف إلي ذلك الكلام فى فنون علمه فادخل ما لا يليق به من بسط فروع الفقه واختلاف الفقهاء كالبلخى وغيره ، وأصلح من سلك فى ذلك مسلكا جميلا مقتصدا محمد بن بحر أبو مسلم الأصفهانى وعلى بن عيسى الرمانى فان كتابيهما أصلح ما صنف فى هذا المعنى غير أنهما أطالا الخطب فيه وأوردا كثيرا مما لا يحتاج اليه .

ولا شك أن الطوسى اقتبس كثيرا من الرمانى ورجع إلى كتاب شرح المحصول لشمس الدين محمد بن محمود الأصفهانى واتخذ تفسيرهما مرجعا له ونظرا لما بين تفسير الكشاف وتفسير التبيان والتقارب الكثير بينهما فى المضامين والآراء نصل إلى نتيجة مهمة ، وهى أن الزمخشرى إما أن يكون قد استقى تفسيره مباشرة من تفسير الطوسى اعتمادا على نقله من التفاسير التى رجع اليها وإما أن يكون قد رجع إلى المصادر الموجودة فى تفسير الطوسى .

ولو فرضنا جدلا أن الزمخشرى لم يطلع على تفسير الطوسى ولم يتأثر به ، لكان ذلك مؤديا بنا إلى القول بأن كلا من التفسيرين تفسير الطوسى

وتفسير الزمخشرى قد استفاد شيئا كثيرا من تفسير الرمانى والأصفهانى، حيث يكون كل من هذين التفسيرين أصلا من أصول الكشاف وان لم يشر اليهما الزمخشرى .

— ٥ —

هذا ومن البديهى أن الناحية الاعتزالية فى الكشاف، وهى الواضحة كل الوضوح كما أسلفنا — كانت مقصودة للامام الزمخشرى كل القصد، وكان هو معنيا بها كل العناية ذلك أن الكشاف كان من أهم التفاسير التى كتبت على ضوء آراء الفرق الدينية ، والتى استخدم فيها العقل أساسا متينا فى دراسة القرآن الكريم . وقد انتصر الزمخشرى فى تفسيره لعقيدته الاعتزالية انتصارا كبيرا .

ونحن نعلم أن القرآن الحكيم هو المصدر الاول للثقافة الدينية، ومرجعها الأصيل ، فعليه لم يكن من الغريب أن تقوم حوله دراسات عميقة ودقيقة وهو خير ما يمثل تطور الفكر الاسلامى فى جميع مراحلها وفروعها المختلفة.

وليس القرآن دستورا الهيا فحسب ، بل ان دراسة القرآن هى التى تفصح عن الفكر الدينى والفكر اللغوى والأدبى والتاريخى والأفكار الاجتماعية والفلسفية والرياضية فى حياة المسلمين فى كل زمان وكل مكان ، والبحوث التى تحوم حول القرآن وتدور فى فلكه فتحت أمامنا أبوابا شاسعة فى ميدان الثقافة الاسلامية بمختلف نواحيها من حيث أن القرآن هو مدار لتلك الثقافات التى تسير حوله .

ومن الطبيعى أن هذه الدراسات لم تتوقف لأن القرآن ما زال هو السراج المنير الذى يضىء الطريق لكل سالك وحائر، ومنذ العصر النبوى والمسلمون الأولون يحاولون فهم القرآن للافادة منه فى التوجيه الروحى

والاجتماعى ، ومن ثم أخذوا يتعمقون فيه ويفسرونه من شتى جوانبه المختلفة فى أبسط صوره ، هو شرح كلام الله ، أو بعبارة أخرى هو الفن الذى يبين لنا مداولات ومفاهيم ألفاظ القرآن من حيثياته المختلفة ، وكان الذين يقومون بهذا العمل فى صدر الاسلام هم الرسول صلوات الله عليه والصحابة من بعده ، ثم بعض التابعين ، فكانوا يفسرون ما أشكل من القرآن ، وما صعب فهمه على الناس منذ القرن الثانى للهجرة ومع هذا كان البعض فى صدر الاسلام يتحرج من هذا التفسير وينظر إلى هذا العمل بعين الارتياب ، وكانوا يرونه بدعة لم تكن فى عهد الرسول (صلعم) ، وليس فى حقيقة الأمر إلا شهادة على الله بأنه عنى بهذه الآية كذا وتلك الآية كذا ، وقد كانوا لورعهم وتمسكهم الدينى العميق يتحرجون ويحتاطون من هذه الشهادة التى ربما تكون تفسيرا لا يصل إلى كنه المقصود القرآنى وحقيقته ، ولم يكن أساس هذا الشعور عبثا ، بل كان مستندا إلى أقوال النبى وعمل الصحابة وقد ورث أحاديث ومأثورات غير قليلة فيها نهى عن التفسير بالرأى .

وكان شقيق بن سلمة من هؤلاء المتحرجين[1] ، وكان أحمد بن حنبل يتحاشى من التفسير ويقول: « ثلاثة أشياء لا أصل لها : التفسير، والملاحم، والمغازى »[2] ، ولا شك أنه رضى الله عنه لم يكن يقصد ترك التفسير مطلقا بل يريد ترك القول بالرأى فى التفسير ، ويقول الامام الطوسى فى مقدمة تفسيره « التبيان » : « واعلم أن الرواية ظاهرة فى أخبار أصحابنا

(١) طبقات بن سعد ٥ / ١٤٨ — ١٣٩ — ٦ / ٦٨

(٢) ياقوت ج ٣ / ٢٢ — مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ١٤ ط ، دمشق — عن منهج التفسير — لامين الخولى

بأن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح عن النبي ( صلعم ) وعن الأئمة الذين قولهم حجة كقول النبي ( صلعم ) « وأن القول فيه بالرأى لا يجوز وروى العامة ذلك عن النبي ( صلعم ) قال : « من فسر القرآن برأيه وأصاب فقد أخطأ ) فكره جماعة من التابعين وفقهاء المدينة القول فى القرآن بالرأى كسعيد بن المسيب وعبيدة السلمانى ونافع . ومحمد بن القاسم وسالم بن عبد الله ، ولهذا كان جلة المسلمين يكتفون بالمأثور عن النبي وعن المعاصرين له من الصحابة ويسمى هذا النوع من التفسير « التفسير بالمأثور » أو « بالرواية » وكان رجال الحديث وأئمته هم أصحاب الشأن الأول فى هذا المقام ذلك لأنهم بروايتهم لكل ما صدر عن النبي من قول وفعل قد رووا فيما رووا أقواله فى القرآن أيضا وهذا هو السبب الذى من أجله نجد فى كتاب من أهم كتب الحديث وهو صحيح البخارى بابين فى الدراسات القرآنية هما : كتاب تفسير القرآن ، وكتاب فضائل القرآن ، ووجود مثل هذه الأبواب أو الكتب فى كتب الحديث هو الذى دفع المستشرقين وبعض مؤرخى التفسير إلى القول بأن التفسير نشأ أولا على أنه فرع من الحديث .

ويلاحظ أن الذى روى عن النبي من التفسير قليل ولكن كان هناك جماعة من الصحابة يفسرون بعض الآيات القرآنية حسب فهمهم الذى استوحوه واقتبسوه من نور النبوة وبأفكارهم النقية الصافية أمثال على ابن أبى طالب ، وعبد الله بن عباس وابن مسعود ، وأبى بن كعب ثم التابعين الذين رووا كل ما ذكر هؤلاء وأضافوا اليه ما اجتهدوا هم فى التفسير ، ثم تلقتهم طبقة أخرى فعلت فعلهم وهكذا .

وبمرور الزمن تضخم هذا التراث أو التفسير المأثور وأخذ يختلط به

عن غير قصد ، داخل البيئة الإسلامية من أقاصيص دينية وروايات لم تظهر مغزاها فى صدر الإسلام ، وهى التى سميت فيما بعد بالإسرائيليات التى حارب وجودها فى التفسير المفكرون والعلماء فى مختلف العصور .

وكانت الخطوة التالية هى ترتيب هذه المرويات من التفسير بالمأثور ومن ثم أخذ علماء الاسلام يجمعون تلك الروايات المبعثرة من هنا وهناك ويجعلونها حسب ترتيب الآيات القرآنية فى المصحف وأصبحت هناك كتب تفسير القرآن بأجمعه وفق المأثور ، ومنها التفسير المشهور ( جامع البيان فى تفسير القرآن ) للطبرى ، وكتاب ( الدر المنثور فى التفسير المأثور ) للسيوطى ، وقد اتهم بعض رجال التفسير بالمأثور بالأختلاق يقول الطوسى . « ومن المفسرين من حمدت طرايقه ومدحت مذاهبه كابن عباس والحسن وقتاده ومجاهد وغيرهم ، ومنهم من ذمت مذاهبه كأبى صالح والسدى والكلبى وغيرهم[1] .

وقد اتهم مقاتل كذلك بالكذب ويقولون أنه يروى عن مجاهد ولم يسمع من مجاهد شيئا ويروى عن الضحاك ولم يسمع منه شيئا وكان يأخذ عن اليهود علم الكتاب[2] .

وعلى ضوء التفسير بالرأى جاء علماء يفسرون القرآن ليخدموا به عقائدهم الخاصة ومشاربهم الشخصية ، فهناك مفسرون كانوا يفسرونه لينتصروا لعقائدهم الاعتزالية ، وآخرون يفسرونه لينتصروا لأذواقهم ، وفرق أخرى كانت تفسره على ضوء التطور العقلى للمسلمين وقد اتسع من

---

(١) مقدمة تفسير التبيان للطوسى .

(٢) الاتقان — للسيوطى — ج ٢ ص : ٢٢٤ ، التذهيب ص ٢٠٦ ، التفسير معالم حياته منهجه اليوم — لامين الخولى .

هذه الأنواع من التفاسير التفسير العقلى الذى كان يعتمد فيه المفسر على منطقة الفكرى وثقافته الأدبية واللغوية كالزمخشرى وأضرابه .

ومن البدهى أنه عندما يستعين المفسر فى تفسيره بالثقافات التى حذقها والعلوم التى تعمق فيها ، أن يتأثر تفسيره بتلك الثقافات وبتلك العلوم التى يستعين بها المفسر على فهم النص وبيان معانيه ، ومن هنا نجد تفاسير مختلفة ترضى كل ذوق وكل ذى ثقافة فالنحويون واللغويون صنفوا كتبا فى التفسير وفق مشاربهم وأذواقهم وعنوا بها ، وكذلك الفقهاء قد ألفوا تفاسير عنوا فيها بآيات الأحكام والمتكلم كان يفسر القرآن بما يتفق ومذهبه فى العدل والتوحيد وصفات الله والجبر والتفويض ، وهكذا فعل الفلاسفة ، فقد وقعوا فيما وقع فيه المتكلمون من المفسرين وسلكوا مسلكهم فى تأويل الآيات والعجيب أن كل هؤلاء كان يجد حجج مذهبه فى القرآن وهكذا المتصوفة فقد رأوا فى القرآن أفكارهم واتخذوه ذريعة قوية لأحقية مذاهبهم وعقائدهم .

ومن ثم نجد أن الخوارج مثلا لم يصعب عليهم أن يجدوا آيات من القرآن يستندون إليها فى خصومتهم لعلى بن أبى طالب وتصويب قتله على يدى ابن ملجم فقالوا إن قوله تعالى : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام » نزلت فى حق على ابن أبى طالب وقوله تعالى : «ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاته» نزلت عندهم فى ابن ملجم [1] وكذلك صنع الشيعة فى التفسير فلم يفتهم تأويل الآيات فى أحقية على للخلافة ، واستدلوا بآيات كثيرة ، منها

(١) راجع : هامش : مذاهب التفسير الاسلامى — لجولد تسهر — ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ص ٢٨٨ .

قوله تعالى : « فاذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » قالوا المراد : فانصب عليا للخلافة وقوله تعالى : « ياأيها الرسول بلغ ما نزل إليك من ربك فان لم تفعل فما بلغت رسالته : » قالوا المراد من الابلاغ هنا نصب على للخلافة وقالوا أن « الشجرة الملعونة » هى شجرة بنى أميه ، وقالوا المراد من قوله تعالى : « سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » أى ظلموا آل محمد وأمثال هذه التأويلات نراها فى كتبهم أمثال تفسير الرضا المنسوب إلى الأمام الثامن للشيعة وتفسير التبيان للشيخ الطوسى « وتفسير الطوسى » ، لفيض الكاشانى « وتفسير القمى » وغيرها من التفاسير .

وقد جاء تفسير الطبرى حاويا الكثير من فنون اللغة والأدب ، ونجد تفسير الرازى فيه المعقول والمنقول والفلسفة والكلام والملل والنحل وما إلى إلى ذلك ، ولم تكن هذة الثقافات إلا تعبيرا عن مستوى فهمهم وتذوقهم ابلاغه القرآن ، ومهما كان فقد كانت آثار شخصيات المفسرين واضحة فى تفسيرهم فى كل عهد وعصر ، وقد كان الناس مضطرين إلى هذا النوع من التفسير بسبب تطور البيئة والظروف الزمنية والمكانية لأنهم كانوا فى حاجة ماسة إلى فهم القرآن فهما لا يخالف ما أنزل الله ويوافق الظروف والأحوال التى يعيش فيها المسلمون ويقال أن أول من فتح باب التفسير على الناحية الأدبية واللغوية هو ابن عباس[1] ، فعندما رأى أن فى القرآن بعض لغات يصعب فهمها ، أخذ يرجع فى تفسيرها إلى الشعراء القدمى الذين كان يأخذ بأقوالهم فى التفسير اللغوى وكانت أقوالهم حجة فى ذلك ، وبهذا المبدأ فتح بابا واسعا وغزير الفائدة فى التفسير .

---

(١) تفسير المذاهب الاسلامية « جولد تسيهر » ترجمة الدكتور نجار ص ٨٩ وبعده .

— ٦ —

هذا ولتفسير الكشاف منزلة كبيرة بين ماألف فى تفسير القرآن الكريم ، ذلك أن العلماء المسلمين قد اهتموا فى كل عصر بتفسير كتاب الله وشرحه والكلام على كل مايتعلق بعلوم القرآن ، ومن طبقات المفسرين :

**١ — طبقة الصحابة :**

على بن أبى طالب ، زيد بن ثابت ( م ٤٥ هـ ) وابن عباس ، ( م ٦٨ هـ ) وابن مسعود ( م ٤٤ هـ ) .

**٢ — طبقة التابعين :**

أمثال مجاهد ( م ١٠٣هـ ) ، وعكرمة ( م ١٠٥ هـ ) ، وطاوس ( م ١٠٦هـ ) ، عطاء بن أبى رباح ( م ١١٤ هـ ) ، سعيد بن جبير (م٩٤هـ) ، الشعبى م ١٠٥هـ إبراهيم النخعى ( م ٩٥ هـ ) وسواهم .

**٣ — المتأخرون :**

مثل : الحسن البصرى ( م ١١٠هـ ) وقتادة ( م ١١٧هـ ) ، ومالك بن أنس ( م ١٥٠هـ ) .

**٤ ـ الطبقة الرابعة مثل :**

الطبرى ( م ٣١٠هـ ) ، الرازى ( م ٦٠٦هـ ) ، والخازن ( م ٧٤١هـ ) والبيضاوى ( م ٦٩٣هـ ) القرطبى ( ٦٧١ ) ، والجلالين : المحلى والسيوطى والجمل ، وابن كثير الدمشقى ( م ٧ ٧٧٤هـ ) والنيسابورى ( م ٤٦٨هـ ) وأبو حيان الأندلسى (م ٧٤٥هـ ) والخطيب الشربينى ( م ٩٨٠هـ ) والشهاب الخفاجى ( م ١٠٦٩ هـ ) ومحمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدى والمراغى وسواهم من المفسرين .

— ٧ —

وقد عنى العلماء والباحثون قديما وحديثا بكشاف الزمخشرى عناية كبيرة ، فألفوا فى شرحه والتعليق عليه ، وتحليل شواهده ، وفى الانتصار لمنهجه الاعتزالى، أو الرد على آرائه الاعتزالية ، أو الرد على آرائه الاعتزالية فيه كتبا كثيرة ، ومن أهم ذلك :

١ — على الطوسى (م ٥٦١ هـ) اختصر الكشاف وسماه جوامع الجوامع .

٢ — الشيخ محمد بن على الانصارى ( م ٦٦٢هـ )حذف موارد الاعتزال .

٣ — ناصر الدين البيضاوى ( م ٦٩٢ هـ ) .

٤ — أحمد بن منير الاسكندرانى ( م ٦٨٣ هـ ) سماه الانتصاف ، وتعقب الزمخشرى من الناحية الاعتزالية .

٥ — علم الدين العراقى ( م ٧٠٤هـ ) سماه الانصاف ، لخصه الأمام بدر الدين محمد المقرى المعروف بالقاذفى ( م ٧٠٥هـ ) .

٦ — قطب الدين الشيرازى ( م ٧١٠ هـ ) كتب حاشية الكشاف .

٧ — أبو على عمر السكونى( م ٧١٧ هـ ) ، المفسر العماد ، الكندى النحوى ( م ٧٧٠ هـ ) ، نظام الدين النيسابورى .

٨ — حاشية شرف الدين الطيبى ( م ٧٤٣هـ ) فى ست مجلدات .

٩ — أبو حيان الأندلسى ( م ٧٤٥هـ ) يتعقب الزمخشرى فى تفسيره المحيط .

١٠ — حاشية عمر الفارسى القزوينى ( م ٧٤٥هـ ) .

١١ — أحمد الجاربردى ( م ٧٤٦ هـ ) .

١٢ ــ لخصه الشيخ تاج الدين أحمد بن مكتوم ( ٧٤٩هـ ) .

١٣ ــ الفاضل اليمنى ( م ٧٥٠هـ ) .

١٤ ــ جمال الدين عبد الله ( م ٧٦٢هـ ) ، لخصه أبو الفضل بن حجر ( م ٧٦٢هـ ) ، عبد الله الزيلعى الحنفى ( م٧٦٢ هـ ) .

١٥ ــ حاشية قطب الدين التحتانى الرازى ( م ٧٦٦هـ ) .

١٦ ــ حاشية علاء الدين المعروف ببهلوان .

١٧ ــ حاشية أكمل الدين البابرتى ( م ٧٨٦هـ ) .

١٨ ــ حاشية سعد الدين التفتازانى ( م ٧٩٢ هـ ) .

١٩ ــ حاشية الشيخ يوسف التبريزى ( م٨٠٤هـ ) .

٢٠ ــ حاشية شيخ الاسلام + سراج الدين البلقينى ( م٨٠٥هـ ) .

٢١ ــ حاشية السيد شريف الجرجانى ( م ٨١٦هـ ) .

٢٢ ــ شرح خطبة الكشاف للفيروزابادى ( م ٨١٧هـ ) .

٢٣ ــ حاشية الشيخ ولى الدين أبو زرعه العراقى ( م٨٢٠هـ ) .

٢٤ ــ على المولى برهان الدين حيدر الهروى ( م٨٣٠هـ ).

٢٥ ــ حاشية علاء الدين القوشجى ( م٨٧٩هـ ) .

٢٦ ــ حاشية علاء الدين الطوسى ( م٨٨٧هـ ) .

٢٧ ــ حاشية أحمد بن إسماعيل الكورانى ( م٨٩٣ هـ ) .

٢٨ ــ حاشية محيي الدين الخطيب ( م٩٠١ هـ ) .

٢٩ ــ حاشية شيخ الاسلام الهروى المعروف بالحفيد ( م ٩٠٦ هـ ) .

٣٠ ــ تعليقات شمس الدين ـ ابن كمال باشا ( م٩٤٠ هـ ) .

٣١ ــ تعليقات خير الدين المطوفى ( م٩٤٨ هـ ) .

٣٢ ــ لخصه عبد الأول الشهير بأم ولد ( م٩٥٠هـ ) .

٣٣ ـ حاشية مالمولى المهدى الشيرازى ( م٩٥٦ هـ ) .

٣٤ ـ حاشية أبو السعود العمارى ( م٩٠٢ هـ ) .

٣٥ ـ تعليقات صنع الله المفتى ( م١٠٢١ هـ ) .

٣٦ ـ حاشية حامد بن مصطفى القاضى ( م١٠٩٨ هـ ) .

وسوى هؤلاء من العلماء والمفسرين الذين اهتموا بتفسير الكشاف من نواحيه المتعددة فمنهم الناقد والشارح ومنهم من أثنى عليه(١) .

وقد أثنى العلماء فى مختلف العصور على الكشاف ثناء كبيرا وقدح فيه بعضهم ـ وأغلب الظن أن ذلك الباعث عليه صبغة الكشاف الاعتزالية ـ قدحا كثيرا ، ومن جملة الآراء التى قيلت مايلى :

نقد شاعر من شعراء أهل السنة تفسير الزمخشرى الكشاف نقدا لاذعا ، فقال :

عجبا لحبر فى البلاغة ذائق
علم الفصاحة فرده ومؤلفه
جمع المعانى والبيان مكشفا
أسرار قرآن بأكمل معرفة
وأضله الله العظيم فزاغ عن
سنن الصواب وحاد عنه وحرفه(٢)

---

(١) راجع : فهرس دار الكتب المصرية ج ١ كشف الظنون ـ حاجى خليفة معجم سركيس ،

(٢) أزهار الرياض ـ للقاضى عياض ـ ح ٣ : س ٢٩٩ والأبيات لأبى زكريا يحى بن منصور التونسى .

ويقال شاعر آخر :

ولكنه فيه مجال لناقد
وزلات سوء قد أخذن المخانقا

فيثبت موضوع الحديث تعصبا
لمذهب سوء فيه أصبح مارقا

ويشتم أعلام الأئمة ضلة
ولاسيما أن أولجوه المضايقا(١)

وقد حمل ابن تيمية ( م ٧٢٨ هـ ) حملة شديدة بسبب اعتزالياته التى أسماها بدعا(٢) .

ويقول الامام تاج الدين السبكى ( م ٧٧١ هـ ) منوها بالكشاف ثم ناقدا له بسبب اعتزاله وابتداعه ، حيث يقول : الكشاف كتاب عظيم فى بابه ومصنفه أمام فى فنه إلا أنه رجل مبتدع تجاهر ببدعته يضع من قدر النبوة كثيرا ويسىء أدبه على أهل السنة والجماعة والواجب كشط مافى الكشاف من ذلك كله ، ثم يستطرد فى ذلك فيقول : اجمع الموافق والمخالف على أنه بحر من البحار منقولا معقولا فى حق هذا — الكتاب الذى اتخذت الأعاجم دراسته فى هذا الزمان ديدنها والقول عندما فيه أنه لاينبغى أن يسمح بالنظر فيه إلا لمن صار على منهاج السنة لاتزحزحه شبهات القدرية(٣) .

---

(١) كشف الظنون ص ١٤٨٤ ج١ . أزهار الرياض — للقاضى عياض — ج ٣ : ص ٢٩١ .

(٢) راجع ص ٢٢ من كتاب مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية .

(٣) معيد النعم ومبيد النقم — للسبكى — ص ١١٤ ، ١١٥ ط ليدن .

ويقول القمى (م بعد ٨٠٠ هـ) فى تفسيره المسمى (تفسير النيسابورى)[١]، مبينا تأثره بالكشاف وأخذه عنه : كتابى هذا جامع لأكثر التفاسير وجل كتاب الكشاف، أما الأحاديث - أى الواردة فى تفسير النيسابورى - فاما من الكتب المعتبرة واما من الكشاف ، والكبير الا من الأحاديث الموردة فى الكشاف فى فضائل السور فانا قد أسقطناها لأن النقاد زيفوها إلا ما شذ منها ، ثم يبين أخذه عن الكشاف فى القراءات وغيرها .

ويقول ابن خلدون (م ٨٠٨ هـ) منوها بالكشاف[٢] : أن من أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن[٣] من التفاسير ' كتاب الكشاف الزمخشرى ثم يشير ابن خلدون إلى الجانب الاعتزالى فيه ، وان مطالعتـــه للعلماء والراسخين مأمونة العاقبة وضرورية لغرابة فنونه فى اللسان[٤] .

ويقول كذلك ابن خلدون عنه ، أن جار الله الزمخشرى وضع كتابه فى التفسير وتتبع آى القرآن بأحكام هذا الفن[٥] بما يبدى البعض من اعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة . ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة ... الخ[٦] .

وللشيخ حيدر (م ٨٣٠ هـ) وهو من تلاميذ سعد الدين التفتازانى ،

---

(١) راجع مقدمة هذا التفسير من ٤ الى - ٦ ج / ١ مطبوع على هامش تفسير الطبرى

(٢) المقدمة ٣٨٢ الى ٣٨٤ ط البهية القاهرة

(٣) يريد - بهذا الفن - ما يرجع الى اللسان فى معرفة اللغة والاعراب والبلاغـة فى تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب

(٤) المقدمة ص ٥٠٨ ، تاريخ ابن خلكان : ج ١ ص ٤٨٦ ط بولاق

(٥) راجع - حاجى خليفة - كشف الظنون ص ١٤٨٢ وما بعدها

(٦) الاتقان - ج ٢ ص : ١٩١

حاشية على الكشاف ، وقد نوه بالكشاف وأثنى عليه وان قدح فى جانبه الاعتزالى [١] .

ويقول السيوطى ( م ٩١١ هـ ) فى الاتقان [٢] : نقلا عن حاشية « نواهد الابكار على تفسير البيضاوى » منوها بالكشاف ومستشهدا برأى الامام « البلقينى » ( م ٨٦٠ هـ ) ومعقبا عليه قائلا : « قصد الزمخشرى بما أبان الاشارة إلى براعته فى علم المعانى والبيان وكيف يترجح فنان جمعهما أوراق يسيرة قد وضعا بعض الصحابة والتابعين وما على الناس من اصطلاح أتى به عبد القاهر واقتفاه السكاكى ولا يقوم لهما فى كثير من المقامات دليل، وقد عقب السيوطى على ذلك بقوله « لم يتوارد البلقينى والزمخشرى على محل واحد وليس الزمخشرى عن الأحاديث بجاحد وإنما مقصوده ان القدر الزائد على التفسير من استخراج محاسن الفقر ولطائف المعانى التى تستعمل فيها الفكر وبيان ما فى القرآن من الأساليب لا يتهيأ إلا لمن برع فى هذين العلمين لأن كل نوع أصولا وقواعد لا يدرك فن بقواعد فن آخر والفقيه والمتكلم بمعزل عن أسرار البلاغة وكذا النحوى واللغوى الخ ...

ولمعين الدين الايجى الصفوى ( م ٩٠٥ هـ ) نقد لتفسير الكشاف ذكره فى كتابه « جوامع التبيان فى التفسير » حيث عابه لايثار جانب الرأى على جانب الرواية يقول: وكثيرا تجد الزمخشرى ومن يحذو حذوه أعرضوا عن المعنى المنقول عن الرسول والصحابة لعدم فهم مناسبة لفظية أو معنوية وان نقلوها بآخر الأمر بصيغة التمريض [٣]

---

(١) راجع ــ حاجى خليفة ــ كشف الظنون ص ١٤٨٢، وما بعدها

(٢) الاتقان ــ ج ٢ ص : ١٩١

(٣) معجم سركيس ج ١ ص : ٥٠٠ ، ٥٠١

— ٨ —

**الجانب الاعتزالى فى الكشاف :**

**تمهيد :** — هذا ونحن نعلم أن منهج المعتزلة يستند إلى تحكيم العقل من غير مساس بأصول العقيدة ، وهو منهج اسلامى فى البحث والتجربة والاستدلال العقلى والشك والقياس . ولقد كان المعتزلة أثر كبير فى القياس اللغوى ، كما يظهر ذلك من قولهم : اللغة اصطلاحيـــــة من وضع البشر لا توقيفية ، وكما يظهر أيضا من تحرر الجاحظ وأمثاله من المعتزلة كالفراء وأبى على الفارسى والرمانى وابن جنى وغيرهم فى تشقيقهم الكلام واستعمالهم المولد من الألفاظ ، بله الأعجمى ، وكما يستظهر لنا من تتبع آراء الزمخشرى وبحوثه اللغوية الطريفة التى حققها فى كتبه ، وتفريقه بين دلالة الألفاظ عن طريق الحقيقة ودلالتها عن طريق المجاز .

وعندما نجيل النظر فى الكشاف ، نرى كيف يتناول الموضوعات اللغوية فى مهارة وصبر ، مع العمق ودقة التناول والتدليل حتى استطاع أن يستنبط أصول المجاز والحقيقة والاستعارة والتشبيه ، فى معرض تدليل البيان لتأييد رأيه ومذهبه الكلامى المعتزلى ، ولكى نلقى ضوءا على هذه الناحية لا بد لنا من أن نلم الماما سريعا بعقائد المعتزلة حتى يمكننا أن نرى كيف كان يطوع اللغة ويعبدها لابتكار أسلوب فيه براعة أخاذة وبساطة مطمئنة ، وبلاغة طيعة .

**أصول عقائد المعتزلة :**

تلتقى المعتزلة جميعا مهما تفرقت بهم سبل الاعتقاد عند خمسة أصول التوحيد ، العدل ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، المنزلة على المنزلتين الوعد والوعيد .

يقول الشيخ الخياط أحد أئمة المعتزلة : « ليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، العدل الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فاذا أكملت هذه الخصال فهو معتزلى [1] والمعتزلة عقائد فرعية كمسألة خلق القرآن وغيرها مما ذكرناه سابقا .

**منهج الزمخشرى فى دعم أصول الاعتزال فى تفسيره :**

يحترم المعتزلة العقل احتراما كبيرا ، فهى تخضع لحكمه ، وتذعن لسلطانه وتعتمد عليه ، فى مجال البحث والاستنباط وترتكز على الحجج المنطقية والبرهان العقلى ، فى كل مشكلة وعند كل خصومة . انهم يتحررون من النصوص الجامدة ما دام فى ذلك مرضاة للعقل . ومن ثم فقد سلكوا طريق التأويل فى تفسير الآيات المتشابهة من القرآن الكريم ، وكل ما يخالف عقائدهم من النص القرآنى ، يحاولون أن يرجعوه إلى تأويل يتفق ومشربهم وعقيدتهم الاعتزالية ، لقد طبقوا القرآن على عقائدهم بدلا من أن يطبقوا عقائدهم على القرآن .

ومن ثم تحرروا من أغلال الألفاظ واستعملوا العقل مصدرا للثقافة الدينية وميزاناً توزن به حقائق الدين . والطريقة الأساسية فى أداء هذه المهمة هو سلوك منهج لغوى دقيق ينطبق على التوسع فى اللغة بشتى معانيها واشتقاقاتها .

ومن أمثلة اعتزاز الزمخشرى بالعقل قوله فى تفسير الآية : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » : بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر

---

(١) الانتصار — للرد على ابن الراوندى — للخياط ص ١٢٦ المعتزلة ليحيى بن أحمد المرتضى ص ٦ وانظر ظهر الاسلام ج ٤ وضحى الاسلام ج ٣ ط ٧ — ١٩٥٥ لاحمد أمين

والايقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا كنا غافلين فلولا بعث الينا رسولا ، ينبهنا على النظر فى أدلة العقل (١) ويعلق على هذا ابن المنير السنى فيقول : هذه من نزعات عقائد المعتزلة الذين يرون أن العقل كاف عندهم فى ايجاب المعرفة ، بل فى جميع الأحكام بناء على قاعدة التحسين والتقبيح العقليين وأما السنى فلا يتوجه عليه هذا السؤال فان العقل عنده شرط فى وجوب عموم الأحكام ولا تكليف عنده قبل ورود الشرائع (٢) ، ونراه يقول فى قوله تعالى « وتفصيل كل شيء » يحتاج اليه فى الدين لأنه القانون الذى يستند اليه السنة والاجماع والقياس بعد أدلة العقل (٣) ويقول فى تفسير قوله تعالى « ربنا اغفر لى ولوالدى فان قلت : كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين ؟ قلت : هو من مجوزات العقل لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف (٤) ، ويقول فى ترجيح العقل على السنة فى تفسير قوله تعالى : « وما كنت تدرى ما الكتاب وما الايمان » فان قلت : قد علم أن رسول الله ما كان يدرى ما القرآن قبل نزوله عليه فما معنى قوله ولا الايمان والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا ، وتمكنوا من النظر والاستدلال أن يخطئهم الايمان بالله وتوحيده ، ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التى فيها تنفير قبل المبعث وبعده فكيف لا يعصمون من الكفر ؟ قلت : الايمان اسم يتناول أشياء بعضها الطريق اليه السمع فعنى به ما الطريق اليه السمع دون العقل وذلك

---

(١) تفسير الكشاف ج / ٢ ص ٢٢٦
(٢) تعليقات ابن المنير الاسكندرانى ـ تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٦
(٣) تفسير الكشاف ص ١٥٨ ج / ٢ ط ١٩٥١
(٤) تفسير الكشاف ص ١٨٣ ج ٢ ط ١٩٥١

ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحى[1] وهكذا نرى الزمخشرى يقول فى الآية : « وخلق لكم فى الأرض » واستدل بهذه الآية على أن الأشياء التى يصح أن ينتفع بها ولم تجر مجرى المحظورات فى العقل خلقت فى الأصل مباحة مطلقا لكل أحد يتناولها ويستنفع بها[2].

والزمخشرى فى سبيل تأييده للعقل يجوز القياس العقلى فيقول فى تفسير قوله تعالى : « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون » هذا دليل على صحة القياس حيث جهلهم فى ترك القياس للنشأة الأخرى على الأولى[3]، أنه ينتهز الفرصة فى كل مناسبة ليستنبط من النصوص القرآنية برهانا جديدا لترجيح العقل واعزازه ، والغرض من هذا كله تأويل القرآن وإستخدام الآيات فى تأييد مذهبه الكلامى ، ومن ثم كان من الضرورى أن نعرف كيف حكم الزمخشرى الأصول الخمسة فى التفسير القرآنى وكيف أخضع الآيات لها :

١ — التوحيد :

يتفق المسلمون وشتى الفرق الاسلامية على هذا الأصل ولكن المعتزلة فى الحقيقة يتعمقون فى تحليله وفلسفته إلى أقصى حد فنراهم يفسرون الوحدانية تفسيرا خاصا من حيث الصفات الثبوتية والسلبية ، وينفون عنه التجسيم حسب ما وصل إليه اجتهادهم ، يقول المعتزليون : أنه تعالى ليس بجسم لأنه واحد والوحدة تقتضى البساطة وعدم التركيب من ماهية ومادة ولو كان جسما لاحتاج إل حيز وإذا احتاج إلى حيز فهو فقير والله

(١) تفسير الكشاف ص ٨٨ ج ٣ ط ١٩٤١ .

(٢) تفسير الكشاف ص ٢٠٨ ج١ سورة البقرة .

(٣) الكشاف ج٣ ص ١٩٦ .

غنى وليس كمثله شيء والزمخشري يدافع عن ذلك فى آيات من تفسيره فاذا ما رأى آية ظاهرها التجسيم ، أخرج كل ما فى جعبته من معارف وثقافات ليؤيد بها رأيه ، ولجأ خاصة إلى علم المعانى والبيان ليواتياه بالحل اللغوى المقنع ، يقول فى تفسير قوله تعالى : « إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » يد رسول الله التى تعلوا أيدى المبايعين هى يد الله . والحق منزه على الجوارح ، وصفات الأجسام فان عقد الميثاق مع النبى كالعهد مع الله وهو من قبيل التمثيل والتخييل[1] ، كما رأينا فى قوله تعالى مخاطبا لجهنم « هل امتلأت وتقول : هل من مزيد ؟ » فان هذا السؤال والجواب من باب التخييل الذى يقصد به تصوير المعنى فى القلب واقراره[2] ويقول فى آية « ويبقى وجه ربك » أن المقصود بالوجه ذات الله من قبيل اطلاق الجزء على الكل ويستشهد بقول « مساكين مكة » إذ يقولون : «أين وجه عربى كريم ينقذنى من الهوان[3] ؟ » وهكذا يقول فى تفسير قوله تعالى : قالت اليهود يد الله مغلولة حيث جعل الغل بمعنى البخل والبسط بمعنى السخاء ، دون أن يحتاج إلى أن يكون هناك يد . ويستدل على ذلك بأن الملك لا يعطى عطاء قط ولا يمنعه إلا بأشارته من غير إستعمال يد وبسطها أو قبضها ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا ما أبسط يده بالنوال لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود ثم يستطرد فيقول : ومن لم ينظر فى علم البيان عمى عن تبصر محجة الصواب

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٣٦ سورة الفتح .

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٦٣ :

(٣) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٨٩ سورة الرحمن .

في تأويل أمثال هذه الآية ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبث به [1]،
وهكذا في قوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفا صفا » فان قلت : ما معنى إسناد المجيء والحركة والانتقال إلى الله وإنما يجوز أن على من كان في جهة ، قلت : هذا تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثاره فمثلت حاله في ذلك مجال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من الهيبة والسياسة مالا يظهر بحضور عساكر ووزرائه وخويصه ،.

وبعد أن ينفي المعتزليون التجسيم عن الله عز وجل ينفون كذلك الكينونة والمكان عنه تعالى ، يقول في تفسير الآية : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » فان قلت : تعالى الله عن المكان فكيف صح أن يقال وسع كل شيء ؟ قلت : العلم والرحمة هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى، والأصل وسع كل شيء رحمتك وعلمك ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم ، واخرجا منصوبين على التمييز للأغراق في وصفه بالرحمة والعلم كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء [2]،
وعند تفسير الآية الكريمة : الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم « يقول : أنه فيها أظهار شرف الايمان والترغيب فيه وفيها فائدة أخرى وهي: التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معاينين ولما وصفوا بالإيمان لأنه يوصف بالإيمان الغائب ، فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أن إيمانهم وإيمان من في الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء في أن إيمان الجمع بطريق النظر والاستدلال لا غير ، وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٧١ سورة المائدة .
(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٥ سورة غافر .

وأنه منزه عن صفات الأجرام[1] ، ويقـــول فى الآية « الرحمن على العرش استوى » — ولما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا:« استوى فلان على العرش» يريدون ملكا وأن لم يقعد على السرير البته ، وقالوه أيضا لشهرته فى ذلك المعنى ومساواته « ملك » فى مؤداه وأن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر ونحوه قولك : « يد فلان مبسوطة » و « يد فلان مغلولة » بمعنى أنه جواد أو بخيل فلافرق بين العبارتين[2] .

وينفى المعتزلة ومن بينهم الزمخشرى جواز رؤية البارى فيقول صاحب الكشاف فى تفسير « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ، البصر هو الجوهر اللطيف الذى ركبه الله فى حاسة النظر به تدرك المبصرات فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به أبدا ولا تدركه لأنه متعال أن يكون مبصرا فى ذاته لأن — الأبصار إنما تتعلق بما كان فى جهة أصلا أو تابعا كالأجسام والهيئات وهو للطف أدراكه المدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك ، ويلطف أن تدركه الأبصار[3] .

وهكذا نرى الزمخشرى يؤول كل آية تدل فى ظاهرها على معني ينافى ما يجب فى ذات الله ومقامه إلى ما يريد فالوحدانية عند المعتزلة هى نفى جميع الصفات المادية والهيئة عن الله تعالى وأثبات أن صفاته عين ذاته لأنه لوكان غير هذا لزم أن يكون هناك صفة وموصوف وهذا من خواص

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٥ سورة غافر .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٩٥ سورة طه .

(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٢١ .

المركب ، فيقول فى الآية الكريمة « وهو السميع العليم » أنه السميع العليم لذاته[1] .

٢ — العدل :

يعتقد المسلمون جميعا بعدل الله ولكن المعتزلة تعمقوا فى فهمه وأثاروا حوله مسائل أولاها : أن الله يسير بالخلق إلى غاية ، وأن الله يريد خير ما يكون لخلقه ، وتفرعت من هذه المسألة نظريتان مشهورتان هما نظرية الصلاح والأصلح ، ونظرية الحسن والقبح العقليين وحاصل رأى المعتزلة فى النظرية الأولى ، أن الله لما كانت أعماله معللة ويقصد منها إلى غاية هى نفع العباد فالله يقصد فى أفعاله إلى اصلاح العباد ، ومن المعتزلة من قال أنه يجب على الله أن يعمل ما فيه صلاح لعباده ، ومنهم من لم يكتف بذلك ، بل قال يجب على الله رعاية ما هو الأصلح ، وجمهورهم على أنه يراعى ما هو الأصلح[2] والزمخشرى المعتزلى فى تفسيره يبذل قصارى جهده فى تقرير وبيان علل أفعال الله وأنها صادرة عن حكمة ومصلحة يقول فى تفسير الآية الكريمة: « قل هو إذن خير لكم » أنه لا يكشف أسراركم ولا يفضحكم ولا يفعل لكم ما يفعل بالمشركين مراعاة لما رأى الله من المصلحة فى الابقاء عليكم[3] .

ويذهب المعتزلة بمقتضى هذا المبدأ من رعاية الأصلح إلى أنه لا يجوز على الله تعالى أن يكون خالقا للمقدمات الموصلة إلى العصيان ، ففى تفسيره للآية الكريمة « ومما رزقناهم ينفقون » يذهب إلى أن الرزق هو الحلال

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢) أحمد أمين ضحى الاسلام ، الجزء الثالث صفحة ٤٥ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٦ .

لأن المعتزلة لايسمون الحرام رزقا لأنه ليس برزق وأن الله لايرزق[1] العبد الحرام ولايجوز أن ينسب إليه مايوصل العبد إلى المعصية ولايجوز فعل القبيح على الله لتعاليه عن القبيح ، فلفظ الرزق وإسناده إلى الله تعالى دليلان على أن المنفق هنا هو الحلال ،والزمخشرى تمسك فى إثبات نظريته بالاسناد فقط[2] ويصرح أيضا فى الآية : « ممارزقناهم » بقوله من الحلال لأن الحرام لا يكون رزقا ولا يسند إلى الله[3] .

وهكذا ينبه الزمخشرى فى مواضع عديدة من تفسيره على أن الله يراعى الأصلح ، ويؤول الآيات التى يناقض ظاهرها ذلك فى أفعاله ، فيقول فى الآية « فاخرج لهم عجلا » فان قلت : لم خلق الله العجل من الحلى صار فتنة لبنى إسرائيل وضلالا ؟ قلت : ليس بأول محنة محن الله بها عباده[4] ، ويقول أيضا فى قوله تعالى : « وماأعجلك عن قومك » بأنه زل عنه أنه عز وجل ماوقت أفعاله إلا نظرا إلى دواعى الحكمة وعلما بالمصالح المتعلقة بكل وقت[5] ، وكذلك يدعم نظرية الصلاح والأصلح بقوله تعالى : « قال إنك من المنظرين » فان قلت لم أجيب إلى استنظاره وإنما استنظره ليفسد عباده ويغويهم ؟ قلت فلما فى — ذلك من ابتلاء العباد وفى مخالفته من أعظم الثواب[6] ، ويقول الزمخشرى فى تفسيره الآية الكريمة : « فبما

---

(١) تفسير الكشاف : ج ٢ ص ٤٦ .

(٢) تفسير الكشاف ج : ص ١٠١ .

(٣) تفسير الكشاف : ج ٢ ص ١٦٥ .

(٤) تفسير الكشاف ج ٢ :ص ٣١١ .

(٥) تفسير الكشاف : ج ٢ ص ٣١٠ .

(٦) تفسير الكشاف ج ج ١ : ص ٥٤١ .

أغويتني ؟ » : إن الله لم يخلق له الغى حتى يحمل الإغواء على تكليفه بالسجود لأنه كان سببا فى غيه .

وأما المسألة الثانية نظرية الحسن والقبح العقليين ؛ فخلاصة رأى المعتزلة فيها هو : أن الحسن والقبح فى الأشياء ذاتيان والشرع تحسينه وتقبيحه للأشياء منه عليها لامثبت لها والعقل من غير بيان الشرع مدرك لها ومنتبه إليها ، لامنشىء لها .

يقول الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولاتعثوا فى الأرض مفسدين » ، فإن قلت : وصف النهى عن النقصان أمر بالابقاء ، فما فائدة قوله « قلت : نهوا عن عين القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزال لأن فى التصريح بالقبح نعيا على المنهى وتعبيرا له ، ثم ورد الأمر بالايفاء الذى هو حسن فى العقول مصرحا بلفظه أو زيادة ترغيب فيه[1] ، ونظرية الحسن والقبح العقليين أساسها الأمور الحسنة التى يفعلها المكلفون لايحتاج أن يحسنها ويحبذها المشرع وهو ليس بأمر توقيفى بل هو يدرك بالفطرة والعقل كحسن الإحسان وحسن الصدق ، وقبح الكذب وهو لايحتاج أن يقبح من ناحية المشرع لأنه فى حد ذاته وبنفسه قبيح وحسن سواء قال الشرع بذلك أم لم يقل : وهكذا تفرع من مسألة العدالة أن الله لايريد الشر ولا يأمر به[2] وأنه لايشاء الشرك والمعاصى ، والمسألة الثالثة التى لها أهمية كلامية من مسائل أصول العدل موضوع حرية الارادة ، أو الجبر والاختيار . يقول الزمخشرى فى تفسير الآية الكريمة ( فألهمها فجورها وتقواها ) معنى الهام

---

(١) تفسير الكشاف : ج ٢ ص ١٠٩ .

(٢) تفسير الكشاف ج : ٢ ص ٤٥٥ .

الفجور والتقوى إفهامها وإعقالها أن أحدهما حسن والآخر قبيح وتمكينه من اختيار ماشاء[١].

ونرى الزمخشري يسوق الأدلة التي يستقيها من ظواهر الآيات لتقرير مذهب الاختيار فيقول في الآية (لعلكم تتقون) لايجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم لأن الرجاء لايجوز على عالم الغيب والشهادة، وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسديد أيضا. ولكن « ولعل » واقعة في الآية موقع المجاز لا الحقيقة لأن الله عز وجل خلق عباده ليتعبدوه بالتكليف وركب فيهم العقول والشهوات وأزاح العلة في إقدارهم وتمكينهم وهداهم النجدين ووضع في أيديهم زمام الاختيار وأراد منهم الخير والتقوى فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا ليترجح أمرهم مختارون بين الطاعة والعصيان كما ترجحت حال المرتجى بين أن يفعل وأن لايفعل ومصداقه قوله عز وجل ليبلوكم أيكم أحسن عملا وإنما يبلو ويختبر من تخفى عليه العواقب ولكن شبه بالاختيار بناء أمرهم على الاختيار[٢] ومن ذلك نرى كيف يذهب الزمخشري إلى أن « لعل » منافية لمقام الألوهية ومن ثم حملها على المجاز. وإذا كان الله لايتدخل في إرادة الانسان وجعلها حرة ففعلت إن شرا أو خيرا فما مدى سلطان الشيطان على الانسان ؟ إن الشيطان ليس له سلطان على إرادة الانسان وإنما هو يزين والانسان يختار لنفسه إما طريق الهداية أو طريق الضلال. وقد وجد الزمخشري آية تعينه على تقرير هذا المعنى وهي (وقال الشيطان لما قضى الأمر أن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم

---

(١) سورة البقرة ٢١ — سورة الملك أية ٢ ـ سورة النحل أية ٣٥ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٧٨ سورة البقرة .

فاستجبتم لى فلاتلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى انى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ) فأخذ يعتمد عليها فى تقرير رأيه وهذا دليل على أن الانسان هو الذى يختار الشقاوة والسعادة وتحصيلهما لنفسه وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزين ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال فلاتلومونى ولا أنفسكم فان الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه[1] فاذا ثبت أن العبد حر طليق فى إرادته وأفعاله وأنه يتصرف كيفما يشاء وأن الله أعطاه العقل والتمييز ليبين الخبيث من الطيب . وعندما يرى الزمخشرى أن ظاهر بعض الآيات يفيد خلاف ذلك يبذل أقصى ما عنده من المقدرة الأدبية والبيانية ويجعلها دالة على عقيدته ولهذا نجده يقول فى الآية الكريمة « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة ، وإنما هو من باب المجاز ويحتمل أن — يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل ، فان قلت : فلم أسند الختم إلى الله تعالى وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه وهذا قبيح من الله محال ، ويجيب الزمخشرى عن هذا بأجوبة منها : أن الإسناد إليه تعالى كناية عن فرط تمكن هذه الصفة ورسوخها فى قلوبهم وأسماعهم فان كونها كذلك يستلزم كونها مخلوقة لله صادرة عنه فذكر اللازم لينتقل منه إلى الملزوم ، ألا تراهم يقولون إن فلان مجبول يقصدون بذلك رسوخ هذا المعنى فيه ولما لم يكن إرادة الحقيقة فى الإسناد إلى الله مقصودة على مذهبه وجب أن يعده مجازا متفرعا من الكناية ومن ذلك نرى

---

(١) ضحى الاسلام أحمد أمين ج ٣ ص ٦٩ .

كيف يقرر الزمخشرى مذهبه الاعتزالى فى حرية وقدرة بأجلى مظاهرها وكيف يؤول الآيات الدالة على خلاف ذلك .

**٣ ، ٤ الوعيد والوعد ، والمنزلة بين المنزلتين :**

وهما الأصلان الثالث والرابع من أصول المعتزلة ، وقد جمعناهما معا للارتباط الشديد بينهما ، وقول المعتزلة فى ذلك مبنى على تصورهم للإيمان وتصورهم للعدل الآلهى كما شرحوه ، وعلى قولهم فى أن العالم سائر لغرض يرمى إلى تحقيقه[١] فعند أكثر المعتزلة أن الإيمان هو الاعتقاد بالله ورسوله والإقرار باللسان والعمل بالأركان ، وليس التصديق والاعتقاد القلبى هو وحده كافيا فى حصول الإيمان . يقول الزمخشرى فى الآية «والذين يؤمنون بالغيب» فالإيمان الصحيح أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ويصدقه بعمله . فمن أخل بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق ومن أخل بالشهادة فهو كافر ومن أخل بالعمل فهو فاسق[٢] . ويسير الزمخشرى على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر ، وعنده أن الصغائر مالم يأت فيها وعيد والكبائر ماجاء فيها وعيد ولا تسقط الكبيرة إلا بالتوبة . ويكرر هذا فى موضع آخر فيقول : الكبائر الذنوب التى لا يسقط عقابها إلا بالتوبة والمعتزلة يرون أنه يجب على الله أن يثيب المطيع ويعاقب مرتكب الكبيرة فصاحبها إذا ما مات ولم يتب لا يجوز أن يعفو الله عنه لأنه أوعد على الكبائر وأخبر به ، فلو لم يعاقب لزم الخلف فى وعيده فهذا هو معنى أصلهم الذى أطلقوا عليه الوعيد والوعيد ، يعنون بذلك أن الثواب على الطاعات والعقاب على المعاصى قانون حتمى التزم الله تعالى به[٣] .

(١) ضحى الاسلام أحمد أمين ج ٣ ص ٦١ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٩٨ سورة بقرة آية ٢ .

(٣) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٦٣ ، انظر أيضا الوعد والوعيد الكشاف ج ١ ص ٤٠١

وفى الآية الكريمة يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ومايضل به إلا الفاسقين يقول الزمخشرى . الفاسق فى الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة وهو النازل بين المنزلتين أى بين منزلة المؤمن والكافر وقالوا إن أول من حد له هذا الحد أبو حذيفة واصل بن عطاء[1].

ويقول الزمخشرى فى موضع آخر : الناس إما مؤمن تقى وإما مشرك وإنما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك[2] .

**٥ - الامر بالمعروف والنهى عن المنكر :**

هذا هو خامس الأصول المعتزلة والمسلمون جميعا يسلمون به ويدل عليه قول الله تعالى ( ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر )[1] .

وهذه هى جملة الأصول الخمسة التى يذهب إليها الزمخشرى المعتزلى ويحاول تقريرها وشرحها وتأويل الآيات لتكون مؤيدة لها فى تفسيره الكشاف ويستفيد من نبوغه فى اللغة وعلومها فى أن يعبد الطريق أمام الصعوبات التى يواجهها ويذلل تلك الصعوبات بمهارة فائقة وتبصر فى العلوم اللغوية ، وقد رأينا مابذله من الجهد فى هذا المضمار . وأرجو أن أكون وفقت فى الالمام بتلك الاتجاهات اللغوية .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٠٧ سورة الاسراء .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٥ سورة البقرة آية ٢٦ .

(٣) آل عمران آية ١٠٤ ـ ضحى الاسلام أحمد أمين جـ٣ ص ٦٤ ، وراجع الكشاف فى تفسير هذه الآية ص ٣٤١ جـ ١ وظهر الاسلام ـ أحمد أمين جـ ٤ .

# الفصل الرابع

# الاتجاه اللغوى

# فى الفائق

## الاتجاهات اللغوية عند الزمخشري في كتابه « الفائق في غريب الحديث »

— ١ —

كتاب الفائق في غريب الحديث لجار الله الزمخشري ، أغزر كتب الحديث مادة لغوية ، وأكثرها تمحيصا وفائدة للباحثين والدارسين ، وقد أعجب به العلماء في مختلف العصور ،وقال عنه ابن الأثير : « إن الزمخشري سماه الفائق ولقد صادف هذا الاسم مسمى وكشف عن غريب الحديث كل معنى[١] .

ويذكر الزمخشري في مقدمة كتابه ، جهود العلماء في الكشف عن غريب ألفاظ الحديث ، وجهده في هذا السبيل ، وماصنعه من ترتيب الأحاديث ترتيبا سلمت فيه كلمات الأحاديث نسقا ولم تذهب بددا[٢] ،وقد التزم الزمخشري أن يورد الكلمات الغريبة من الأحاديث ويدل على مواضعها في أبواب الكتاب وقد رتبه على حروف المعجم ، وكل باب رتبه على الحرف الأول من الثاني[٣] ،وفي تفسيره الألفاظ الأحاديث يطرق الزمخشري أبوابا من النحو والبلاغة ويستشهد بكلام العرب ، وأمثالهم وشعرهم ، ولذلك يعد ثروة لغوية فريدة[٤] .

---

(١) كتاب النهاية — لابن الأثير — ١ — ٧ .

(٢) الفائق ج ١ ص ٢ ط القاهرة ١٩٤٥ .

(٣) التزم الزمخشري سرد الحديث أو الاثر بتمامه في أول كلمة غريبة فيه ثم يفسرها ويفسر مابعدها من كلمات غريبة فلا يعود لذكرها مرة أخرى .

(٤) راجع مقدمة البيجاوي وأبي الفضل لكتاب الفائق .

وقد طبع الفائق فى حيدر آباد ( هند ) عام ١٣٢٤ ﻫ ثم طبع فى مصر عام ١٣٦٤ ﻫ ( ١٩٤٥ ) . والفائق شبيه بأساس البلاغة من حيث العمل اللغوى ولكنه لايقاربه من جانب المنهج ، إذ لم يبين فيه وجوه البلاغة ولاتعرض المجاز وماإليه ، مما بنى عليه الأساس ويعلل ذلك بعض الباحثين[1] بأن الزمخشرى ألف الفائق أولا ثم الأساس ثانيا أغزر مادة، وأكثر تحقيقا وأعظم منهجية .

— ٢ —

والحديث النبوى الشريف قد أولاه العلماء ، عناية كبيرة فى مختلف العصور وألفوا فى جمع غريبه وفى شرح هذا الغريب وترتيبه مؤلفات كثيرة وأقدم الكتب العربية فىغريب الحديث هو كتاب « أبى عبيد »(م٢١٠، أو ٢٠٨ ﻫ ) كما يذهب إلي ذلك ابن الأثير ، ويذكر « ابن النديم » إن أول من ألف فى غريب الحديث هو ( ابن عبد الأعلى )[2] ، وهو معاصر ( لأبى عبيد )[3] ، ثم صنف فى الغريب بعدهما ( الضرير الكندى ) ( م٢١٤ﻫ ) ( والنضر بن شميل م ٢٠٣ ) ومحمد بن عبد الواحد غلام ثعلب م ٤٦٢ﻫ ) و ( أبو عمر الشيبانى م ٢٠٦ ﻫ ) — والأصمعى( م٢١٦) و ( موفق الدين البغدادى م ٦٢٩ ﻫ ) والهروى وابن الأثير( صاحب كتاب النهاية ) وسواهم من العلماء على مختلف الأجيال مما يضيق المقام عن

(١) المعجم العربى للدكتور نصار ج ١ : ص ٥٩ ط ١٩٥٦ القاهرة .

(٢) تاريخ بغداد — للخطيب — ج ١١ ص : ٤٠٤ .

(٣) المعجم العربى — ج ١ : ص ٥٠ .

استقصائهم ووصف كتبهم[1] . وكتاب الفائق للزمخشرى يعد من أجل كتب غريب الحديث وواسطة عقدها .

— ٣ —

يبدأ الزمخشرى كتابه بكتاب الهمزة ويليه كتاب الباء والتاء فالثاء .... الخ . وهو يعتبر حرف الكلمة الأول باعتبار فعلها الثلاثى إن كانت الكلمة فعلا ، أو أصلها اللغوى إن كانت اسما ، وبذلك رتب الكتاب على حروف المعجم الواقعة فى أوائل الكلمات الغريبة المقصودة بالتفسير ( يجىء المؤلف إلى أشهر كلمة فى الحديث فيشرح غريبها ويتطرق من ذلك إلى شرح باقى مفردات الحديث التى وقعت فيه تلك الكلمة ) ومن ثم كان فى العثور على طالب الحديث منه كلفة ومشقة كما يقول (ابن الأثير)، وإن كان دون غيره من متقدمى الكتب . ومن الجدير بالذكر أن كل كتاب يحتوى على فصول بالنظر إلى الترتيب الهجائى للحروف الثوانى من الكلمة، ولنستعرض كلمة من كلمات هذا المعجم اللغوى الجليل لنرى إتجاه المؤلف فيه .

يقول المؤلف فى شرح كلمة « السنة » وذلك فى فصل السين مع النون وقد جاءت هذه الكلمة فى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه وسلم. أنه حض على الصدقة فقام رجل قبيح السنة ، صغير القمة يقود ناقة حسناء جملاء ، فقال هذه صدقة ) يقول الزمخشرى : السنة الصورة ، يقال ما أحسن سنة وجهه وقيل : سنة الخد : صفحته . وقالوا هو أشبه به

(١) راجع مقدمة النهاية لابن الاثير فى تاريخ التأليف فى غريب الحديث وص ٥٠ ومابعدها ج ١ المعجم العربى للدكتور حسين نصار .

سنة ومنة وأمة ، أى صورة وقوة ونقل وقامة ، ومنها : المسنون المصور. القمة : شخص الانسان قائما وراكبا ، يقال : أنه لحسن القمة على الرحل ونظر عرابى إلى دينار ، فقال ماأصغر قمتك وأكبر همتك الجلاء : الجليلة ، وهى فعلاء التى لاأفعل لها كديمة هطلاء ..

فنجده يفسر كلمة السنة . ثم يشرح معناها اللغوى ثم يشرح معانى الكلمات المهمة التى جاءت فى الحديث نفسه وهو شرح لغوى لايزيد عن تبيين المعنى وتوضيحه ، دون أن يقصد إلى بيان حقيقة ومجاز دون أن يفيض فى الشرح اللغوى لنفس الكلمة على ما نجده فى أمهات كتب المعاجم اللغوية .

فلنأخذ كلمة أخرى مثل،فرط ،فنجده يصدر هذه المادة بالحديث الذى وردت فيه. ثم يقول:فرط يفرط إذا تقديم وهو فارط وفرط ،ومنه قيل لتباشير الصبح افراط،وللعلم المستقدم من أعلام الأرض ،فرط ويقال للدعاء فى المعزى، جعله الله لك فرطا وسلفا صالحا ، وحديث رسول الله : « أنا فرطكم على الحوض » . كأنه قال أنا أولكم قدوما على الحوض وهنا نجد الزمخشرى يذكر معانى الكلمة الحقيقية منها والمجازى دون أن يصرح بذكر الحقيقة أو المجاز .

وفى خاتمة الكتاب يقول الزمخشرى أنه انتهى منه فى أوائل شهر ربيع الآخر سنة ٥١٦ هـ ) ويصف كتابه بأنه جليل جم الفوائد غزير الفوائد من أتقن مافيه من رواية وعلقة بفهمه حفظا ودراية نبغ فى أصناف من العلم وبرع فى فنون من الأدب(١) .

---

(١) الفائق ج ٣ : ص ٢٣٤ .

— ٤ —

وإذا رجعنا إلى الكتاب نجده أنه يطرق بحوثا نحوية كثيرة منها : كلامه في بله ، واستعمالاتها[١] ، ولغة أهل الحجاز إذا وقفوا على الألف[٢]. ولام التعريف ، وتصغير بعض أسماء الاشارة[٣] ، وقط واعرابها واستعمالاتها[٤] وبعض الكلمات المحذوفة اللام[٥] ، وتخفيف الهمزة[٦] ، وقلب تاء الافتعال[٧] ، بعض الكلمات التي لاتقع إلا في النداء[٨] ، ومتى تعمل إذا[٩] .

كما أنه يطرق بحوثا لغوية عديدة ، مثل بعض غرائب الجمع[١٠] ، ومعاقبة العين الحاء[١١] ، وزيادة الباء[١٢] ، وكلمة التنور

---

(١) الفائق ج ١ : ص ١٠٦ .

(٢) الفائق ج ١ : ص ١١٩ .

(٣) الفائق ج ١ : ص ١٤٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٣١٤ .

(٥) نفس المصدر : ص ١٣٨ .

(٦) المصدر السابق ص ٤٠٢ ج ١

(٧) المصدر السابق ج ١ ص ٦٥٦ .

(٨) المصدر السابق ص ٤٧ ج ٢

(٩) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٥ .

(١٠) المصدر السابق ص ٣٢٥ ، ٢٤٣ ج ١ .

(١١) الفائق ج ٢ ص ١١٤ .

(١٢) الفائق ج ١ ص ١٣٧ .

وأصلها[١] ، وكل كتاب حكمة عند العرب مجلة[٢] ، وسوى ذلك من شرح مفردات وتراكيب لغوية عديدة .

ويحتوى الكتاب شرح أمثال عديدة وردت أثناء الشرح اللغوى لغريب الحديث .

هذا بالاضافة إلى ماق الكتاب من مادة لغوية فى غريب الحديث مما أبنا الك اتجاه الزمخشرى فيه .

والكتاب بلاشك يعد معجما لغويا كبيرا وأن كان معجما خاصا بألفاظ الحديث الغريبة ، وإذا أخذنا أى بحث لغوى فى الفائق لنعرف منه روح ، الزمخشرى فى الفهم والبحث والمناقشة مثل كلمة ( سيد وأعلالها ) نجد الزمخشرى يقول : ( هو فيعل من ساد يسود قلبت وأوه لمجامعتها الياء وسبقها إياها بالسكون[٣] فيلخص القاعدة الصرفية فى ذلك تلخيصا واضحا لالبس فيه ولاخفاء .

وهكذا نخرج من ذلك بنتيجة أخيرة وهى أن الفائق يعد من روائع تراث الزمخشرى اللغوى ، ولاشك أنه قد عرض لشتى البحوث اللغوية أوردها فيه بروح العالم وعمق الباحث وسعة اطلاع المؤلف ، ممايجعلنا نؤكد أن الزمخشرى فى هذا الكتاب قد أفاد اللغة العربية فائدة جلى لاتنكر .

وقد كان بودى أن تساعدنى المصادر المختلفة على الموازنة بين الفائق وبين غيره من الكتب التى ألفت قبله ، فى غريب الحديث ، ولكن هذه

---

(١) الفائق ج ١ ص ١٣٧ .

(٢) الفائق ج ١ ص ٢٠٦

(٣) الفائق : ج ١ ص ٦٢٢

الـكتب مفقودة نرى أوصافها فى بعض كتب التراجم والفهارس [١]، والنهاية لابن الأثير وهى لا تـكفى لمقارنة مبسطة دقيقة .

ولا يفوتنا فى خاتمة هذا الفصل أن نشير إلى أحد أئمة اللغة وفحولها والذى ألف فى غريب الحديث : أبى عبيد القاسم بن سلام الهروى البغدادى ( م ٢٢٤ ) وقد ألف هذا الامام كتابه المشهور ( غريب الحديث ) فأطال ونظم وانتزع اعجاب الباحثين وقال الخطابى فى مقدمة ( غريبه [٢]) بلغنى أن أبا عبيد مكث فى مكاتبه أربعين سنة ، يسأل العلماء عما أودعه من تفسير ( الحديث والأثر ) وقد جمع فيه ما فى كتب المؤلفين السابقين . ونهج فيه أبو عبيد نهج كتب المسانيد، فأفرد أحاديث الرسول وأحاديث كل رجال الصحابة والتابعين على حدة ، وأورد الأحاديث فى كل مسند بدون أى ترتيب ، وتقدم النسخة التى فى دار الـكتب المصرية ( تحت رقم ٢٠٥١ حديث) بعبارة « وقال أبو عبيد فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم . ) فى مسند النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يذكر الحديث ثم سنده ، ثم يشرح لفظه الغريب والمعقود له الباب ، ثم ينتقل إلى حديث آخر ، وراعى فيه شرح الغريب وتفسير اللفظ ، وإيراد بعض المشتقات القليلة ، مثل الفعل والمصدر ، والاستشهاد على المعنى من القرآن والشعر ، وبعض الأحاديث الأخرى التى قد ترفع إلى الراوى نفسه المفرد له المسند أو غيره .

وقد أعجب الناس به منذ ظهوره ، من لغويين وفقهاء [٣] والزمخشرى

---

(١) نزهة الألباب .لابن الانصارى ـ ١٩١ ـ ياقوت معجم الأدباء ٦ /٣٦٢ ، ١٦٩ /١٢١ ، ١٦ /١٠ ، الفهرست ٢٣١ وفوات الوفيات ١ /٤ كشف الظنون ، وفيات الأعيان ١ /٥٠٤ .

(٢) نهاية ابن الاثير ـ ٦

(٣) راجع الفائق ج ٢ : ص ٤٠

أيضا من الذين اعجبوا بهذا الكتاب واطلع عليه واستعان منه بما أودعه من آراء وشواهد وأقوال فى الشرح اللغوى لألفاظ غريب الحديث فنرى فيه الزمخشرى تارة يوافقه الرأى ومرة أخرى مخالفا له ويظهر لنا من مجموع مانقله جار الله عن هذا الامام وهو أن « غريب الحديث » لأبى عبيد كان أحد مصادر الزمخشرى فى تأليف الفائق[1] .

* * *

(١) راجع الفائق ج/ ٢ ص ١٣٤ ، ١٧١ ، ٤٢٠ ، ج/٣ ص ٢٦ ، ٧٤ ، ٠٨٦
وراجع كتاب المعجم العربى للدكتور حسين نصار ج ١ ص٥٢

## الباب الثالث

# الاصول اللغويه عند الزمخشرى
# وتجديده وصلته بالفكر المعاصر

# الفصل الأول

# المبادىء اللغوى عند الزمخشرى

## أولا — الفلسفة اللغوية عند الزمخشري حول الاشتقاق : —

١ — سبق أن تحدثنا عن الاشتقاق وأقسامه وتفوق الزمخشري فيه، ونعرض الآن إلى الاشتقاق أصلا لغويا عند الزمخشري .

ان الاشتقاق بأقسامه : الصغير : والكبير : والأكبر : والكبار : وسيلة من وسائل ثروة اللغة وزيادة مادتها بما يتضمنه من توليد الألفاظ بعضها من بعض ، للدلالة على المعاني الجديدة التي كانت تحتاج إلى التعبير عنها بألفاظ تشتق من اللغة وتتولد عنها بالاشتقاق ولم ينقطع سيل الألفاظ الجديدة في اللغة العربية ، ففي صدر الاسلام والعصور التي تلته ظهر عدد كبير من الألفاظ للدلالة على المعاني الجديدة ، يقول صاحب الفهرست : « ان العرب لم يزالوا على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ويضعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء والموجودات وظهورها [١] وكان الاشتقاق طريقا للتجديد والتنويع اللغوي من مثل استعمال كتاب الله للفظ « الواقعة والغاشية ، والطامة ، والقارعة » بمعنى القيامة ، وبذلك كان الاشتقاق في اللغة العربية مظهرا من مظاهر حيويتها وقدرتها على التطور والتجديد وفائدة الاشتقاق في الدلالة على أصول الألفاظ واضحة فيه تكون ألفاظ اللغة العربية مجموعات ينظم كل واحدة منها سلك جامع مؤلف من مادة ومعنى ، وبذلك يصبح كاشفا عن أصل الألفاظ وسبيلا إلى معرفة الأصيل من الدخيل . إلى أنه الجسر الموصل بين اللغة والحياة الفكرية والاجتماعية والسبيل إلى البحث في الصلة بين التعبير والتفكير والعمل ، والاشتقاق من أعظم مزايا اللغة العربية وهو مظهر حيويتها المتصلة بين

---

(١) الفهرست — لابن النديم — ص ٧ المطبعة الرحمانية .

ماض عريق فى القدم ، ومستقبل وثيق الصلة بمراحل هذه الحيوية فى نظام منطقى حكيم امتاز بالاطراد والاستقرار . وكما ان العرب الذين نطقت ألسنتهم بهذه اللغة النبيلة قد بنوا مجتمعهم على نظام الأنساب والتوسع فى روابط الأسرة حتى كان منها البطون والأفخاذ والعشائر المتعاونة والشعوب المتناصرة كذلك لغتهم قد احتفظت بالقرابة الوثيقة — فى اللفظ والمعنى جميعا — بين جذور الكلمات وما تفرع عنها فى تسلسل متطور احتفظ بجمال نظامه عند صوغ بعض الكلمات من بعض فى صيغ وأبنية كان من مجموعها أسرة لغوية حملت مؤلفى المعاجم على استعراضها كلها معا فى مادة واحدة، غير مفرقين بين الأصل وما تسلسل منه ، لأنهم اعتبروها كالشجرة التى إذا فصل فرع منها عن أصله فقد حيويته ، أو كالعضو إذا فصل عن الجسد الذى هو منه .

وقد عنى أسلافنا بدراسة العربية من ناحية الاشتقاق فألفوا فيها الكتب النفيسة والبحوث الحكيمة ، وأبانوا عن تقارب المعانى بتقارب الحروف ألفاظها وعن اشتراك الألفاظ الكثيرة فى معنى عام لاشتراكها فى حرفين أو أكثر ومن أقدم من درس العربية من هذه النواحى أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى وأبو الحسين أحمد بن فارس [1] .

وقد اهتم ابن جنى كثيرا بالاشتقاق فى كتابه الخصائص الذى يعد أصلا من الأصول اللغوية عند الزمخشرى ، وسبق أن استعرضنا الاشتقاق بأقسامه عند الزمخشرى الذى تابع أستاذه ابن جنى فى كثير من مسائله .

والزمخشرى يعد من أصحاب الفلسفة اللغوية فى هذا الباب —

---

(١) راجع كتاب الاشتقاق لعبد الله امين .

الاشتقاق — وان كان فى أغلب آرائه فى هذا الجانب متبعا لابن جنى الفيلسوف اللغوى المشهور .

## ٢ — الاشتقاق الكبير وأهميته عند الزمخشرى :

يؤيد الزمخشرى فائدة الاشتقاق الكبير وأهميته فى اللغة ، وهو ما يكون بين الكلمتين تناسب فى المعنى واتفاق فى الحروف الأصلية ، دون ترتيبها ، مثل « حمد ومدح » ومثل « جذب وجبذ » ومثل « كلم ولكم » ومثل « لهبرة ، ورهبلة »(١) ، يقول الزمخشرى فى ذلك : الحمد ، والمدح اخوان(٢) وهو الثناء والنداء على الجميل(٣) ويقول أيضا فى كتابه الفائق(٤) الحمد هو المدح والوصف بالجميل .

وقد سبقه إلى ذلك ابن جنى فى الخصائص إذ خص هذا النوع من الاشتقاق بباب خاص سماه الاشتقاق الكبير(٥) .

ويرجع بعض الباحثين الاشتقاق الأكبر ومعرفتنا به إلى الخليل الذى حلل الكلمة إلى حروفها الأصلية الثلاثة ولجأ إلى تقليب مواقع هذه الحروف لحصر اللغة وتدوين معجمه « العين »(٦) .

---

(١) يقول الزمخشرى فى الفائق ج / ١ ص ٦٨٤ : الهبرة يحتمل أن تكون قلب الرهبلة من قولهم : جاء يترهبل أى جاء يمشى ثقيلا .

(٢) يقصد الزمخشرى من استعمال الاصطلاح ( الاخوة ) الشائعة فى كتبه إلى اللفظين الذين يتلاقيان فى الاشتقاق الكبير والأكبر .

(٣) تفسير الكشاف ج / ١ ص ٢٧ .

(٤) الفائق مادة ( ح ، م ، د )

(٥) الخصائص لابن جنى ج / ١ ص ٥٢٥ ، ١٢ ، ١٠ .

(٦) الخصائص ج / ١ ص ٥٥٥ ج / ٢ ص ١٥٧ ، ١٦٣ ، والمزهر ج / ١ — ٣٤٥ ط ١٩٥٨ .

**٣ — النظرية الثنائية للألفاظ : أودوران للمعنى على الفاء والعين وتخصيصه باللام :**

لاحظ الزمخشري كأستاذه ابن جنى الصلة بين الألفاظ المشتركة فى حرفين ، مما يجمع الكثير منها الاشتقاق الأكبر ، مثل « أزّ ، وهز » و « فلج وفلح » و « نفق ونفذ »و« قط وقطع » و « فطم وفطن وقطف» وهى كثيرة فى اللغة العربية .

ومن ثم ذهب الزمخشري ومن قبله ابن جنى [1] إلى النظرية الثنائية للغة فقد رأى بعض علماء فقه اللغة قديما وحديثا إلى أن الألفاظ منشئها التاريخى القديم إلى أصول ثنائية زيد عليها حرف ثالث فى مراحل تطورها التاريخى ، وهذا الحرف الثالث ينوع المعنى العام الذى تدل منشئها التاريخى القديم إلى أصول ثنائية زيد عليها حرف ثالث ينوع المعنى العام الذى تدل عليه تلك الأصول الثنائية وأكثر الذين يذهبون إلى الأصل الثنائى للألفاظ العربية يقولون أن هذه الأصول الثنائية نشأت عن حكاية الأصوات الطبيعية المقارنة للفعل أو الحدث الذى تدل عليه تلك الأصول ، والحرف الثالث المزيد هو الواقع فى آخر الكلمة [2] . وقد يكون فى وسط الكلمة أو أولها قليلا .

وشواهد النظرية الثنائية للألفاظ عند الزمخشري كثيرة وقد سبق أن ذكرنا بعضها :

( ا ) يقول الختم والكتم : اخوان : لأنهما متشاركان ومتناسبان فى المعنى ولأن فى الاستيثاق من الشىء بضرب الخاتم عليه كتما له وتغطية لئلا

---

(١) فقه اللغة محمد المبارك — ص ٩٠ .

(٢) الفلسفة اللغوية — جورجي زيدان — ص ٥٧ .

يتوسل اليه ولا يطلع عليه [١] .

(ب) وكذلك يقارن الزمخشرى فى كتابه الفائق ( لحن ) إلى ( لحد ) بمعنى « ضل » ومسألة تعلق المادتين مع « لحظ » بمعنى أصلى واحد [٢] .

( ج ) يقول أنفق الشيء ، وأنفذه ، اخوان وعن يعقوب نفق الشيء ونفذ واحد وكل ما جاء مما فاءه نون وعينه فاء فدال على معنى الخروج ، والذهاب [٣] ويقول فى الأساس فى مادة ( ن ف ق ) نفقت الدراهم وأنفقتها كقولك نفدت وأنفدتها .

( د ) يقول : المفلح : الفائز بالبغية . . . والمفلج بالجيم ومنه قولهم المطلقة استفلحى بأمرك بالحاء والجيم والتركيب دال على معنى الشق والفتح وكذلك أخواته فى الفاء والعين بمعنى فلق وفلذ وفلى [٤] ، وقال فى الفائق فى مادة فلذ واستفلح : فلذ كبده أى قطعها وإذا قال الرجل للمرأة استفلحى: أى استبدى واقتطعيه .

( هـ ) ويقول أيضا فى كتابه الفائق فى مادة ( شت ) عن على ( رضى الله عنه ) والقد قط سيفى درعه : القط = القطع عرضا ويقول فى مادة : قطط قوله تعالى ( عجل لنا قطنا ) وهو من القط بمعنى القطع لأنه قطعة من القرطاس أو قطعة من الرزق .

**٤ — القيمة التعبيرية للحرف الواحد فى اللغة العربية :**

يستتبع ما ذكرناه عن النظرية الثنائية للألفاظ فى اللغة العربية أن ابن جنى والزمخشرى يؤيدان القيمة التعبيرية للحرف الواحد فى اللغة

---

(١) تفسير الكشاف ج / ١ ص ١١٩

(٢) الفائق ج / ٢ ص ٤٥٥

(٣) الكشاف ج / ١ ص ١٠١

(٤) الكشاف ج / ١ ص ١١٤

العربية [١] ومن ذلك مثلا :

( ا ) حرف الغين : يدل فى بعض المواد ومشتقاتها وتوابعها على الاستتار والغيبة والخفاء مثل « غاب ، غمد ، غرب ، غفر ، غطى » .

(ب) حرف النون : يدل على الظهور والبروز مثل : نفث ، نفخ ، نزع ، نزف ، نشأ ، نهض .

( ج ) حرف القاف : يدل على معنى الانفصال والاصطدام وذلك مثل : قد ، قطع ، قط ، قرع ، دق ، شق .

( د ) حرف السين : ويدل على الليونة والسهولة : « مثل سهل ، سلس ، سال» وان كنا نلاحظ ان مثل ذلك ليس قانونا عاما شاملا [٢] .

ومن شواهد القيمة التعبيرية للحرف الواحد عند الزمخشرى ما يأتى :

( ا ) يقول الزمخشرى فى مادة ( قد وقط وقطع ) عند شرحه لكلام أبى بكر رضى الله عنه « بيننا وبينكم كقد الابلمة » بأن القد : هو القطع طولا وهو كالشق وفى أمثالهم المال بينى وبينك شق الأبلمة . ومنه حديث على رضى الله عنه : كان له ضربتان . كان إذا تطاول قدّ وإذا تقاصر قطّ [٣] .

(ب) وفى تفسير قوله تعالى « طرائق قددا » القدد من القد كالقطعة من القطع ووصفت بذلك لدلالتها على التفرق والقطع [٤] .

( ج ) وقال فى مادة ( اثم ) فى كتابه الفائق قوله تأثما ومثله : تحوّب ،

---

(١) الكشاف ج / ١ ص ١٠١ .

(٢) راجع مقدمة لدرس لغة العرب — للعلايلى ص ٢١ وكتاب نشوء اللغة العربية للاب الكرملى .

(٣) الفائق ج / ٢ ص ٣٢٩ .

(٤) تفسير الكشاف ج / ٣ ص ٢٧٦ .

وتحرج ، وقال فى الأساس فى مادة (ح و ب) يتحوب من القبيح : يتحرج منه .

وأخيرا فان ذلك كله يدل على فلسفة لغوية واضحة للزمخشرى تدور حول الاشتقاق وبذلك نجد الزمخشرى يجارى الفلسفة اللغوية على أوسع نطاقها ويؤيد ما سبق اليه ابن جنى من نظريات كبيرة فى فقه اللغة وأصولها وخاصة نظريته فى ثنائية الألفاظ ونظريته الأخرى فى القيمة التعبيرية للحرف الواحد فى اللغة العربية .

**ثانيا — منحى الزمخشرى فى الابدال اللغوى أو الاشتقاق الكبير :**

١ — كثير من الألفاظ اللغوية تتحد فى بعض حروفها وتختلف فى البعض الآخر والحروف المختلفة التى يجمعها تناسب فى المخرج مما يسميه علماء اللغة اشتقاقا أكبر — لابد أن يكون ذلك راجعا إلى الابدال اللغوى بين هذه الحروف المتغايرة المتقاربة المخرج يقول أبو الطيب اللغوى : الابدال تبديل حرف من حرف وهى لغات مختلفة لمعان متفقة تتقارب اللفظتان فى لغتين لمعنى واحد حتى لا يختلف إلا فى حرف واحد [1] ويقول ابن فارس أن من سنن العرب ابدال الحروف واقامة بعضها مقام بعض مثل : مدحه ومدهه ورفل ورفن ، وأما قوله تعالى « فانفلق فكان كل فرق كالطود » فاللام والراء متعاقبتان كما تقول العرب : فلق الصبح وفرقه ، وذكر عن الخليل أنه ذكر « فجاسوا خلال الديار » أراد فحاسوا فقامت الجيم مقام الحاء [2] ومن أمثلة الابدال ما قاله ابن السكيت عن الابدال بين السين والصاد نحو السراط والصراط ويقول البطليوسى فى كتابه — الفرق —

---

(١) تفسير المزهر ج / ١ ص ٤٦٠ ط الرابعة

(٢) المزهر ج / ١ ص ٤٦٠

كل سين وقعت بعدها عين أو غين أو خاء أو قاف أو طاء جاز قلبها صادا [١] .

٢ — ويذهب الزمخشرى إلى الابدال اللغوى ويستدل له بشواهد كثيرة فى اللغة ومن مثل ذلك ما قاله الزمخشرى :

( ا ) يقول الزمخشرى : السراط : الجادة من سرط الشيء إذا ابتلعه لأنه يسترط السابلة إذا سلكوه ، والصراط من قلب السين صادا لأجل الطاء كقوله : مصيطر ومسيطر وقد تشم الصاد صوت الزاى [٢] .

(ب) ويقول فى مادة قرب : القاب والقيب كالقاد والقيد بمعنى القدر وعينه واو اثلاثة وجوه [٣] .

( ج ) ويقول أيضا الختم والكتم اخوان — أى متشاركان فى العين واللام ومتناسبان فى المعنى [٤] .

( د ) ومن الابدال فى المضاعف ما قاله أبو عبيدة : من أن العرب تقلب حروف المضاعف إلى الياء ومنه قوله تعالى « لم يتسنه » من مسنون ، وقال أبو عمرو : لم يتسن : لم يتغير : من قوله تعالى : « من حمأ مسنون » أى متغير فأبدل من إحدى النونات ياء مثل : تقضى من تقضض [٥] ، ويقول الزمخشرى فى الكشاف « لم يتسنه » ، لم يتغير والهاء أصلية أو هاء سكت ، واشتقاقه من « السنة » على الوجهين لأن لامها هاء ، أو واو

---

(١) المزهر ج / ١ ص ٤٦٩

(٢) تفسير الكشاف ج / ١ ص ٥٣

(٣) الفائق ج / ٢ ص ٣٨٢

(٤) تفسير الكشاف ج / ١ ص ١١٩

(٥) المزهر ج / ١ ص ٤٦٨

وذلك أن الشيء يتغير بمرور الزمان وقيل أصله « يتسنن » من الحمأ المسنون « فقلبت نونه حرف علة كتقضى البازى »[1] .

٣ — ومن ذلك كله نرى أن الزمخشرى يذهب إلى جواز الابدال اللغوى دوقوعه فى اللغة العربية ، كما ذهب اليه الكثير ممن سبقوه من علماء اللغة العربية وأئمتها ومن نظرية الابدال اللغوى يمكن معرفة الأصول اللغوية للألفاظ وتقسيمها إلى فصائل وأنواع وتفسير ما بين بعض الألفاظ والبعض الآخر من نسب لغوى يرجع فى جملة أمره إلى الاشتقاق ، الذى تحدثنا عنه .

**ثانيا — احتجاجه للسان اللغوى فى عصره بالتراكيب :**

١ — كان العلماء فى عصر التدوين اللغوى يجمعون على الأخذ ممن يوثق بفصاحته وسلامة عربيته . فاحتجوا بأقوال الجاهليين وفصحاء الاسلام حتى منتصف القرن الثانى الهجرى وقد صنفوا الشعراء عدة أصناف الجاهليين ، والاسلاميين ، والمولدين ، والمخضرمين . وأجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين فى اللغة العربية ، وكان سيبويه لا يستشهد فى الكتاب بأقوال الشعراء المحدثين[2] فهو لا يسوق فى شواهده شاعرا محدثا قط ، وتبعه على ذلك المحافظون ممن يسيرون وفق مناهج العرب وأساليب أدائهم وان أكثروا فى مقام الاستشهاد من الرجوع إلى القرآن الكريم والحديث

---

(١) تفسير الكشاف ج / ١ ص ٢٩٥ وانظر باب الابدال فى ج / ١٠ — ص ٧ من كتاب شرح المفصل لابن يعيش وتمام البيت :

إذا الكرام ابتدروا الباع بدر ... تقضى البازى إذا البازى كسر

وأصله من انقضضت .

(٢) كتاب العربية ليوهان فك : ص ٥١ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار

النبوى وكلام العرب . ولكن المحدثين يستشهد بشعرهم فى المعانى كما كان يستشهد بشعر القدماء على القواعد ، يقول السيوطى فى الاقتراح : « اجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين فى اللغة العربية وقد مال الزمخشرى إلى استثناء أئمة اللغة العربية من ذلك داعيا إلى جعل الوثوق بكلامهم كالوثوق برواياتهم »[١] ومن ثم رأيناه فى مؤلفاته وخاصة فى الكشاف والأساس يستشهد بأساليب المولدين وتعابيرهم ومعانيهم ، ذاهبا إلى أن المعانى يصل اليها المولدون والمتقدمون ، وهو فى ذلك يتابع ابن جنى فى الخصائص[٢] ، ومن العلماء من يسقط الاحتجاج بكلام الاسلاميين والمولدين جميعا فى اللفظ والمعنى ذاهبين إلى الاحتجاج بكلام الأقدمين فقط فى اللفظ والمعنى ، ويذهب « البغدادى » صاحب « الخزانة » إلى أنه لا يستشهد على اللغة والنحو والصرف إلا بكلام القدماء ، وأما المعانى والبيان والبديع فيستشهد عليها بكلام المولدين لأنها راجعة إلى المعانى[٣]. وموقف الزمخشرى من جواز الاستشهاد على القواعد والمعانى بكلام طبقة خاصة من طبقات المحدثين والمولدين هى طبقة أئمة اللغة العربية ونحوها واضح لا يحتمل اللبس. إذ أخذت اللغة العربية فى بداية عصر المحدثين نهضة جديدة اقترنت بأسماء: الكسائى وأبى زيد ، وأبى عبيدة والفراء ، والأصمعى وابن الأعرابى ، وابن السكيت والمبرد ، وثعلب[٤] الذى عد خاتمة الرواة . ومثل هؤلاء الأعلام من رواة اللغة وسدنتها كانوا يعدون اللغة العربية النقية الخالصة

---

(١) الاقتراح للسيوطى ص ٣١ الطبعة الأولى والكشاف ج / ١ ص ١٧٠

(٢) خصائص ابن جنى ج / ١ ص ٢٢ ط الفجالة ١٩١٣

(٣) خزانة الأدب للبغدادى ج / ١ ص ٢٠

(٤) العربية : ليوهان فك : ص ٨٥ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار

هى القدوة المثلى والنموذج الرفيع ، لذلك كان من المنطقى فى تفكير الزمخشرى أن تقترن أسس اللغة والقواعد العربية بتفكير هؤلاء الأئمة الكبار من حماة اللغة وأئمتها والروايات فى ذلك كثيرة عن الزمخشرى فحينما يستدل فى تفسيره الكشاف بشعر « لحبيب بن أوس » يقول : حبيب بن أوس — وان كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء اللغة العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ألا ترى إلى قول العلماء ، الدليل عليه بيت الحماسة ، فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته واتقانه [١] . ويستدل الزمخشرى حينا آخر بنثره ونظمه [٢] فى تفسير المعانى اللغوية للألفاظ .

٢ — ولما كان الزمخشرى يستشهد بالمولدين فى اللغة فضلا عن المحدثين كان فى كتبه ومؤلفاته استشهاد كثير بكلام مولد وبشعراء مولدين وكثر استدلاله على اللهجات العربية بمنطق المولدين يقول :

١ — سمعت أهل السروات بمكة يقولون فى دعائهم : « يا سيدى ومولى » [٣] .

٢ — ويقول : سمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق

---

(١) راجع تفسير الكشاف : ج / ١ ص ١٧٠ ط الحلبى ١٩٤٨

(٢) يقول فى كتابه الفائق ج / ٢ ص ٢٨٩ مادة « ف ق ر » : الافقـار : الاعارة للركوب من الفقار ، وفى بعض نفاثاتى :

ألا أفقر الله عبدا أبت ∴ عليه الدناءة أن يفقرا

ومن لا يعير قرى مركب ∴ فقل : كيف يعقره للقرى؟

ويستدل أيضا فى كتابه الفائق بعبارات من كتب عبد الحميد الكاتب — راجع الفائق ح / ٣ ص ٢٢١ — وأنظر أيضا من هذه الناحية تفسير الكشاف ج / ١ صفحة ٣٩٧

(٣) تفسير الكشاف ح / ٢ ص ١٢٨

النـاس أبوابهم ويأوون إلى مقـايلهم ، تقول : عيينتى نويظرة إلى الله واليكم (١) .

٣ — قال فى الأساس » عند مادة « ل ، م ، س » : سمعتهم يقولون « المس لى فلانا » (٢) .

٤ — واستشهد فى الفائق فى مادة « ق ، ط ، ر » بأن ابن سيرين رحمه الله كان يكره القطر (٣) .

٥ — استدل بشعر للمبرد فى مادة ( ح ، و ، ر ) وهو قوله:

إذا ما الحواريات علقن طنبت

بميثاء لا يألوك رافضها صخرا (٤)

٦ — يقول عند تفسيره قوله تعالى ( لا ريب فيه ) : ونظيره قوله تعالى لا ضير ، وقول العرب لا بأس به ، وهذه كثيرة فى لسان أهل الحجاز(٥).

**ثالثا — القاعدة بين القياس والاستعمال الشائع :**

بقيت مسألة لا بد أن يعرض لها الزمخشرى وهى موقف العلماء اللغويين من القياس اللغوى والاستعمال الشائع .

يقول الزمخشرى فى تفسيره قوله تعالى ( وما أنتم بمصرخى ): فان قلت جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الادغام فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن ، فحركت بالكسر على الأصل . قلت:

---

(١) تفسير الكشاف ج / ٣ ص ٢٩٤
(٢) أساس البلاغة مادة ( ل ، م ، س )
(٣) الفائق فى غريب الحديث ٣١١ ج / ٢
(٤) الفائق ج / ١ ص ٣٠٧
(٥) تفسير الكشاف ج / ١ ص ٨٨

هذا قياس حسن ولكن الاستعمال المستفيض الذى هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل اليه القياسات [١] .

وكتاب سيبويه يرينا كيف أن القواعد العربية اعتمدت على الاستعمال اللغوى عند عرب البادية دون استثناء فهو يرجع دائما إلى الاستعمال اللغوى إلى العرب ولا يحيد فى ذلك عن ترجيح كفة اللسان الحجازى لأنه الأول والأقدم وغالبا يكتفى فى ذلك بعبارات عامة مثل : العرب الذين ترضى عربيتهم أو ( العرب الموثوق بعربيتهم ) أو ( عربى أثق بعربيته ) [٢] .

وكان الأصمعى لا يكتفى بالاستعمال اللغوى وحده ، بل يحكم فيه القياس ويجتهد فى تنظيم الاستعمال اللغوى الدقيق بواسطة تحديدات معنوية غاية فى الدقة ، ولا ريب أنه كان فى ذلك كثيرا ما يخالف المعانى والاستعمالات التى ترد فى كلام البدويين . وادعى ابن الأعرابى : أنه وجد ألف حالة سمع فيها من ثقافة البدويين ، تلك الصيغ التى ذكر الأصمعى انها خطأ ، وخالف غير ابن الأعرابى من علماء اللغة أيضا الأصمعى فى أقواله وقد أنحى البطليوسى باللائمة على ابن قتيبة لأنه احتضن مذهب الأصمعى المتطرف [٣] ( فى تنقية اللغة ) دون أن يعنى بمذاهب آخرين من ثقات العربية وعلمائها .

لقد كان هناك فريقان من علماء اللغة ، فريق حاول الاحتجاج على السماع والتزامه والوقوف عنده ، وفريق التزم القياس واحتج به ، وقد كان للفريق الثانى وهم أهل القياس الأثر الواضح فى حيوية اللغة وتجددها

---

(١) تفسير الكشاف ج / ٢ ص ٢٧٧

(٢) العربية — ليوهان فك ترجمة د. نجار ص ٥١

(٣) العربية — ليوهان فك ترجمة د. نجار ص ٩٠ ، ٩١

وتوسعها من نواح عدة (١) وهذه النزعة كانت قديمة (٢) من قبل أيام الخليل ابن أحمد وتلميذه سيبويه ، إذ عاصرت مدرستهم مدرسة أخرى هي مدرسة الرأى التى رفع شأنها أبو حنيفة النعمان وتلاميذه (٣) فبلغ القياس ذروة ، مجده واستمر معمولا به فى اللغة إلى عصر أبى على الفارسى فى المائة الرابعة ، من الهجرة (٤) وتلميذه ابن جنى ، وقد نهض به هذان الامامان نهضة لم تمكن للقياس من قبل . ونتعرف إلى منهج ابن جنى فى القياس من كتابه الخصائص الذى يدور حول الغوص على أسرار اللغة وأصولها ويستعمل القياس بقدر ما استطاع وتفوق على أستاذه أبى على الفارسى تفوقا ملحوظا ولم يكتف بذلك بل ذهب إلى تعميم القياس وتوسيع طرق الاشتقاق وهو الذى ابتكر الاشتقاق الكبير وكان يقول مسألة واحدة من القياس أنبل وأنبه من كتاب لغة عند الناس (٥) .

وقد كان الثقافة الدينية أثر كبير فى تنشيط القياس فانهم احتذوا حذو أصول الفقه عند الحنفية خاصة فهذا ابن جنى يصرح بقوله ينتزع أصحابنا العلل من كتب محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة فيجمع

---

(١) راجع ضحى الاسلام ج ٢ : ص ١٧٩ ، ٢٨١

(٢) قال محمد بن سلام الجمحى فى كتابه الشعراء ص ١٤ ان الحضرمى أول من بعج النحو ومد القياس والعلل وكان أشد تجريدا للقياس من عمرو ابن العلاء وأنظر أيضا ص ١٥ ، ١٦ من نفس المصدر

(٣) راجع ضحى الاسلام الطبقة الخامسة ج ٢ : ص ٢٧٩ وما بعدها

(٤) أصول النحو — لسعيد الأفغانى — ص ٧٦ وما بعدها ط دمشق

(٥) الخصائص لابن جنى ج / ١ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ وأصول النحو ص ٨٢ وما بعدها

بعضها إلى بعض بالملاطفة والرفق (١) واستمر الحال حتى المائة العاشرة فيقول السيوطى فى الاقتراح : « القياس بالنسبة إلى النحو كأصول بالنسبة إلى الفقه ورتبته على نحو أصول الفقه فى الأبواب والفصول والتراجم (٢) .

ولقد كان للمعتزلة أثر كبير فى اللغة حيث ان القياس أداته العقل ، والعقل يلعب دورا أساسيا فى فلسفتها وان أئمته فى النحو واللغة هم سيبويه والفراء وأبو على الفارسى والرومانى وابن جني والزمخشرى واضرابهم وكلهم معتزلة وكما يظهر من قولهم أن اللغة اصطلاحية من وضع البشر لا توفيقية (٣) ، وكما يظهر أيضا من تحرر الجاحظ وأمثاله من المعتزلة فى تشقيقهم الكلام واستعمالهم للمولد منه ومن الألفاظ بل الأعجمى . وقد عربت الألفاظ الأعجمية فى شتى العصور اللغوية ومن هذه الألفاظ المعربة، ما جاءت فى شعر لأبى بصير الأعشى وهى جلستان ، وبنفسج ، وسيسنبر ، وشاهسفرم ، ونرجس وهى معربة عنه ، كلستان ، وبنفشه ، وسوسن بر ، وشاه ابرم ، ونركس (٤) ، وكلمة الهربذى فى شعر امرؤ القيس حيث يقول :

إذا راعه من جانبيه كليهما مشى الهربذى فى دفة ثم فرفرا (٥)

وهى معربة : هيربذ ، بمعنى الأستاذ ، أو حامى النار الفارسية ، ومن ذلك كثير كاستبرق ، وابريق ، وكنز ، وسجيل ، ، وهى معربة عن —

---

(١) الخصائص ١ : ص ١١١ وراجع ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٧٨ وما يليها
(٢) مقدمة الاقتراح — السيوطى — ص ٥
(٣) الخصائص ج ١ : ص ٣٦ ط الهلال بمصر
(٤) الصبح المنير فى شعر أبى بصير ص ٢٠١ ، ١٤٥
(٥) ديوان امرىء القيس ص ٩٠

استبرك ، وآب ريز وكنفج ، وسنك وكل واشتقوا من زنديق — تزندق ومن ديوان دون تدوينا وغير ذلك (١) .

والزمخشرى وهو معتزلى مثل أئمة القياس من المعتزلة ينهج نهجهم فى التفكير اللغوى فيعمد إلى القياس فيجعله أحد الأصول العربية فى قواعدها ويضعه موضوع الأساس لأحكامها .

وذكر الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى ( الرحمن ) فان قلت : كيف تقول الله رحمن أتصرفه أم لا ( قلت ) أقيسه على اخوانه من بابه أعنى نحو عطشان وعزثان وسكران فلا أصرفه فان قلت : قد شرط فى امتناع صرف فعلان أن يكون فعلان فعلى واختصاصه بالله يحظر أن يكون فعلان فعلى فلم تمنعه الصرف قلت : كما حظر ذلك أن يكون له مؤنث على فعلى كعطشى فقد حظر أن تكون له مؤنث على فعلانة كندمانة ، فاذا لا عبرة بامتناع التأنيث للاختصاص العارض فوجب الرجوع إلى الأصول قبل الاختصاص وهو القياس على نظائره (٢) .

ومن ذلك أيضا ما ذكره فى كلمة ( الرحمن ) بقوله أن فى الرحمن من المبالغة من حيث شموله الدارين - ما ليس فى الرحيم . وقال : ان - الزيادة فى البناء لزيادة المعنى . كما ان العرب تسمى المركب الخفيف والمركب الثقيل بالشقدف والشقنداف . فزادوا فى بناء الاسم لزيادة المسمى (٣) . وهذا هو الاستدلال بالقياس .

ولكنه مع ذلك لا يغفل الاستعمال اللغوى وخاصة ما شاع منه . إذ

---

(١) المعرب للجواليقى والاشتقاق والتعريب للمغربى ص ٤٧ - البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٩

(٢) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٣٥

(٣) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٣٤

لم يهمله أئمة اللغة وشيوخها . ووضعوه فى منزلة خاصة وقدموه على القياس إذ أن القياس لا يجىء إلا بعد أن يعتقد عدم وجود الاستعمال اللغوى . وإذا خالف الاستعمال اللغوى القيـاس يرجح الاستعمال . والزمخشرى يقف معهم نفس هذا الموقف فيحتج بالاستعمال ويقدمه على القيـاس إذا كان شائعا فالاستعمال الشائع عنده مرجح على الاستعمال اللغوى كما سبق أن أشرنا إلى ذلك عما قريب .

# الفصل الثاني

# بين ابن جني والزمخشري

## بين الزمخشري وابن جني

١ — تتلمذ الزمخشرى ثقافيا على أبى الفتح عثمان بن جنى ( ٣٠٠- ٣٩٢هـ ) وقد قرأ تآليف أستاذه الروحى وخاصة الخصائص وأفاد منها ورجع إليها وتأثر بآرائها .

٢ — وابن جنى[1] ينتمى إلى أصل رومى يونانى — وكان أبوه مملوكا لسليمان بن فهد الأزدى ( م ٤١١ هـ ) ويقول ابن جنى فيما بعد يذكر نسبه من قصيدة طويلة :

فإن أصبح بلا نسب فعلمى فى الورى نسبى
على أنى أءول إلى قوم سادة نجب
قياصرة إذا نطقوا أرم الدهر ذو الخطب
أولاك دعا النبى لهم كفى شرفا دعاء نبى

فنجده فى هذه الأبيات يذكر نسبه فى الروم ويعتز بنسبه فى العلم الذى يعوضه عن كل نسب وقد ولد ابن جنى فى الموصل ونشأ وتعلم بها واختلف إلى مجالس العلم والدين واللغة والأدب ، فى مساجدها ومدارسها

---

(١) راجع مقدمة الخصائص تأليف ابن جنى وهى بقلم العلامة محمد على النجار وتاريخ الادب العربى لبروكلمان ـ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ـ ج ٢ ص ٢٤٤ ـ وأنباه الرواة للقفطى ـ ج ١ : ص ٣٣٢ إلى ٣٤٠ ـ ويتيمة الدهر للثعالبى ج ١ ة ص ٧٧ وما بعدها ط الشام . ونزهة الالباء للانبارى ص ٤٠٦ ـ ٤٦٩ ـ وتاريخ بغداد للخطيب ج ١١ : ص ٣١١ ـ ووفيات الاعيان ج ١ : ص ٣٨٥ ـ ومعجم الادباء لياقوت ج ٥ ص ١٥ ـ ٣٢ ، بغية الوعاة للسيوطى ٣٢٢ .

وصحب أبا على الفارسى أستاذه طيلة أربعين عاما وكان ذلك بعد عام ٣٣٧هـ، على مايروى الرواة . وبدأ ابن جنى حياته العملية معلما ببلدة الموصل فلما قدمها أبو على الفارسى تتلمذ عليه ولازمه وتخرج على يديه وعهد إليه بالتدريس ببغداد فقبل . وقد أخذ كثيرا عن رواة اللغة والأدب، من مثل الأصبهانى مؤلف الأغانى وأحمد بن محمد الموصلى وابن مقسم وغيرهم من الذين كانوا يثق بهم وبأدبهم وعلمهم وسافرا ابن جنى إلى حلب فأقام فيها فى بلاط سيف الدولة عدة سنين وتعرف على المتنبى عند سيف الدولة وكان المتنبي إذا سئل عن معنى حصل فيه غرابة دل على أبى الفتح .

وقد ألف كتبه فى حياة أستاذه فأثنى عليها وعلى تلميذه ثناء كثيرا، وألف المحتسب ، والخصائص ، والمنصف واللمع ، والمبتهج ، والمعرب ، من الكتب وشرح ديوان المتنبى شرحا كبيرا وشرحا صغيرا .

وكان ابن جنى ينوه بالمتنبى ويستشهد بشعره فى المعانى والأغراض ويصفه ( بشاعرنا ) ويقول الأستاذ محمد على النجار عن ابن جنى : أنه بلغ فى علوم العربية من الجلالة والخطر مالم يبلغه إلا القليل ، وصار مضرب المثل فى معرفة النحو ، والتبريز فيه ، ويقول عنه الثعالبى فى اليتيمية : « هو القطب فى لسان العرب وإليه انتهت الرياسة فى الأدب » وقد بلغ فى اللغة والاحاطة بها منزلة كبيرة ويقول الأستاذ محمد على النجار : أنه فى علل العربية وتخريجها وبيان الحكمة فى تصاريفها وإستخراج مناسبات الاشتقاق لايشق له غبار[1] وله شعر رائع[2] ذكر صاحب أنباه الرواة بعضا منه

---

(١) الخصائص ١/٣٣ .

(٢) أنباة الرواة ج١/ص ٣٣٨ .

ومنه مرثية طويلة فى المتنبي[1]. وكان ابن جنى من مدرسة البصريين فى النحو مثل أستاذه — أبى على الفارسى وهو فى كتبه ومباحثه يسير على أصول هذا المذهب ولما أقام ابن جنى فى بغداد فى أواخر عمره لم يعد من أصحاب المذهب البغدادي ـ لأنه كان حينئذ فى أخريات حياته ، وكان فى النحو والصرف حجة وأماما فيهما ، وكان الصرف أعظم شىء تفوق فيه والملكة الصرفية أظهر ملكاته ، وأن كان اللغويون القدماء يلقبونه بالنحوى « لأن النحو كان يشتمل آنذاك الصرف أيضا . وابن جنى هو الذى أسس مبدأ الاشتقاق الأكبر ، الذى يبحث عما بين الصوت والمعنى من التناسب[2] وشرح مسائله ، وكان كاستاذه أبى على الفارسى يؤمن بتوسيع اللغة عن طريق القياس والتوسع فى الاشتقاق قياسا ومع ذلك ومع ما نعرفه من أستاذية أبى على له ، قد كان يخالفه فى بعض الأحايين كما ذكر ابن جنى فى مقدمة سر الصناعة فى الكلام على « مرتبة الحركة من الحرف » حيث يقول » وقد ذكرنا فى كتاب الخصائص فيما بعد فساد هذا القول من أبى على رضى الله عنه » .

٣ — وقد كانت أستاذية ابن جنى الفكرية للزمخشرى مماثلة فى القيمة العلمية لأستاذية أبى على الفارسى لابن جنى وأن كان ابن جنى قد شاهد الفارسى ولم يعش الزمخشرى فى عصر ابن جنى ولا رآه ومع ذلك فقد كان الزمخشرى يجل أستاذه ابن جنى ـ ويعظمه ويرفع من منزلته بين العلماء ، وقد ذكر الزمخشرى ابن جنى فى الكشاف فى عدة مواضع :

---

(١) يقول الثعالبى ج ١/٧٧ التيمية ) كان الشعر أقل خلالة ويقول فيه صاحب المنتظم ( ج ٧ / ص ٢٢٠ ) يقول الشعر ويجيد نظمه .

(٢) تاريخ الادب العربى ـ لبروكلمان ـ ج ٢ : ٢٤٤ .

( أ ) فى تفسير قوله تعالى « بدم كذب » يقول الزمخشرى : قال ابن جنى : « أصله من الكذب : وهو الفوف البياض . الذى يخرج على أظفار الأحداث كأنه دم قد أثر فى قميصه[١] ».

( ب ) وفى تفسير قوله تعالى « كلاسيكفرون » يقول الزمخشرى ، وفى ( محتسب ) ابن جنى كلا بفتح الكاف والتنوين وزعم أن معناه ، كل هذا الرأى والاعتقاد كلا[٢] .

( ج ) وفى تفسير قوله تعالى « ولم أك بغيا » يخالف الزمخشرى أستاذه ابن جنى فى وزن بغى . فيذهب الزمخشرى كالمبرد إلى أن وزنها فعول من حيث ذهب ابن جنى إلى أن وزنها فعيل ، يقول الزمخشرى : « والبغى : الفاجرة التى تبغى الرجال . وهى فعول عند المبرد : بغوى ، فأدغمت الواو فى الياء . وقال ابن جنى فى كتاب التمام : هى فعيل ولو كانت فعولا لقيل : بغو ، كما قيل : فلان نهو عن المنكر[٣] » .

والزمخشرى على أية حال قد نحى منحى أستاذه ابن جنى فى الاشتقاق والقياس اللغوى، ويذهب كأستاذه إلى الاستدلال بالاستعمالات اللغوية الشائعة وبكلام المولدين، وأن كان ابن جنى يجعل كلام المولدين حجة فى المعانى حيث يقول: فان المعانى يتناهبها المولدون كما ينتابها المتقدمون وقد كان أبو العباس المبرد احتج بشىء بشعر حبيب بن أوس الطائى فى كتابه

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٢٧٦ .

(٢) تفسير الكشاف : ج ٢ ص ٢٩١ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ :ص ١٧٦ .

الاشتقاق لما كان غرضه معناه دون لفظه[١] » من حيث يجعل الزمخشرى كلام بعض المولدين وهم أئمة اللغة حجة فى الاستعمال اللغوى ـ ذاهبا إلى أن مايقوله العالم باللغة بمنزلة مايرويه ، والاستعمال الشائع عند ابن جنى مقدم على القياس[٢] .

وقد كان الزمخشرى كأستاذه ابن جنى متأثرا بالنزعة الاعتزالية التى أفادتها سعة فى البحث وميلا إلى التجديد اللغوى وحبا للاستقلال فى الرأى وإخضاع اللغة للمقاييس العقلية الدقيقة التى أفادت اللغـــة فائدة كبرى .

وكان الزمخشرى ينحو نحو المذهب البصرى فى النحو ، وقد جمع آراء — البصريين فى كتابه « المفصل » وهو فى عمومه صورة مفصلة ومبوبة لآراء سيبويه فى «الكتاب» ومع ذلك[٣] لم يكن يتعصب لمذهبهم على المذاهب الأخرى بل كان يأخذ أحيانا من الكوفيين وحينا آخر يخرج على اتفاق البصريين والكوفيين ويكون لنفسه رأيا مستقلا كما أشرنا فى الأبواب السابقة وكان كأستاذه ابن جنى مع مذهبه البصرى ، لا يمتنع عن أن يأخذ من الآخرين ويقول الأستاذ العلامة محمد على النجار[٤] . وكان الرجل ـ

---

(١) الخصائص لابن جنى ج ١ : ص ٢٤ .

(٢) الخصائص لابن جنى ج ١ : ص١٢٥، ١٢٦ .

(٣) قد أشار الزمخشرى إلى ذلك فى شعره بقوله :

| | |
|---|---|
| فقل أين خلى سيبويه كتابة | يقل حجر جار الله مأوى حالفا |
| وماقى فى رواة الكتب راوية له | سوى واحد فانظر فلست مصارفا |

(٤) راجع ديوان الزمخشرى ورقمه ٧٨ .

ابن جنى - مفهوما بالعلم يأخذه عن أهله بصريا كان أو غيره فهو كثير النقل عن ثعلب والكسائى واضرابهما وهو برىء من العصبية التى تعمى عن الحق .

وبالجملة فان آراء الزمخشرى فى اللغة وأصولها والاشتقاق وفروعه وفى القيمة التعبيرية للحرف الواحد ، وفى القيمة الثنائية للفظ وفى كثير من آرائه التجديدية كانت تنزع بسهم كبير إلى أصول ابن جنى اللغوية ، والنحوية ، والصرفية والاشتقاقية - ويتضح ذلك جليا مما سبق أفضنا الحديث فيه .

* * *

# الفصل الثالث

## مآخذ العلماء

## على الزمخشري

**مآخذ العلماء على الزمخشري :**

( أ ) أخذ علماء اللغة على الزمخشرى بعض المآخذ ، وقد أكثر أبو حيان ( ٦٥٤ — ٧٤٥ ) من ذكر مآخذ نحوية وصرفية ولغوية ، أخذها عليه فى تفسيره « الكشاف » ، وذكر كثيرا من ذلك فى تفسيره الكبير « البحر المحيط » .

ب — فمن مآخذ العلماء على الزمخشرى ما يلى :

١ — قال الزمخشرى فى مقدمة الكشاف : « أبكم من تحدى به من مصاقع الخطباء » ، ويعلق السعيد الجرجانى على هذا بقوله ، « أخذه من بكم قياسا إذ لم يشتهر فعل بنى منه سوى مانقله فى الأساس من قوله « تبكم فلان فتبكم عليه إذا ارتج عليه[1] » وقد يجعل استعماله إياه بمنزلة روايته له ، فانه ثقة فى اللغة .

٢ — وتحامل ابن مالك النحوى (٦٠٠ —٦٧٢ هـ ) على الزمخشرى وروى عنه أنه كان يقول عن الشيخ جمال الدين ابن الحاجب أنه أخذ نحوه من صاحب «المفصل» وصاحب « المفصل » نحوى صغير[2] ويضيف صاحب « نفح الطيب » إلى هذا :أن لابن مالك كتابا عنوانه «الموصل فى نظم المفصل » وقد حل هذا المنظوم فسماه » سبك المنظوم وفك المختوم[3] » . وقد ورد اسم كتاب ابن مالك « سبك المنظوم وفك

---

(١) تفسير الكشاف ـ حاشية السيد الشريف الجرجانى .

(٢) نفح الطيب ـ المقرى المغربى ـ ج /٧ ص ٢٥٧ وبغية الوعاة ، السيوطى ص ٥٥ .

(٣) نفح الطيب ـ ج /٧ ص ٢٦٦ .

المترجم في ترجمات أصحاب المعاجم لابن مالك من مثل » بروكلمن — ودائرة المعارف الاسلامية والزركلي[1] ، ولكنهم لم يذكروا أنه شرح المفصل ، وأما حاجي خليفه فيذكر في حديثه عن المفصل أن ابن مالك شرح « المفصل » ولا يذكر اسم الكتاب .

وهذا التحامل من ابن مالك على الزمخشري قد نعلله بكراهيته للاعتزال خاصة إذا عرفنا أن العلماء المغاربة كانوا جميعا يكرهون الاعتزال ويلتزمون السنة وذلك أثر لكراهيتهم لعلوم الرأى والفلسفة وما إليهما ، ولكن الشيء الذي نكاد نعتقده أن هذه الكلمة مدسوسة على ابن مالك لأنه درس على ابن يعيش ( ٥٥٣ - ٦٤٢هـ ) بحلب وابن يعيش هو شارح المفصل ، والذي اثنى عليه وفضله ونوه بالزمخشري وقدره ، ولا بد أن تلميذه ابن مالك قد أخذ عنه روح التقدير للمفصل أو على الأقل روح الأنصاف ، فضلا أن ابن مالك قد نظم المفصل ثم نثر هذا النظم فكان له عملين على المفصل مما يوحى بمنزلة المفصل عنده ، فكيف يمكن أن يتصور أن يقول عن الزمخشري صاحب المفصل بأنه نحوي صغير . أني لا أكاد أعقل ذلك أو أتصوره ، وإنما المعقول أن تكون هذه الكلمة مدسوسة على ابن مالك من خصوم الزمخشري في الرأى والعقيدة .

٣ — وكثيرا ما يعقب المفسر الأندلسي أبو حيان في تفسيره البحر المحيط على آراء الزمخشري ، على أن اعتراضاته وتعقيباته ، لم تكن كلها صوابا وربما اختلط عليه الأمر في تمييز الاصطلاحات لدى النحويين والبيانيين ، وقد لاحظ ذلك ابن هشام فقال : « للبيانيين في الاعتراض»

---

(١) أعلام الذهب للزركلي — في وفيات عام ٦٧٢هـ .

اصطلاحات مخالفة لاصطلاح النحويين والزمخشري يستعمل بعضها كقوله في تفسير قوله تعالى « ونحن له مسلمون » يجوز أن يكون حالا من فاعل نعبد ، أو مفعوله وأن تكون معطوفة على نعبد وأن تكون اعتراضية مؤكدة ، ويرد عليه مثل ذلك من لا يعرف هذا العلم كأبى حيان توهما منه أنه لا اعتراض إلا مايقوله النحوى[1] » .

( ج ) ومن آراء أبى حيان فى نقد الزمخشرى مايلى :

١ — قال الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا » يجوز أن تكون « أن » بمعنى أى تفسير الاساءة . التكذيب والاستهزاء ووجه آخر وهو أن يكون أساءوا السوأى بمعنى اقترفوا الخطيئة التى هى أسوأ الخطايات . وأن كذبوا عطف بيان لهؤلاء وخبر كان محذوف لارادة الابهام « انتهى ، يعلق أبو حيان على هذا الرأى بقوله وأما كون أن هنا حرف تفسير متكلف جدا وأما قوله الخطايات فهكذا هو فى النسخة التى طالعناها جمع جمع التكسير بالألف والتاء وذلك لا ينقاس إنما يقتصر فيه على مورد السماع ولا يبعد أن تكون زيادة التاء فى الخطايات من الناسخ وأما قوله وأن كذبوا عطف بيان لما أى للسوأى وخبر كان محذوف إلى آخره . فهذا فهم أعجمى لأن الكلام مستقل فى غاية الحسن ، فلاحذف ، فنتكلف له محذوفا لايدل عليه دليل ، وأصحابنا لايجيزون حذف خبر كان وأخواتها لا اقتصارا ولا اختصارا ، إلا أن ورد منه شيء فلايقاس عليه[2] .

٢ ـ قال جار الله فى تفسير الآية الكريمة « قل إنما أعظكم بواحدة »

---

(١) مغنى اللبيب ـ لابن هشام ـ ج/٢ ص ٥٦ .

(٢) تفسير البحر المحيط ـ لابى حيان ـ ج/ ٧ ص١٦٤ .

أى بخصلة واحدة وهو فسرها بقوله أن تقوموا على أنه عطف بيان لها . وقال أبو حيان : هذا لايجوز لأن بواحدة نـــــكرة وأن تقوموا معرفة لتقديره قيامكم لله وعطف البيان فيه مذهبان أحدهما : أنه يشترط فيه أن يكون معرفة من معرفة وهو مذهب بصرى والثانى : أن يتبع ماقبله فى التعريف والتنـكير وهو مذهب كوفى وأما التخالف فلم يذهب إليه ذاهب وإنما هو وهم قائله(١) .

٣ — قال الزمخشرى فى أعراب الآية الـكريمة « أن نظن إلا ظنا »، أن أصله نظن ظنا ومعناه إثبات الظن فحسب ، فأدخل حرفا النفى والاستثناء ليفاد إثبات الظن مع نفى ماسواه وزيد نفى ماسوى الظن توكيدا لقوله « ومانحن بمستيقنين » ويرد على ذلك أبو حيان بقوله : هذا كلام من لاشعور له بالقاعدة النحوية من أن التفريغ يكون فى جميع المعمولات من فاعل ومفعول وغيره إلا المصدر المؤكد فانه لايكون فيه(٢) .

٤ — قوله تعالى « لاريب فيه » اختار الزمخشرى أن « فيه » خبر وبذلك بنى عليه سؤالا ذكره فى قوله « هلا قدم الظرف على الريب كما قدم على « الغول » فى قوله تعالى « لافيها غول » وقد أجاب الزمخشرى عن ذلك بأن القصد فى ايلاء الريب « حرف النفى » نفى الريب عنه ، وإثبات أنه حق وصدق لاباطل وكذب ولو أولى الظرف لقصد إلى مايبعد عن المراد وهو أن كتابا آخر فيه الريب لافيه . . . . » ويعلق أبو حيان على ذلك بقوله : وقد انتقل الزمخشرى من دعوى الاختصاص بتقديم

(١) تفسير البحر المحيط — لابى حيان — ج / ٧ ص ٢٩٠ .
(٢) تفسير البحر المحيط — لابى حيان ج / ٨ ص ٥٢ .

المفعول إلى دعواه بتقديم الخبر ولا نعلم أحداً يفرق بين ليس في الدار رجل وليس رجل في الدار ، وأبعد من ذلك ذهب إلى أن قوله لاريب صيغة خبر ومعناه النهي عن الريب[1] .

٥ — يقرر الزمخشري بأن الاضافة في قوله تعالى « أو كفارة طعام مساكين » مبينة كأنه قيل : أو كفارة من طعام مساكين ، كقولك : خاتم فضه بمعنى خاتم من فضه ، يرد عليه أبو حيان بأن هذه ليست من هذا الباب لأن خاتم فضه من باب إضافة شيء إلى جنسه والطعام ليس جنسا للكفارة إلا بتجوز بعيد ؛ وقرأ باقي السبعة بالتنوين ورفع طعام[2] .

٦ — يقول صاحب الكشاف في أعراب الآية الكريمة « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » أن الجملة موضع خبر عن الذين يؤمنون بالغيب وذهب به مذهب الاستئناف وذلك لوضوح تعلقه بما قبله . يرد عليه أبو حيان بأن هذا الأعراب منكر ، والمختار في الأعراب الجر على النعت والقطع أما للنصب وأما للرفع[3] .

٧ — يرى الزمخشري أن « الغيب » في الآية « الذين يؤمنون بالغيب » على وزن فيعل مخفف كما قيل ، وأصله قيل ، ويرد عليه أبو حيان بأن هذا مذهب التخفيف ولا يصار إليه حتى يسمع نقلا عن العرب[4] .

٨ — يذهب الزمخشري إلى أن اللام « الناس » في الآية الكريمة

---

(١) تفسير الكشاف ج/١ ص ٨٧ — تفسير البحر المحيط ج/١ ص٣٣.

(٢) تفسير البحر المحيط ج/١ ص ٢١ .

(٣) تفسير البحر المحيط ج/١ ص ٤٠ .

(٤) نفس المصدر .

«ومن الناس من يقول آمنا» بأنه أن كانت للجنس كانت من نكرة موصوفة وأن كانت للعهد كانت موصولة ويرد عليه أبو حيان بأن مذهب الزمخشري غير صحيح حيث أنه أراد جعل مناسبة الجنس للجنس والعهد للعهد، ولا تلازم بينهما، بل يجوز أن يكون اللام للجنس ومن موصوله ويجوز أن تكون للعهد ومن نكرة موصولة فلا تلازم بين ما ذكره[1].

٩ — يذهب الزمخشري في «ألا» أنها حرف تنبيه وأنه مركب من همزة استفهام ولا النافية لتدل على تحقيق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقا، يرد عليه أبو حيان بقوله: والذي نختاره أن «ألا» التنبيهية حرف بسيط وأن دعوى التركيب خلاف الأصل وزعم أن همزة الاستفهام إذا دخلت على لا النافية تفيد تحقيق ما بعدها خطأ، لأن مواقع «ألا» تدل على أن لا ليست للنفي حتى يتم ما ادعوه، ألا ترى أنه تقول: ألا أن زيدا منطلق ليس أصله لا أن زيدا منطلق إذ ليس من تراكيب العرب[2].

١٠ — ويذهب الزمخشري إلى أن «اظلم» في قوله تعالى «وإذا أظلم عليهم» متعد واستدل بشعر حبيب بن أوس – «هما اظلم حالى ثمت أجليا» – فيرد عليه أبو حيان بأن «اظلم غير متعد بنفسه ولكنه يتعدى بحرف جر، ثم ينقده في هذا الاستشهاد بقوله: كيف يستشهد بكلام من هو مولد وقد صنف الناس فيما وقع له من اللحن في شعره وقد نقد أبو على الفارسي الاستشهاد بقول حبيب.

---

(١) تفسير البحر المحيط – لأبي حيان – ج / ١ ص ٥٤.

(٢) تفسير البحر المحيط – لأبي حيان – ج / ١ ص ٩١.

من كان مرعى عزمه وهمومه　　روض الامالى لم يزل مهزولا[1]

١١ — زعم الزمخشرى بان ذكر - كلما - مع الاضاءة - و - إذا - مع الأظلام فى قوله تعالى « كلما أضاءلهم ... وإذا أظلم ... دليل على حرصهم وأن هممهم معقودة بذلك من إمكان المشى وتأتيه فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها وليس كذلك التوقف والتحبس انتهى . يعلق على ذلك أبو حيان بقوله : ولا فرق عندى فى هذه الآية بين كلما واذا من جهة المعنى لأنه متى فهم التكرار من كلما أضاءلهم مشوا فيه لزم التكرار منه أيضا فى أنه « إذا أظلم عليهم قاموا » لأن الأمر دائر بين إضاءة البرق والأظلام فمتى وجد هذا فقد هذا فيلزم من تكرار وجود هذا تكرار عدم وجود هذا على أن من النحويين من ذهب إلى أن « إذا » تدل على التكرار كلما وأنشد :

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى　　أقبلت نحو شقاء القوم أبترد[2]

١٢ - يقول الزمخشرى فى أعراب قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا » فان قلت - علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطفه عليه - قلت - ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشا كل من أمر أو نهى ، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين فهى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول زيد يعاقب بالقيد والارهاق وبشر عمرا بالعفو والاطلاق[3] ويجوز أيضا أن يكون معطوفا على قوله « فاتقوا النار » ولكن أبا حيان يرد عليه هذا الأعراب بقوله :

---

(١) تفسير البحر المحيط - لابى حيان - ج / ١ ص ٦١ .
(٢) تفسير البحر المحيط - لابى حيان - ج / ١ ص ٩١ .
(٣) تفسير الكشاف ج / ١ ص ١٩٦ .

وتلخص من هذا أن عطف الجمل بعضها على بعض ليس من شرطه أن تتفق معانى الجمل فعلى هذا يجوز عطف الجملة الخبرية على الجملة غير الخبرية وهذه المسألة فيها اختلاف ، ذهب جماعة ومنهم سيبويه بأنه ليس بشرط فبذلك يتمشى أعراب الزمخشرى وأبى البقاء وأجاز الزمخشرى وأبو البقاء أيضا أن يكون « بشر » معطوفا على « فاتقوا النار » ليكون عطف أمر على أمر كقولك - « يا بنى تميم أحذروا عقوبة ماجنيتم »« وبشر يافلان بنى أسد باحسان إليهم » وهذا الذى ذهبا إليه خطأ لأن قوله « فاتقوا جواب للشرط وموضعه جزم والمعطوف على الجواب جواب ولا يمكن فى قوله « وبشر » أن يكون جوابا لأنه أمر بالاشارة .... وليس قوله وبشر أعرابه مثل مامثل به يا بنى تميم ... الخ . لأن قوله « احذروا » لاموضع له عن الأعراب بخلاف قوله « فاتقوا » فلذلك أمكن فيما مثل به العطف ولم يمكن فى « بشر »[1] .

١٣ — يزعم الزمخشرى بأن « البشارة » هى الأخبار بما يظهر سرور المخبر به . وأدل قوله تعالى « وبشرهم بعذاب أليم » بالاستهزاء والسخرية الشديدة وقال سيبويه : أنه خبر يؤثر فى البشرة من حزن أو سرور وقال ابن عطية : الأغلب استعماله فى الخير وقد يستعمل فى الشر أيضا مقيدا به منصوصا على الشر المبشر به وعلى العموم متى أطلق لفظ البشارة يحمل على الخير ، يعلق أبو حيان على هذا بقوله : ولنا مايخالف قول ابن عطية والزمخشرى بدليل قول سيبويه وغيره ، وأن البشارة أول خبر يرد على الانسان من خير كان أو شر وسمى بذلك لتأثيره على البشرية وقال تعالى « يبشرهم ربهم برحمة منه » ، وقال تعالى « فبشرهم

(١) تفسير البحر المحيط - لابى حيان - ج / ١ ص ١١٠ .

بعذاب أليم » ولكن الزمخشري جعل عكس هذا في الكلام[1] .

١٤ — أجاز الزمخشري أن يكون « من ثمرة » في الآية الكريمة « ومن ثمره إذا أثمر » بيانا على سبيل قولك « رأيت منك أسدا » أي أنت أسد ويرد عليه أبو حيان : بأن كون من البيان ليس مذهب المحققين من أهل العربية بل تأولوا ما استدل به ولو فرضنا مجيء من البيان لما صح تقديرها للبيان هنا لأن القائلين بأن من للبيان قدروها وجعلوه صدرا لموصول صفة أن كان قبلها معرفة نحو ( فاجتنبوا الرجس من الأوثان ) أي الرجس الذي هو الأوثان وأن كان قبلها نكرة فهو يعود على تلك النكرة نحو من يضرب من رجل أي هو رجل ومن هذه ليس قبلها ما يصح أن يكون بيانا له لا نكره ولا معرفة إلا أن كان يتمحل لذلك[2] .

١٥ — يذهب الزمخشري في اعراب قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » بأن المضاف إليه هنا محذوف وتقديره أسماء المسميات لكونه معلوما مدلولا عليه بذكر الأسماء لأن الأسم لا بد له من مسمى وعوض منه اللام كقوله « واشتعل الرأس[3] » ويعلق على هذا أبو حيان بقوله : تعويض اللام عن الاضافة ليس من مذهب البصريين ثم يتعقبه تلميذه ابن مكتوم بقوله : وعلى تقدير ذلك لا يصح هنا لأن اللام عند من جعلها عوضا إنما يكون المعوض عنه المضاف إليه ضمير وهنـــا لم يقدروه إلا اسما ظاهرا فلا يجوز لا على رأي بصري ولا كوفي[4] .

---

(١) تفسير البحر المحيط ــ لابي حيان ــ ج / ١ ص ١٠٩ ــ ١١١ .

(٢) تفسير البحر المحيط لابي حيان ج / ١ ص ص ١١٤ .

(٣) تفسير الكشاف ج / ١ ص ١٢٠ .

(٤) تفسير البحر المحيط ج / ١ ص ١٤٦ .

١٦ — ذهب الزمخشرى بأن « الذى » فى قوله تعالى ، « كمثل الذى استوقد نارا » واقع موقع الذين كقوله تعالى « خضتم كالذى خاضوا » وذلك لسببين أحدهما أن « الذى » لكونه وصله إلى وصف كل معرفة بجملة وتكاثر وقوعه فى كلامهم ولكونه مستطالا بصلته حقيق بالتخفيف ولذلك نهكوه بالحذف فحذفوا ياءه ثم كسرته ثم اقتصروا به على اللام وحدها فى أسماء الفاعلين والمفعولين والثانى أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون وإنما ذلك علامة لزيادة الدلالة ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع والواحد فيهن واحد[1] ويرد على ذلك أبو حيان بقوله : ما ذكره من أن جمعه ليس بمنزل جمع غيره بالواو والنون صحيح من حيث اللفظ وأما من حيث المعنى فليس كذلك بل هو مثله من حيث المعنى ألا ترى أنه لا يكون واقعا إلا على من اجتمعت فيه شروط ما يجمع بالواو والنون من الذكورية والعقل ، ولا فرق بين الذين يفعلونه والفاعلين ، من جهة أنه لا يكون إلا جمعا لمذكر عاقل ولكنه لما كان مبنيا التزم فيه طريقة واحدة فى اللفظ عند أكثر العرب ، وهذيل أتت بصيغة الجمع فيه بالواو والنون رفعا والياء والنون نصبا وجرا وكل العرب التزمت جمع ضمير العائد عليه من صلته كما يعود على الجمع المذكر العاقل فدل هذا كله على أن ماذكره ليس بمسوغ لأن يوضع موضع « الذين » ألا على التأويل الذى ذكرناه من إرادة الجمع أو النوع وقد رجع إلى ذلك الزمخشرى أخيرا[2] .

١٧ — ذهب سيبويه والجمهور إلى أن « الفاء » فى قوله تعالى

---

(١) تفسير الكشاف ج / ١ ص ١٥٠ .

(٢) تفسير البحر المحيط — لابى حيان — ج / ١ ص ٧٧ .

« أفلا تعقلون » للعطف وكان الأصل تقديمها ولكن بما أن للهمزة الصدر قدمت على الفاء ولكن الزمخشري يزعم أن « الفاء » واقعة موقعها ويقدر بين « الهمزة والفاء » فعلا محذوفا يصح العطف بالفاء عليه ، وحكم « الواو وثم » حكم الفاء فى نحو أو لم يسيروا ، أثم إذا ماوقع ويقال أن الزمخشرى رجع فيما بعد إلى قول الجمهور[١] .

١٨ - قرر الزمخشرى أن قوله تعالى « فانه نزله » جواب قوله تعالى « من كان عدوا » ويرد عليه أبو حيان بقوله : هذا خطأ لما تقرر فى علم العربية من أن اسم الشرط لابد أن يكون فى الجواب ضمير يعود عليه ،... وأن قوله « فانه نزله على قلبه » ليس فيه ضمير يعود على « من » لمضى فعل التنزيل فلا يصح أن تكون الجملة جزاء وإنما الجزاء محذوف لدلالة ما بعده عليه[٢] .

١٩ — ذهب الزمخشرى إلى أن « أم » فى الآية الكريمة « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت » متصلة ويقدر قبلها محذوف ، ويرد عليه أبو حيان بقوله : لانعلم أحدا أجاز حذف هذه الجملة ولا يحفظ ذلك لافى شعر ولا غيره ، فلا يجوز أم زيد وأنت تريد أقام عمرو أم زيد[٣] .

٢٠ — ذهب جار الله فى أعراب قوله تعالى « ونحن له مسلمون » بأنها جملة اعتراضية أى ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون أو مذعنون ، ويرد عليه أبو حيان هذا الأعراب بقوله : أن الذى ذكره النحويون أن جملة الاعتراض هى الجملة التى تفيد تقوية بين جزأى موصول صلة أو بين جزأى اسناد نحو قوله وقد أدركتنى والحوادث جمة — أو بين فعل

(١) تفسير ابن مكتوم على هامش تفسير المحيط لابى حيان ج / ١ س ١٩٠
(٢) تفسير البحر المحيط - لابى حيان - ج / ١ ص ٣٢ .
(٣) تفسير أبى حيان ج / ١ ص ٤٠٠ .

شرط وجوابه أو بين قسم وجوابه أو بين منعوت ونعته أو ما أشبه ذلك فما بينها تلازم ما وهذه الجملة التي هي ونحن له مسلمون ليست من هذا الباب لأن قبلها كلاما مستقل وبعدها كلام مستقل وهو قوله « تلك أمة قد خلت »[١] .

٢١ — أجاز الزمخشري أن ينتصب « الها » في قوله تعالى « الها واحدا » على الاختصاص أي نريد بالهك الها واحدا . ويرد عليه أبو حيان بقوله : نص النحويون على أن المنصوب على الاختصاص لا يكون نكرة ولا مبهما[٢] .

٢٢ — يفسر الزمخشري « قد » في قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك » بمعنى « ربما نرى ومعناه « كثرة الرؤية » ويرد عليه أبو حيان بقوله : وشرحه هنا على التحقيق متضاد لأنه شرح « قد نرى » « بربما نرى » و « رب » على مذهب النحويين انما تكون لتقليل الشيء في نفسه أو لتقليل نظيره ثم قال الزمخشري ومعناه كثرة الرؤية فهو مضاد لمدلول « رب » على مذهب الجمهور ثم على هذا المعنى الذي ادعاه هو كثرة الرؤية لا يدل عليه اللفظ لأنه لم يوضع لمعنى الكثرة وانما فهمت الكثرة من متعلق الرؤية[٣] .

٢٣ — أجاز الزمخشري نصب قوله تعالى « علام الغيوب » على الاختصاص أو على النداء أو هو صفة لاسم ان .. ويرد عليه أبو حيان بقوله : بأن هذا الوجه الأخير لا يجوز لأنهم أجمعوا على أن ضمير المتكلم

---

(١) تفسير البحر المحيط — لابي حيان ج / ١ ص : ٤٠٣

(٢) تفسير البحر المحيط — لابي حيان ج / ١ ص ٤٠٣

(٣) تفسير البحر المحيط — لابي حيان — ج / ١ ص ٤٢٧

وضمير المخاطب لا يجوز أن يوصف وأما ضمير الغائب ففيه خلاف شاذ للكسائى [١] .

٢٤ — قال الزمخشرى فى معنى قوله تعالى : « لأواه حليم » ان « اواه » كلال من اللؤلؤ وهو الذى يكثر التأوه ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ، ويرد عليه أبو حيان بقوله : ان تشبيه أواه من أوه بلال من اللؤلؤ ليس بجيد لان مادة أوه موجودة فى صورة أواه ومادة لؤلؤ مفقودة فى لأل لاختلاف التركيب إذ لأل ثلاثى ولؤلؤ رباعى وشرط الاشتقاق التوافق فى الحروف الأصلية [٢] .

٢٥ — قال الزمخشرى فى اعراب الآية الكريمة « ان ربى لسميع الدعاء » من اضافة فعيل إلى فاعله ويجعل دعاء الله سميعا على الاسناد المجازى والمراد سماع الله ويقول أبو حيان فى رده : هذا بعيد لاستلزامه أن يكون من باب الصفة المشبهة والصفة متعدية ولا يجوز ذلك إلا على رأى أبى على الفارسى حيث لا يكون لبس وأما هنا فاللبس حاصل إذ الظاهر أنه من إضافة المثال إلى المفعول لا من اضافته إلى الفاعل وإنما أجاز ذلك الفارسى فى مثل « زيد ظالم العبيد » إذا علم أن له عبيدا ظالمين [٣] .

٢٦ — قال الزمخشرى فى إعراب الآية الكريمة « فهى ظالمة » . . فهى خاوية « بأن محل الجملة الأولى من الاعراب النصب والثانية لا محل لها لأنها معطوفة على « أهلكناها » وهذا الفعل ليس له محل ، ويرد عليه

---

(١) تفسير البحر المحيط — لابى حيان — ج / ٤ ص ٤٩

(٢) تفسير البحر المحيط — لابى حيان — ج / ٥ ص ١٠٦

(٣) تفسير البحر المحيط — لابى حيان — ج / ٥ ص ٤٢٤

ذلك صاحب البحر المحيط بقوله: هذا الوجه ليس بجيد لأن فكاين الأجود في أعرابها أن تكون مبتدأ والخبر الجملة من قوله أهلكناها فهي في فهي في موضع رفع والمعطوف على الخبر خبر فيكون قوله تعالى « فهي خاوية » في موضع رفع[1] .

٢٧ — يقول جار الله في معنى قوله تعالى « وقره أعين لنا » بأن « أعين » جاء بصيغة جمع القلة دون عيون الذي هو جمع كثرة لأنه أريد أعين المتقين وهي قليلة بالنسبة إلى عيون غيرهم ، ويعلق على هذا أبو حيان بقوله : هذا ليس بجيد لأن أعين تطلق على عشرة فما دونه من الجمع والمتقون ليست أعينهم عشرة بل هي عيون كثيرة جدا وأن كانت عيونهم قليلة بالنسبة إلى عيون غيرهم ، فهي من الكثرة بحيث تفوت العدد[2]

٢٨ — يجعل الكوفيون « الباء في اسم الله » للاستعانة نحو كتبت بالقلم وموضعها النصب أي « بدأت » وقدر الزمخشري فعلا غير بدأت — وجعله متأخرا — تقديره — بسم الله أقرأ — أو — أتلو — والتقديم على العامل عنده يوجب الاختصاص ،ولكن أبا حيان يرد عليه بقوله :ذهب جمهرة النحويين إلى تقديره مقدما لا على سبيل الحصر ، على أن التقديم قد يكون للاهتمام لا للحصر[3] .

٢٩ — لتقارب معنى « — غير — و — لا — أجاز الزمخشري أنا زيدا غير ضارب ، قال : كما جاز أنا زيدا لاضارب . و أوردها على أنها مسألة

---

(١) تفسير البحر المحيط — لابي حيان — ج / ٦ ص ٣٧٦ .
(٢) تفسير البحر المحيط — لابي حيان — ج — ٦ ص ٥١٧ .
(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢ .
وتفسير البحر المحيط ج ١ ص ١٦ .

مقررة مفروغ عنها ليقوى التناسب بين ـ غير ولا ـ إذ لم يكن يذكر بينهما خلاف ثم يعلق أبو حيان على ذلك بقوله : وهذا الذى ذهب إليه الزمخشرى مذهب ضعيف جدا ... لأن كون اللفظ يقارب اللفظ فى المعنى لا يقضى بأن يجرى أحكام عليه[1] .

٣٠ ـ إياك ـ فى مثل ـ قوله تعالى « إياك نعبد ـ مفعول مقدم والزمخشرى يزعم أنه لا يقدم على العامل إلا للتخصيص فكأنه قال: ما نعبد إلا اياك ثم يعلق أبو حيان على هذا بقوله : التقديم عندنا هو للاعتناء والاهتمام بالمفعول[2] .

٣١ ـ قال الزمخشرى فى قوله تعالى : « خشعا أبصارهم » بأن خشعا على يخشعن أبصارهم وهى لغة من يقول «أكلونى البراغيث وهم طىء » ، ويرد عليه أبو حيان بقوله: لا يجرى جمع التكسير مجرى جمع السلامة فيكون على تلك اللغة النادرة القليلة وقد نص سيبويه على أن جمع التكسير أكثر فى كلام العرب فكيف يكون أكثر ويكون على تلك اللغة النادرة القليلة وقال الفراء «حين ذكر الأفراد مذكرا ومؤنثا وجمع التكسير قال لأن الصفة ، متى تقدمت على الجماعة جاز فيها جميع ذلك والجمع موافق للفظها فكان اشبه » انتهى كلام الفراء ، ثم يقول أبو حيان : وإنما يخرج على تلك اللغة إذا كان الجمع مجموعا بالواو والنون نحو مررت بقوم كريمين آباؤهم ، والزمخشرى قاس جمع التكسير على هذا الجمع السالم وهو قياس فاسد ، ويرده النقل عن العرب « أن جمع التكسير أجود من الأفراد[3] » .

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٨ تفسير البحر المحيط ج / ١ ص ٢٤ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٨ تفسير البحر المحيط ج ١ ص ٢٤

(٣) تفسير البحر المحيط ـ لأبى حيان ـ ج/٣ ص ٢٢٥ .

٣٢ ـ قال الزمخشري فى تفسير الآية الكريمة « يريد الله ليبين لكم » أى يريد الله أن يبين لكم فزيدت اللام مؤكدة لارادة التبيين كما زيدت فى « لا أبا لك » لتأكيد إضافة الأب والمعنى « يريد الله » أن يبين لكم » انتهى الكلام . ورد عليه أبو حيان بقوله : كلامه هذا خارج عن أقوال البصريين والكوفيين ، أما كونه خارجا عن أقوال البصريين فلانه جعل اللام مؤكدة مقوية لتعدى « يريد » والمفعول متأخرا . وأضمر أن بعد هذه اللام وأما كونه خارجا عن أقوال الكوفيين فلأنهم يجعلون النصب باللام لا بأن وهو جعل النصب بأن مضمرة بعد اللام[١] .

ومن هذه الملاحظات والمآخذ الكثيرة التي أخذها أبو حيان على الزمخشري مما ذكرناه هنا اكتفاء به عما لم نذكره نجد أن أبا حيان ناقش الزمخشري بذوقه اللغوى النحوى المتمكن وكان الزمخشري فى أغلب الأمر واقفا عند حدود بلاغة الآيات كما فهمها بذوقه الخاص .. وكان أبو حيان فى أكثر نقده محكما لمذاهب النحو فى آراء الزمخشري وهذه المذاهب لم يكن الزمخشري يتبعها فى أغلب الأمر حبا منه للاجتهاد ودفعا لوصمة التقليد .

ومهما كان فان أبا حيان كان مصيبا فى مواضع من نقده ومتحاملا متجنيا فى مواضع أخرى .

على أن ملاحظات أبا حيان تنصب كلها أوجلها على آراء الزمخشري النحوية واللغوية فى تفسيره وليس منها شىء يتصل بمذهب الزمخشري اللغوى ولا بأصول آرائه النحوية .

ويبدو أن المعركة بين الزمخشري وأبى حيان كانت تتحكم فيها بعض العناصر الأخرى من مثل اعتزالية الزمخشري أو خوارزميته وغير ذلك من العوامل .

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ لابى حيان ـ ج / ٣ ص ٢٢٥ .

# الفصل الرابع

## تجديد الزمخشري اللغوي

**تجديد الزمخشري اللغوي :**

يعيش الزمخشري بيننا في العصر الحاضر، متجددا في آرائه وأفكاره، وفي نظراته اللغوية وتفكيره الذي ينطبق على تفكير علمائنا اللغويين المعاصرين .

ومن مظاهر تجديد الزمخشري اللغوي ما يلي :

١ — تسهيل اللغة على أصحابها والناطقين بها بجعل كلام علمائها في كل عصر حجة على اللسان اللغوي يؤخذ به ويرجع اليه ، فما بالنا باصطلاح علماء اللغة الموجودين في عصر من العصور على مسألة من المسائل ، لا شك انه يكون أقوى في الأخذ اللغوي من كلام فرد واحد . وهذا الاصطلاح موجود اليوم في المجامع اللغوية المبثوثة في بعض عواصم العالم العربي ، فلا ريب في أن اصطلاحها اللغوي على شيء أو مسألة لغوية يكون حجة في الاستدلال .

٢ — توسع الزمخشري في القياس اللغوي كأستاذه ابن جني يعطي اللغة مرونة وخصبا ونما وتجدداً كثيرا فلا شك أن ذلك من أسباب ثراء اللغة ونموها .

٣ — كذلك توسعه في الاشتقاق يجعل للغة فلسفة لغوية مفهومة ولا يجعل الألفاظ عبئا ثقيلا لا يعرف معناه ولا مغزاه عند الناطقين بها من أصحاب اللسان العربي .

٤ — ادخال الاستشهاد بكلام المولدين في الاستدلال اللغوي كما فعل الزمخشري في الأساس يتيح لنا أن نصنع هذا الصنيع في لساننا اللغوي الحاضر فنأتي بشواهد في معاجمنا اللغوية من كلام أعلام الأدباء والكتاب

فى العالم العربى من ذوى الأصالة والثقافة العربية الواسعة واللسان اللغوى الحافظ ممن يسمون فى عرف النقاد المجددين « أدباء كلاسيكيين » .

٥ — ويتصل بتجديد الزمخشرى اللغوى أنه انفرد ببعض المواد اللغوية التى ذكرها فى الأساس ولم ترد عند غيره من اللغويين المتقدمين ولا فى المعاجم اللغوية السابقة على الأساس .

ومن ذلك مادة « استلف » وهذه الصيغة شائعة فى ألسنة الناس وقد جاءت فى أساس البلاغة يقول الزمخشرى : السلف . ( أسلفته وسلفته واستلف فلان واستسلف وتسلف ) . قال :

تذكر أياما تسلف لينها    على لذة لو يرجع المتسلف

وفحوى كلام الزمخشرى أن المادة غير منكرة ولا عامية ولكن معاجم اللغة تذكر بدلا منها « استسلف وتسلف » يقول ابن منظور فى اللسان: « وقد أسلفت فى كذا ، واستسلفت منه دراهم ، وتسلفت فاسلفنى الليث السلف ، القرض والفعل أسلفت يقال : أسلفته مالا أى أقرضته ... وفى الحديث أنه استسلف من أعرابى بكرا أى استقرض [1] ويقول : صاحب مستدرك تاج العروس : استلفت منه دراهم فاسلفنى مثل تسلفت ، نقله الجوهرى ومنه أنه استلف من أعرابى بكرا أى استقرض [2] . والصحيح أن استلف فى كلامه محرفة عن استسلف كما ورد فى النهاية التى هى مصدر التاج .

٦ — وينفرد الزمخشرى كذلك بما نسب اليه من أن « لن » الناصبة تفيد تأبيد النفى « يقول ابن هشام » لن لا تفيد توكيد النفى خلافا للزمخشرى

---

(١) لسان العرب — لابن منظور — ج ١١

(٢) تاج العروس ج ٦ ص ١٤٥

فى كشافه ولا تأبيده خلافا له فى أنموذجه[1] » ويقول الأشمونى أيضا فى شرحه على ألفية بن مالك : « ان لن لا تفيد تأبيد النفى ولا تأكيده خلافا للزمخشرى ، الأول فى أنموذجه ، والثانى فى كشافه[2] » .

ولكن افادة « لن » للتأكيد كثيرة فى كلام الزمخشرى فى الكشاف والمفصل والأنموذج ، فنراه يقول فى تفسيره للاية الكريمة :«لن ترانى» فان قلت : ما معنى لن قلت : تأكيد النفى الذى تعطيه لا وذلك أن لا تنفى المستقبل تقول : لا أفعل هذا فاذا أكدت نفيها ، قلت لن أفعل غدا ، وكقوله تعالى « لن يخلقوا ذبابا » فقوله «لا تدركه الأبصار » نفى للرؤية فيما يستقبل ولن ترانى تأكيد وبيان[3] .

وكذلك ذكر الزمخشرى فى المفصل[4] : ان لن تفيد تأكيد النفى ما نصه : لن لتأكيد ما تعطيه لا ، من نفى المستقبل تقول . لا أبرح اليوم مكانى فاذا وكدت وشددت قلت لن ابرح اليوم مكانى . . والزمخشرى هنا لا يصرح بما يدل على أن « لن تفيد التأبيد ، ولكن ابن يعيش فى شرح هذا الكلام يقرر : أعلم أن « معناها النفى وهى موضوعة لنفى المستقبل وهى أبلغ فى نفيه من لا . لأن لا تنفى يفعل ، إذا أريد به المستقبل ولن تنفى فعلا مستقبلا قد دخل عليه السين وسوف تقع جوابا لقول القائل سيقوم زيد وسوف يقوم والسين وسوف تفيدان التنفيس فى الزمان فلذلك يقع نفيه على التأبيد وطول المدة نحو قوله تعالى « ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم » فذكر الأبد بعد لن تأكيد لما تعطيه لن من النفى الأبدى ومنه

---

(١) مغنى اللبيب ـ لابن هشام ـ حرف اللام

(٢) شرح الأشمونى على ألفية بن مالك : ج ٣ : ص ٢٧٨ ط . أولى

(٣) تفسير الكشاف ج ١ . ص ٥٧٤

(٤) شرح المفصل ـ لابن يعيش ج ٨ . ص ١١١

قوله تعالى « لن ترانى » ولم يلزم منه عدم الرؤية فى الآخرة . لان المراد أنك لن ترانى فى الدنيا لأن السؤال وقع فى الدنيا والنفى على حسب الاثبات.

ويقول محمد بن عبد الغنى الاردبيلى فى شرح كلام الزمخشرى فى الأنموذج : قال — أى الزمخشرى — وانتصاب المضارع بأربعة أحرف نحو أن يخرج ولن يضرب وكى يكرم وإذن يذهب : أقول : انتصاب المضارع بأربعة أحرف... ولن نحو لن يضرب زيد ومعنى لن لنفى الاستقبال ولهذا لا مع الفعل المستقبل (١).

ويقول فى موضع آخر : قال الزمخشرى: لن نظيرة لا فى نفى المستقبل ولكن على التأكيد ، ويعلق الشارح الأردبيلى على هذا بقوله أقول إذا أردت نفى المستقبل مطلقا قلت لا أضرب مثلا وإذا أردت نفيه مع التأكيد قلت : لن أضرب مثلا وفى بعض النسخ « التأبيد » بدل قوله التأكيد (٢).

وينقد الصبان افادة « لن التأبيد » فيقول فى حاشيته على الأشمونى وافقه على التأكيد كثيرون ، ورد ادعاؤه التأبيد ، بأنه لا دليل عليه وبأنه ولو كانت للتأبيد للزم التناقض بذكر اليوم « فلن أكلم اليوم انسيا » والتكرار بذكر أبدا فى « ولن يتمنونه أبدا » وأما التأبيد فى « لن يخلقوا ذبابا » فالأمر خارجى لا من مقتضيات لن (٣).

ويبدو أن مسألة افادة « لن » التأبيد التى تنسب للزمخشرى فى أنموذجه والتى قررها ابن يعيش فى مفصله لم يكن للزمخشرى فضل السبق بالذهاب اليها بل سبقه إلى ذلك المعتزلة يقول شارح عوامل الجرجانى . ان لن معناها

---

(١) شرح الأنموذج ص ٢٧٤ ط طهران

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٢

(٣) حاشية الصبان على الاشمونى ج ٣ : ص ٢٧٨

نفى المستقبل مع التأكيد نحو لن يضرب زيد وقالت المعتزلة للتأبيد لأن الله تعالي نفى رؤيته بقوله لن ترانى وهو لا يرى فى الدنيا والآخرة لأنه ليس فى مكان ولا فى جهة فرؤيته ليست ممكنة فيكون لن للنفى الأبدى [1] .

ولا شك أن الزمخشرى قد تأثر بآراء المعتزلة فى هذه المسألة حيث يقررون استحالة رؤية الله عز وجل فى الدنيا والآخرة معا ويرون أن — الرؤية منافية لصفاته تعالى .

ومن ذلك كله نخلص إلى أن « التأبيد » الذى نسب إلى الزمخشرى أفادته من ( لن ) الناصبة مشكوك فيه ، إذ لم نعثر حتى الآن على نص صريح للزمخشرى يؤكد التأبيد .

ويبدو أن افادة لن « التأبيد » ليست حتمية . بل قد يستفاد التأبيد من « لن » بمعونة القرائن والمقام فى بعض الأحوال لا فى كل الاستعمالات .

ومن هذا نرى أن الذين يقررون افادة لن « التأبيد » عند الزمخشرى ويطلقون عليها « لن الزمخشرية » هم واهمون فى ذلك والحقيقة كما قلت أن التأبيد يستفاد من القرائن ولا يستفاد من « لن » ذاتها وان المعتزلة حين قرروا افادة « لن » للتأبيد ، إنما نظروا إلى ما تفيده الآية الكريمة « لن ترانى » من دلالة على التأبيد بقرينة ان الكلام صادر عن الذات الأعلى بنفى الرؤية وإذا انتفت مرة انتفت كل مرة على سبيل التأبيد ، وذلك واضح لا يحتاج إلى بيان فليس الذى أفاد التأبيد هو « لن » وحدها ، إنما استفيد من « لن » بمعونة المقام والقرينة وهى عقلية ، إذ استحالة الرؤية أمر عقلى لزم منه استفادة التأبيد من « لن » .

٧ — ومما ينفرد به الزمخشرى كذلك ما ذهب اليه فى عطف البيان

---

(١) شرح عوامل الجرجانى ص ١٥٥ ضمن مجموعة ط طهران

من جواز التخالف بينه وبين متبوعه فى التعريف والتنكير وهو فى ذلك يخالف كلا من الكوفيين والبصريين وقد ورد رأى الزمخشرى عند كلامه فى تفسيره على الآية الكريمة « وفيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا »[1] . قال الزمخشرى فى إعراب الآية الكريمة : فان قلت كيف أجزت أن يكون مقام ابراهيم والأمن عطف بيان لآيات وقوله « ومن دخله كان آمنا » جملة مستأنفة اما ابتدائية أو شرطية. قلت: اجزت من ذلك من حيث المعنى لأن قوله « من دخله كان آمنا » دل على آمن داخله فكأنه قيل فيه آيات بينات مقام ابراهيم - وأمن داخله ، ألا ترى أنك لو قلت فيه آية بينة كان فى معنى قولك فيه آية بينة أمن من دخله انتهى ويرد عليه أبو حيان الأندلسى ( م ٧٥٤ ه )[2] فى تفسيره الكبير بقوله « ولم يذكر الزمخشرى فى إعراب « مقام ابراهيم » إلا أنه عطف بيان لقوله آيات بينات ورد عليه ذلك لأن آيات نكرة ومقام ابراهيم معرفة ولا يجوز التخالف فى عطف البيان وقوله مخالف لاجماع الكوفيين والبصريين فلا يلتفت اليه وحكم عطف البيان عند الكوفيين حكم النعت فتتبع النكرة النكرة والمعرفة المعرفة ، وقد تبعهم فى ذلك أبو على الفارسى . وأما عند البصريين فلا يجوز أن يكونا نكرتين .

ويقول السيوطى فى همع الهوامع فى باب عطف البيان[3] ما نصه هو الجارى مجرى النعت توضيحا وتخصيصا قيل وتوكيدا لكن يجب جموده لا كونه أخص من المتبوع أو غير أخص فى الأصح ، ولكن قال فى شرح

---

(١) آية ٩٧ سورة آل عمران

(٢) تفسير المحيط - لابن حيان الاندلسى - ج ٣ : ص ٧ و ٨

(٣) همع الهوامع - للسيوطى - ج ٢ : ص ١٢١

التسهيل أن الجرجانى والزمخشرى اشترطا زيادة تخصصه ... ويوافقه فى الأفراد والتذكير والتنكير وفروعهما ومنع البصرية جريانة على النكرة وذهب الكوفيون والفارسى والزمخشرى إلى جواز تنكيرهما ، وجوز الزمخشرى تخالفهما .

٨ — مما انفرد به الزمخشرى ذهابه فى الآية الكريمة « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم »[١] إلى أن تكون جملة أن — أعبدوا الله بيانا للهاء من قوله تعالى « أمرتنى به » مخالفا غيره من علماء النحو قال ابن هشام : فى « ما افترق فيه عطف البيان والبدل » العطف لا يكون مضمرا ولا تابعا لمضمر لأنه فى الجوامد نظير النعت فى المشتق ولكن أجاز الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى « ان — اعبدوا الله » أن يكون بيانا للهاء من قوله تعالى « الا ما أمرتنى به » بخلاف أن يجعله بدلا من الهاء فى به[٢] .

٩ — ويذهب الزمخشرى فى معنى « هل » فى قوله تعالى — « هل أتى على الانسان » إلى أنها بمعنى « قد » قال فى الكشاف فى تفسير الآية هل أتى على الانسان حين — هل بمعنى قد فى الاستفهام خاصة فالمعنى أقد أتى على التقرير والتقريب[٣] . ويعلق ابن هشام على ذلك بقوله[٤] : « قال قوم ان هل لا تأتى » بمعنى « قد » أصلا وهذا هو الصواب ، وان كان نقل الزمخشرى عن سيبويه أن هل بمعنى « قد » ولكن فى الكتاب أيضا ما يخالفه وينص على أنها للاستفهام ولم يزد على ذلك شيئا .

(١) آية ١١٧ من سورة المائدة
(٢) مغنى اللبيب ـ لابن هشام ـ ح ٢ س ٨٥ والكشاف ج ١ س ٤٩٢
(٣) تفسير الكشاف ج ٣ : س ٢٩٥
(٤) مغنى اللبيب لابن هشام ج ٢ س ٣٣

١٠ — ومما ذهب اليه الزمخشري جعله الواو قد تأتى بمعنى « أو » فى الاباحة . يقول ابن هشام فى مغنى اللبيب زعم قوم أن الواو قد تخرج عن افادة مطلق الجمع ... وذلك أن تكون بمعنى « أو » فى الاباحة قاله الزمخشري [1] وزعم أنه يقال جالس الحسن وابن سيرين أى أحدهما .. والمعروف من كلام النحويين أنه لو قيل جالس الحسن وابن سيرين كان أمرا بمجالسة كل واحد منهما وجعلوا ذلك فرقا بين العطف بالواو وأو [2]

١١ — ومما ذهب اليه الزمخشري وانفرد به جعله « الواو الداخلة على الجملة الموصوف بها تأكيد لصوقها بموصوفها » يقول ابن هشام فى مغنى اللبيب : هذه الواو أثبتها الزمخشري ومن قلده وحملوا على ذلك مواضع الواو فيها كلها [3] .

١٢ — وزاد الزمخشري أيضا على اقسام الجمل الاسمية ، والفعلية ، والظرفية الجملة الشرطية [4] .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ١٦٤ يقول فى ذلك : « أو فى أصلها لتساوى شيئين فصاعدا فى الشك ثم اتسع فيها فأستعيرت للتساوى فى غير الشك وذلك قولك جالس الحسن أبو ابن سيرين أنهما سيان فى استصوب أن يجالسا

(٢) مغنى اللبيب — لابن هشام — ج ٢ : ص ٣٣

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٧

(٤) المصدر السابق ج ٢ : ص ٤٢

# الفصل الخامس

# صلة تفكير الزمخشري اللغوي بالتفكير المعاصر

**صلة تفكيره اللغوى بالتفكير المعاصر**

( أ ) لاشك أن اللغة كائن حى متجدد بتجدد مرائى الحياة ومشاهدها والكشف عن أسرارها وبتجدد مظاهر الحضارة ومخترعاتها وبما يدخل إلى أهل اللسان من الألسنة الأخرى من الألفاظ ومصطلحات وأسماء .

وعلماء اللغة يقفون باللغة عند نهاية النصف الأول من القرن الثانى الهجرى فلا يصح توليد ألفاظ ولا الاصطلاح عليها إلا إذا كان لها وضع سائغ مقبول عند الجاهلين أو عند الإسلاميين أو المخضرمين . وما عربه هؤلاء لا يجوز مخالفته ولا تعريبه مرة أخرى .

ولكن علمائنا اليوم يرون ضرورة التجديد والتوليد اللغوى ، عن طريق الاشتقاق والقياس والتعريب وغيرها . على أن لا تخالف المصطلحات الجديدة أصول العرب فى نحوها وصرفها واشتقاقاتها وقواعدها ، — فيبيحون أن نعرب الألفاظ الأعجمية كما فعل المتقدمون . وأن نبتكر أسماء جديدة على نمط ألفاظ العرب واصطلاحاتهم فى الوضع اللغوى ومن ثم تقوم المعاجم اللغوية اليوم ببلاد العربية بهذه المهمة بصدر رحب وتفكير منطلق وهى تضع فى رأس المصطلح الجديد إذا أداه لفظ قديم يلائمه ، أو ينطبق عليه معناه كان ذلك أولى باصطلاح والاستعمال وإلا كان لهم حق الوضع اللغوى على نمط ماتفعل العرب وتراعيه من قواعد فى الاشتقاق والقياس والصرف وغيرها .

وقد كان المرحوم إبراهيم عبد القادر المازنى الأديب المصرى المشهور يدعو على صفحات المجلات ، كما أن الزيات يدعو فى المجمع اللغوى إلى

تقرير حق المحدثين فى الوضع اللغوى[1] .

( ب ) والمراد بالوضع اللغوى اطلاق لفظ على معنى ابتداء ، وقد يكون ذلك الوضع بالارتجال ، كالأب والأم والبحر والأرض والجبل وقد يكون بالاشتقاق ككاتب وشاعر ومفتاح وملعب ومستشفى ، وقد يكون بالتجوز كاطلاق السماء « على المطر » والغيث « على النبات » ، والقهوة « على المكان » الذى تشرب فيه . وهذا الوضع بطرقه المختلفة كأن يجرى على قوانين مطردة نشأت عن طبيعة اللغة ، — وسليقة العرب ، وهذه القوانين هى ما نسميها بالقواعد والقياس ، ولكن المتكلمين باللغة لأسباب طبيعية أيضا يخالفون أحيانا هذه القواعد أو هذا القياس ، وهذه المخالفة ما نسميه « بالسماع » والغرض منه مخالفة القياس فى الاشتقاق ، أو النسب ، أو الجمع ، مثلا كقوله « يافع » من اليفع والقياس موفع .

و « أموى » بالفتح فى النسبة إلى أمية وأهلون وعشرون وأرضون وستون ، وبابه فى جمعها جمعا مذكرا سالما ، وقد كان هذا السماع كالوضع من حق العرب الأولين ويرى الزيات اعطاء هذا الحق المحدثين فنقبل منهم ما خالفوا القياس فى لفظه أو خالفوا المتام فى مدلوله . كقولهم مثلا من النوع الأول « متحف » بالفتح والقياس الضم و « مقهى » بالفتح والقياس الضم و « نوادى » جمع ناد والقياس أندية و « أحفاد » جمع حفيد والقياس حفدة و « طبيعى » و « بديهى » والقياس طبعى وبدهى وغير ذلك[2] .

( جـ ) ومن مثل ذلك ما أجازه مجمع اللغة العربية فى إستخدام الاشتقاق

---

(١) قصة الادب المعاصر — محمد عبد المنعم خفاجى — جـ ١ : ص ٧ .

(٢) قصة الادب المعاصر — لعبد المنعم الخفاجى — جـ ١ : ص ٧ .

قياسا لدى الضرورة وذلك للحاجة الماسة فى العلوم والفنون ولذلك أصدر قراره بهذا الصدد وفيما يلى نص القرار « اشتق العرب كثيرا من أسماء الأعيان والمجمع يجيز هذا الاشتقاق للضرورة فى العلوم[1] » . وقد ذكر المرحوم الأستاذ الشيخ أحمد الاسكندرى فى مجلة المجمع مئات الأمثلة من أسماء الأعيان التى اشتق منها العرب[2] . من مثل أسماء التاج والباب والبحر والقوس وغير ذلك من الاشتقاقات وقد نحا الزمخشرى هذا المنحى من الاشتقاق فى كتابه « أساس البلاغة » .

( د )ومن ذلك ايضا :المصدر الصناعى :وهو مايتكون بزيادة — ياء النسب والتاء على اللفظ بالتعبير عن المعنى الحاصل بالمصدر . ولم يستخدم العرب هذا المصدر إلافى بضع عشرات من الكلمات : منها كلمات :الجاهلية، والأعرابية ،واللصوصية ، والرجولية ،والربوبية، والألوهية،والرهبانية، والفروسية ، والأريحية وتوسع من بعدهم الفلاسفة والعلماء وبخاصة أرباب اللغة منهم كابن سيدة[3] والزمخشرى ولشدة الحاجة إلى هذا المصدر للتعبير عن كثير من حقائق الفلسفة والعلوم والفنون ، رأى مجمع اللغة العربية أن يكون قياسا وأصدر قراره التالى « إذا أريد صنع مصدر من كلمة يزاد عليها ياء النسب والتاء[4] »

وليس هذا الفكر اللغوى بجديد على عصرنا الراهن ،فان الزمخشرى كما أشرنا إلى ذلك وهو أرحب صدرا وأرفع أفقا فقد نحا هذا المنحى

(١) الجزء الأول من مجلة المجمع ص : ٣٦ ، ٢٣٢ — ٢٦٨
(٢) الجزء الاول من مجلة المجمع ص : ٢٣٦ — ٢٦٨
(٣) فقه اللغة — للدكتور على عبد الواحد وافى ص ١٧٣ ط الخامسة
(٤) الجزء الاول من مجلة المجمع ص : ٣٥، ٢١١ ، ٢١٥

وسار فى هذا الطريق فاعتمد كلام اللغويين حجة ككلام وفى وضع كلام المولدين موضع الاعتبار والاستشهاد ، وتوسع فى اللغة عن طريق القياس والاشتقاق وخالف فى بعض الأحايين غيره من المتقدمين وأباح لنفسه مخالفة معاجم اللغة وأتى بكثير من الجديد المقبول الذى لا يجافى منطق اللغة واستعمالاتها .

ولاشك أن الزمخشرى يتضح تفكيره اللغوى اتضاحا ظاهرا بما ذكرناه فى شتى أبواب الرسالة وفصولها عامة وبما أشرنا إليه من تجديده اللغوى خاصة .

ومن هذا كله يتضح لنا فى جلاء صلة تفكير الزمخشرى اللغوى بالتفكير المعاصر الذى يذهب إلى تسهيل اللغة على المتحدثين بها وتجويز تجديدات المعاصرين اللغوية وخاصة إذا صدرت من مجامع لغوية رسمية فالمجمع اللغوى فى القاهرة والمجمع العلمى فى دمشق وفى المجمع العلمى فى العراق .

وفى هذا دليل على أن الفكرة اللغوية عند الزمخشرى لا يزال جديدا كل الجدة إلى اليوم ، ولا نزال محتاجين إلى صدره الرحب وتفكيره الخصب وتجديده المقبول .

* * *

( ف )

(١٦٩) الفاسى ـ القاضى تقى الدين محمد بن أحمد . شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام

(١٧٠) الفاسى ـ القاضى تقى الدين محمد بن أحمد . العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين

(١٧١) الأفغانى ـ سعيد الأفغانى . أصول النحو

(١٧٢) فهارس دار الكتب المصرية والجامعة العربية

( ق )

(١٧٣) القالي ـ إسماعيل بن القاسم القالى البغدادى . الامالى

(١٧٤) قاسم بن قطلوبوقا . تاج التراجم

( ق )

(١٧٥) القفطى ـ جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف . . إنباه الرواة

(١٧٦) القلقشندى المصرى . . . صبح الأعشى

( ك )

(١٧٧) كرد على ـ محمد كرد على . رسائل الوطواط

(١٧٨) كرد على ـ محمد كرد على أمراء البيان

(١٧٩) الكرملى — الأب انستاس الكرملى. مجلة لغة العرب

( م )

(١٨٠) المافروخى . محاسن أصبهان
(١٨١) المبرد — أبو العباس محمد بن يزيد . الكامل
(١٨٢) مبارك - محمد . فقه اللغة
(١٨٣) مجلة مجمع اللغة العربية
(١٨٤) مجلة المقتطف عدد أكتوبر سنة ١٩٣٨
(١٨٥) مرتضى — الشريف العلوى . الأمالى
(١٨٦) معين — الدكتور محمد . برهان قاطع
(١٨٧) محمد الخضر حسين . دراسات فى العربية وتاريخها
(١٨٨) محمد فؤاد عبد الباقى — . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
(١٨٩) المقدسى - شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد المقدسى الحنفى . أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم
(١٩٠) — المقرى - أحمد بن محمد المقرى . أزهار الرياض فى اخبار القاضى عياض . المغربى
(١٩١) المقدسى - شهاب الدين تراجم رجال القرنين السادس والسابع
(١٩٢) المقريزى - تقى الدين أحمد بن على . خطط المقريزى
(١٩٣) المقرى — أحمد المقرى المغربى . نفح الطيب

( م )

(١٩٤) ميرخوند . تاريخ روضة الصفا

(١٩٥) مهيار ـ مهيار بن مرزويه الديلمى . ديوان مهيار

( ن )

(١٩٦) النجار ـ محمد على . لغويات

(١٩٧) النسوى . سيرة جلال الدين منكبرتى.

(١٩٨) نفيسى ـ نظام الأطباء . فرهندى ـــ لغة

( ى )

(١٩٩) اليافعى ـ عبد الله ابن أسعد بن على . مرآة الجنان اليمانى .

(٢٠٠) ياقوت الحموى ـ أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى . معجم البلدان

(٢٠١) ياقوت الحموى ـ أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى . معجم الأدباء

(٢٠٢) يوهان فك ( ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ) . العربية

✡ ✡ ✡

# الفهرس

* * *

رقم الايداع بدار الكتب
٣٦٣٣ / ١٩٧٧ م

مطبعة دار نشر الثقافة
٢١ شارع كامل صدقي ، الفجالة
ت ٩١٦٠٧٦